HEBA MOHAMMED

هبة محمد

فإذا هم خامدون

رواية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى يناير 2020
حقوق النشر محفوظة للكاتب حصرًا

تدقيق لغوي
أ.محمد عبد المجيد الصاوي

تصميم الغلاف
حميد جاسر أبو موسى

الترقيم الدولي
ISPN 978-9950-329-63-8

فَإِذَا هُم خَامِدُون

رواية

هبة محمد المدهون

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ

إهـداء

إلى ضياء.. أخي

وإلى بـذرة الوعي في نفوســنا، رحـــم الله من غرســها ورحـــم مــن سقــاها، ورحــم من فتـــح لــها ثـغرةً في السقـــف الـــذي اعتـــرض سيقــانها، لكي نكـتشــف أن السمـــاء بعيــدةٌ وجميلة، وأن النور ملء الفضــاء لمــن استطــاع أن يخــرج مـــن تحـــت الســقف الذي حـبسه لسـنين.

أما قبل

صديقي حنظلة

يا من أدرت ظهرك لكلّ العالمين منكرًا علينا ما فعلناه بأنفسنا، مُعرضًا عن جدالاتنا، مختبئًا خلف الجدران السوداء كَلَون عالمنا منذ أَلِفناه، بملامحك التي نجهلها ونعرفها في آن واحد؛ لكأنها خليطٌ من ملامح أطفال المخيم وألعابهم وأحلامهم التي يجبرها الكون على الانتحار.

نعرفك جميعًا منذ ظهرنا على هذه الأرض التي لم تحتمل أن تنبت لنا بعض الأمل في مستقبلٍ ما، أعرفك أنا منذ بدأت أتهجَّأ الكلمات وأحفظ أناشيد الوطن والفداء، أحفظ تفاصيلك المبهمة دون أن أدرك المعنى الذي تُخفيه خلفها، ربّما لأن روحك ذاتها هي التي تسكنني وتدلّني على الطريق.

هل كانت صدفةً تلك التي قادتك إليّ؟ لم أفهم كيف أدركتَ أن هناك روحًا أخرى تختفي تحت أكوام الرماد، ولا كيف أمسكت بمُعولك لتنقِّب عنّي وقد دفنتني الصيحة الكبرى عميقًا تحت سيولها الجارفة.

لم تكن الحرب هي ما قتلني على ما يبدو؛ لقد كنت أموت تدريجيًّا منذ زمن بعيد. إنها لعنةٌ أن تكون مختلفًا في مجتمع يقدّس التقاليد، لعنةٌ أن ترفض ما يفعله الآخرون حتى لا تكون نسخةً مكرَّرة من الآلاف، حينها سوف تحيا في صراعٍ مرير بين أن تنصر ذلك المتمرّد الصغير الذي يسكنك أو تصبح منبوذًا من الجميع.

وكنت كلّما مرَّ عليّ الوقت تحت حكم القيود التي أثقلوني بها أتآكل وأذوب في محيطهم. ظللتُ أتضاءل حتى دُفنتُ تحت الأنقاض مع ضربات المدافع وأزيز الطائرات وسيول الدماء. لم يعد للوقت قيمةٌ بعدها، ولم تعد الحياة آنذاك تستحق أن أقاتل من أجلها.

الحرب لم تكن سوى صيحة، كانت عقابًا لي على تفريطي بنفسي، انكساري وإنكاري لكلِّ ما وهبني الله من نِعم. كانت رجفةً هزتني بشدة فأيقظت التساؤلات المدفونة والثورات النائمة. لطالما اعتبرت الرضى نعمة، لكنّه قد يتحول أحياناً إلى خنوعٍ ذليلٍ.

رحيل أخي في الحرب كان مثل ثورات البركان البلينية، دفنتني تحت سيولها الحارقة من الرماد والخفّاف فلم يعد لي وجودٌ لفترة من الزمن غير يسيرة. بقيت هناك راقدةً تحت الركام، إلى أن صحوت لأجد أن العمر قد مرّ سريعًا جدًا دون أن أنتبه.

هذه السيول برغم قسوتها حافظت على آثار المتمرِّد الصغير القابع في عقلي وقلبي، كان الأمر يحتاج فقط إلى من ينقِّب عنه ويخرجه من تحت التراب، لأن الشعلة الصغيرة في داخلي لم تكن قد ماتت بعد، ما زالت تحتفظ ببعض الوهج القادر على الحياة مرة أخرى.

خرجت، فاكتشفت أن عالمًا آخر كان يستقر في داخلي، أتعرّف ملامحه مع كلّ كلمةٍ أخُطُّها وكل ذكرى أسكبها بين السطور، عالمًا ألمسه حين أستيقظ فجأةً في منتصف الليل لأجد الكلمات تصطفُّ في خيالي كأنّ أحدًا يلقِّنني إياها، أسمعها تتردَّد في عقلي وأنا أسير في الطرقات، كم هو مدهش كيف يعود الإنسان من الفراغ بعد أن ضاع فيه ردحًا من الزمن.

مـن أنـا؟ مـاذا أريـد؟ ولمـاذا أحيـا فـي هـذا العـالم، ولمـن؟ آلاف الأسـئلة تتزاحم في عقلي المرهَق بعد سنواتٍ من الحياة الراكدة. أعرف شيئًا واحدًا فقط، أنني أريد أن أترك أثرًا قبل الرحيل، أيّ شيء يُخبر الكون أننـي كنـتُ هنـا، أننـي مـررتُ فـي هـذه الطـرق مـن قبـل، رسـمتُ هـذه الألوان، زرعتُ هذه الزهرات، لا أريد غير ذلك.

صديقتك،
الخارجة من تحت الرماد

أَتَى أَمْرُ اللَّه

النَّصِيحَةُ الأولَى:

أنْصِتْ جَيِّدًا قَبْلَ أَنْ تَحْكم

***

إنّها معركتك وحدك، فلا تنتظر أحدًا كي يقاتل عنك. لا أحد سيدفع عنك الظلم سوى ساعدك. لا أحد سيصون كرامتك وقلبك وروحك إلا قرارك. إنّها معركتك وحدك، فلا تنتظر أحدًا ولا تعتب على أحد، لأن الخذلان الوحيد يأتي منكَ أنت.

ولكلٍّ معركته، حتى أولئك الملتفّون حولك، ذلك الجيش الذي التزم قرارك، لم يفعلوا ذلك لأجل معركتك أنت، بل لأنهم وجدوا فيك أملًا يوافق آمالهم، وقرارًا يوافق قراراتهم، ومعركةً توافق معاركهم.

واعلم أن التضحية جزءٌ من المعركة، وجزءٌ من النصر أو الهزيمة، فإن اضطرّتك الظروف للتضحية، فعليك أن تختار ما يجعلها شرفًا ونصرًا مؤزرًا، حتى لا يُلقَى بها في الطريق تدوسها الأقدام.

لا تجعل من كتفيك مَطيّة لكل من شاء الاستعلاء، ولا تقدّم رقبتك للسيَّاف يقطعها لأجل مبادئ لا تمثّلك، لا تنحنِ، ولا تجعل من موتك حدثًا عابرًا.

***

-1-

يوتوبيا

غزة - 9 تشرين ثاني 2020م

أفقت من شرودي على صوت حميد الذي كان ينادي من أسفل البناية ينتظر مني أن أسحب الحبل المربوط بقارورة المياه المالحة التي أحضرها من البائع، لكي أرفعها إلى سطح المنزل حيث الخزان.

كنت قد اعتدتُ هذا العمل بعد أن توقفت مضخّات المياه العمومية عن ضخِّ المياه إلى الخزَّانات مع امتناع إسرائيل عن إمداد غزة بالكهرباء وتوقُّف محطَّة توليد الكهرباء عن العمل بسبب نفاد مخزونها من الوقود.

كان ذلك بعد شهرٍ واحد من بداية الانهيار الاقتصادي الذي حلّ بالعالم. محطّاتُ تحلية المياه أيضًا توقَّفت عن العمل، توربينات الصرف الصحي، شبكة الاتصالات الأرضية واللاسلكية، وكل ما يعتمد على الكهرباء والوقود. هكذا بكل بساطة انهارت كلّ منظومة الحياة المدنية التي اعتدنا عليها؛ لا كهرباء ولا ماء ولا وقود ولا اتصالات.

لا شيء في هذا العالم يحدث فجأة، ولكننا لم نكن مستعدّين للأمر. كانت المقدمات ظاهرةً للعيان، لكننا لم نحاول استيعابها. ربّما كان هذا كسلًا، جهلًا، إنكارًا للإشارات، إلا أننا بالفعل لم نفعل أي شيء لتفادي ما حدث. كان الانهيار أكبر من توقّعات الجميع رغم تحذيرات الاقتصاديين

الذين اجتهدوا على مدى عامين في محاولة إنذار حكوماتهم وحثّها على اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية السكان.

النظام الاقتصادي كان ينهار تدريجيًّا دون أن ننتبه إلى فداحة الخسائر التي يتعرَّض لها العالم. بدأ بالبطالة والمشاكل السياسية والاجتماعية وانتهى بالتضخّم الذي كان يحلُّ بدولةٍ إثر أخرى دون أن يربط أحد تلك الحلقات معًا ويرتّب الصورة كاملة. لم تكن مشكلة فنزويلا الاقتصادية إلا جزءًا من الأحجية، أزمة مصر المالية كانت جزءًا آخر، اليونان، الأردن، تركيا، كلها كانت حلقات مترابطة بروابط خفية لم نكن نراها. وكان الجزء الأكبر من خيوط الصراع يظهر في الحرب الاقتصادية بين الولايات المتحدة والصين.

في يونيو 2020م أصدرت مجموعة الفيسبوك العملة الرقميّة الخاصة بها "ليبرا"، وكان هذا الأمر هو القشّة التي قصمت ظهر البعير، أسواق العملة انهارت واحدةً إثر الأخرى مثل شبكة من أحجار الدومينو المتراصّة. أخذ الدولار الأمريكي على رأس العملات المنهارة موقع مركز شبكة الدومينو فسقطت معه كلّ العملات المرتبطة به، لقد بدا متماسكًا لفترة طويلة فانخدع الجميع بقوته.

أوروبا والصين كما روسيا وكوريا الشمالية كانوا قد أعدّوا احتياطهم للأمر، بالطبع لا ننسى إسرائيل التي بدت كما لو أنها تستفيد بشدة من الكارثة وتستعد لها منذ زمنٍ بعيد. لم يكن لديها أي أزمة في المياه بعد أن سحبت مياه الأنهار في جنوب لبنان وخزّنتها في أراضيها، وكذلك فعلت مع مياه نهر الأردن ومياه الآبار الجوفية في غزة، لم يكن لديها مشكلة في الطاقة مع اعتمادها على محطة توليد الكهرباء في مفاعل

ديمونا بالإضافة إلى محطّات الطاقة الشمسية بعكس مصر التي فقدت قدرتها على توليد الكهرباء مع جفاف نهر النيل الذي تأثر بشدة بتشغيل سد النهضة، ليس لديها أي مشكلة في الوقود مع استحواذها على حقول الغاز بعكس أوروبا مثلًا، وبالطبع لم تجد أي مشكلة في الأمن الغذائي مع التقدم الزراعي والصناعي المرعب الذي سعت لتحقيقه منذ قيامها بالإضافة إلى قلّة عدد سكانها.

مع انهيار النظام المالي في العالم، تحولت النقود الورقية إلى مجموعة من الأوراق بلا أي قيمة. فجأة اكتشف كلّ ذي مال أن ما يملكه في خزائنه لا يمكّنه من شراء شربة ماءٍ نقي بعد أن توقّفت محطّات تنقية المياه عن العمل. حتى أصحاب الذهب لم يكن باستطاعتهم استغلاله في أشهر الانهيار الأولى، لأن الجميع يبحث عن الطعام والشراب قبل أيّ شيء.

لم يعد هناك وسيلةٌ سهلة للتبادل التجاري بين الدول؛ من يمتلك الوقود لديه نقصٌ بالزراعة، ومن يعتمد على الزراعة غير قادرٍ على استخراج المياه من الآبار للحفاظ على مزروعاته، وقِس على ذلك كلّ قطاعات الحياة، لقد كانت كارثة بكل المقاييس.

تحوّل العالم فجأة إلى خراب، أو لأكون أكثر دقةً في الوصف، تحوّل العالم إلى يوتوبيا التي وصفها أحمد خالد توفيق في روايته؛ الدول التي استعدت جيِّدًا كإسرائيل والصين وأوروبا أغلقت على نفسها أسوارًا وشكَّلت ما يشبه مستعمرات يوتوبيا، توقفوا عن التعامل مع العالم الخارجي إلا بقوانين خاصة حوّلت البشر فيها إلى عبيد لخدمتها، هؤلاء العبيد كانوا هم الأغيار الذين تحدّثت عنهم الرواية، نحن كُنا الأغيار.

هنا في غزّة، لم نشعر بتغييرٍ كبير على حياتنا التي كانت تنهار منذ سنوات طويلة. وكنّا مع كلّ انهيار للحياة المدنيّة نخترع حلولًا لنتعايش معها. هنا في غزة اعتدنا بعد سنوات من الحصار الخانق على الجوع وانعدام الكهرباء ومشاكل المياه وتجرّع الصدمات، بل ربّما وصلنا إلى حالٍ أقرب للبلادة فلم تؤثّر الكارثة علينا كما فعلت بالكثير من الدول، وإنني لأجزم أن الحال في العراق وسوريا وربما مصر كان مشابهًا تمامًا للحال في غزة؛ لأن الحروب والمشاكل الاقتصادية كانت تعصف بهم قبل الكارثة بكثير.

كان الجوع هو أكثر المخاطر التي تهدَّد البشر، تضرَّرت المنتجات الزراعية بشكلٍ مرعب بسبب الصراع على الماء، تبعتها مزارع الحيوانات، ثم توقَّفت كلّ مصانع المواد الغذائية تبعًا لذلك. بئر الماء المزوَّد بمضخّة يدويّة وحديقةٌ مزروعة كان كنزًا لمن امتلكه، لكن هذا كان يزيد الخطورة على حياة صاحبه بعد أن حوّل الجوع البشر إلى وحوش.

عندما بدأ الصراع على الطعام سمعنا قصصًا لا تُصدَّق عن الشجار بين الناس لأجل لقيمات، بعض الناس أكلوا الكلاب والقطط، وهناك من ماتوا عطشًا في الأقاليم الجافة، انخفض منسوب نهر النيل إلى مستوى لم نعهده من قبل وتحوّل إلى مجموعة من المستنقعات الآسنة وكذلك نهر [دجلة، وسَبَقَه نهر الأردن. هذه الحروب على الماء والطعام ذكرتني بالشدَّة المستنصرية التي تعرضت لها مصر في القرن الخامس الهجري.

صببت الماء المالح في أحواض التقطير الشمسي على سطح بيتنا والذي أصبح وسيلتنا الوحيدة لتوفير المياه الصالحة للشرب.

حاول المزارعون الاستمرار بزراعة الخضراوات وتوفير الغذاء للمدينة اعتمادًا على مياه الأمطار حينًا والمضخّات اليدوية لجلب المياه من الآبار حينا آخر. لقد أصبحت الزراعة ثروة المزارعين الكبرى بعد أن عُدنا إلى نظام المقايضة وتبادل المنافع كنظامٍ سهل للتبادل التجاري. بالطبع لم يفقد الذهب قيمته ولكن ما فائدة الذهب إن كنت تتضور جوعًا؟

مهنٌ جديدة ظهرت في غزة كبائع المياه الذي يجلب مياه البحر في خزانات مثّبتة فوق عربة يجرّها حمار، بالمناسبة لقد أصبح البحر نظيفًا بعد أن توقّفت مضخّات الصرف الصحي عن ضخّ المياه العادمة إلى البحر، لكننا في المقابل عُدنا إلى أنظمة الصرف القديمة جدًا، وعادت معها مهنة تنظيف فتحات الصرف الصحّي وخزاناته. آخرون وجدوا تربية الطيور حلًا جيداً لغذائهم من ناحية والمقايضة بها من ناحية أخرى.

هناك من امتهن صناعة أحواض التقطير من الطين أو الإسمنت إذا توفَّر، حوضٌ مستطيل الشكل مغطى بلوحين زجاجيين، غالبًا ما كانوا ينتزعونها من ألواح السخّانات الشمسيّة التي فقدت قيمتها مع توقّف المياه عن التدفّق إلى الخزّانات. وجدنا أيضًا فائدةً جيدة لشبكة الأنفاق المنتشرة أسفل غزة إذ إنها أقرب المستويات الأرضية للمياه الجوفية.

بعض الذين أسعفهم الحظ بتركيب نظام كهربائي شمسي استغلُّوه لبيع الكهرباء للناس لشحن البطاريات اللازمة للإضاءة، وكثيرًا ما كان

بعضهم يلجأ لتحويل مولّدات الكهرباء التي كانت تعمل بالوقود لكي تعمل بالطاقة الحركية عن طريق تثبيتها بدراجاتٍ هوائيّة.

أعطى حميد بعض الخضار لبائع المياه مقابل ما اشتريناه منه فانصرف، في المرة الماضية قايضناه ببعض البامية المجففة التي أعلقها على شباك المطبخ في الصيف. كان علينا أن نبحث عن أي شيء يصلح للمقايضة في كلّ مرة نبتاع فيها الماء المالح.

قال حميد معترضًا: ماما.. لماذا لا نرتاح من هذا العناء ونسكن على الشاطئ كبقية الناس؟.

رفضت الأمر بحسم: لا لن نفعل.. نحن بخير هنا.

كان هذا اعتراض حميد الدائم بعد كلّ عمليّة لجلب المياه، ولذلك لم أعِرهُ انتباهًا. لقد أصبح شابًا الآن، لكنه لم يرَ من شبابه إلا التعب.

الكثير من الناس وجدوا السكن على الشاطئ حلًا مريحًا حيث البحر أمامهم للاستحمام والصيد، والمزارع قريبةٌ منهم في منطقة المواصي، أنشأوا خيامًا أو بيوتًا من الصفيح والطين وقرّروا الحياة على الشاطئ في غياب القوانين والحكومات. كنت أرفض هذا الحل بشدّة رغم صعوبة جلب المياه، في داخلي خوف دائم من البحر، أراه كالوحش الرابض الذي ينتظر إشارة ما من السماء لكي يُغرقنا، تخونني شجاعتي مع كل ما كنت أعرفه من هذه الإشارات التي أراها تتحقق واحدةً إثر الأخرى.

كنت دائمًا أحمل إحساسًا بالذنب لأنني لم أستطع إيصال الرسالة إلى العالم قبل حدوث الكارثة، رغم أنني أعرف تمامًا أن الجميع يظنّ أنني

أصِبتُ بالهوس، أنا نفسي كنت أشك بعقلي، لكنني لم أستطع نزع ذلك الإحساس من قلبي أن شيئًا ما سيحدث.

سأل عبد الله متذمّرًا: ماذا سنأكل اليوم يا أمي؟.

تجاهلت نبرة الضيق في كلامه وقلت بلا مبالاة: مناقيش زعتر يا عبود.. مناقيش.

- أنا جائع.. تأخرتِ بإعداد الغداء.

تأفّف بضجر وخرج من الشرفة يتمتم بكلمات لم أفهمها كعادته، ثم أغلق الباب الزجاجي ليمنع الدخان من دخول الغرف. كنت أعدُّ الخبز في فرن الحطب المستقرّ في الشرفة التي غصَّت بالدخان الأبيض ورائحة الحطب الخانقة. أخبرتك أنني اعتدت الأمر الآن، لقد أصبحَتْ مهارات البقاء على قيد الحياة هي الهواية الوحيدة المتاحة لنا.

زوجي ينقطع لأيامٍ في البستان البعيد الذي نملكه للعناية بالخضراوات والأشجار، لحسن حظنا أننا استطعنا حفر بئرٍ قبل حدوث الأزمة. كان مضطرًا للذهاب إلى البستان على دراجته ولذلك لم يكن إحضار المياه من البئر إلى المنزل أمرًا سهلًا، وهكذا كان حوض التقطير أيسر وأسرع.

في العادة ننام باكرًا لتوفير الإضاءة التي تستمدُّ طاقتها من بطارية كبيرة نشحنها بالكهرباء من الجيران، وفي بعض الأحيان نضطر لاستخدام مصابيح الكيروسين القديمة التي أكرهها. لابأس بالنوم باكرًا على أي حال، لقد عشنا دهرًا نضنُّ على أنفسنا بالنوم وجاء الوقت الذي نُعاقب فيه على ذلك.

لم أتخيّل للحظةٍ واحدة أن حياتنا ستعود إلى عهدٍ يسبق عهد جدتي، وأن كلّ ذلك العذاب الذي عشناه في حياتنا من صراعات سياسية وحروب كان ترفًا بجانب ما نراه الآن.

***

-2-

إذا زلزلت الأرض

غزة - 29 تشرين ثاني 2021م

هذا الشتاء باردٌ جدًا، إنه ثاني شتاء يأتي بعد الكارثة، وما زلت أستغرب صبر أولئك الذين يسكنون شاطئ البحر على موجات البرد. في كلّ ليلة نجتمع كلنا في غرفةٍ واحدة تحت أطنان البطانيات لكي يتوزع علينا الدفء.

كنا قد حطَّمنا سرير شام وخزانتها القديمة وحولّناهما إلى حطبٍ للفرن، فأصبحت غرفتها فارغة نُغلقها علينا بعد العشاء وننام متلاصقين.

هذا الشتاء باردٌ جدًا بالفعل، أمطاره غزيرة لم نعتد عليها من قبل، كأنَّ السماء قد ادَّخرت الأمطار في السنوات السابقة لكي تصبَّها هذا العام فوق رؤوسنا.

أصبحنا نعتمدُ على الأخبار التي تأتينا من محطَّات الإذاعة والمواقع الأوروبية والإسرائيلية لكي نعرف ماذا يجري في هذا العالم. نحرص أشدَّ الحرص على طاقة هواتفنا لكيلا نشعر بالعزلة إذا توقَّفت الأخبار القادمة من العالم الآخر. ما زال الاتحاد الاوروبي منغلقٌ على نفسه، ويبدو في الفترة الأخيرة أنهم يهدّدون ايطاليا بإخراجها من الاتحاد بسبب سياساتها الاقتصادية السيِّئة. الكثير من المشاكل طفت على السطح بين الدول الأوروبية ذاتها. إسرائيل تراقب الجميع في صمتٍ

دون أن تتدخل، واضعةً نفسها في مكانةٍ فوق الجميع. أصبح لدى أوروبا عجزٌ شديدٌ في الغاز، وقد استغلَّت روسيا هذا العجز لسلبها جزءًا كبيرًا من مخزون الذهب. في بداية الكارثة عاد الكثير من اليهود ذوي رؤوس الأموال والخبرات إلى إسرائيل خصوصًا بعد انهيار الولايات المتحدة الأمريكية والمشكلات التي تحاصر أوروبا.

كان من المفترض أن تكون الدول العربية أفضل حالًا من الجميع نظرًا لتوافر جميع الموارد الخام والموارد البشرية ذات الكفاءات، غير أن الفساد السياسي والاقتصادي دمَّر البنية التحتيّة تمامًا على مدى قرن كامل من الصراعات والنزاع.

ما زلت استغرب كيف استطاع أحمد خالد توفيق تصوُّر تفاصيل هذه الكارثة وبهذه الدقة قبل ثلاثة عشر عامًا من حدوثها.

هذا الشتاء باردٌ جدًا، ماطرٌ جدًا، ولكنه كان وسيلةً جيدة لتوفير مياه الشرب بدلًا من تقطير مياه البحر في ظل غياب الشمس. كان علينا أن نملأ سطح البيت بالأواني لالتقاط مياه الأمطار ثم جَمعها في خزان المياه الكبير، لم نعد نستخدم صنبور المطبخ أو الحمّام منذ زمن. عُدنا دورةً كاملة في الزمن حتى نسينا في عامٍ واحد فقط كلّ معالم المدنية الحديثة.

المطر لم يتوقَّف منذ ثلاثة أيام، وكنا نُمضي أوقاتنا بالقرب من النار، نقطع الوقت بقراءة الكتب التي أبقينا عليها ولم نستخدمها كوقودٍ للنيران، ليست كلّ الكتب تستحق النجاة من هذا المصير، فبعضها سيؤدي نفعًا أكثر عندما نلقيه في الفرن لصناعة الخبز. كان الوضع يزداد تأزُّمًا عندما نفشل في توفير الطحين فيكون علينا الاعتماد على الخضار

والمياه فقط. حاولنا زراعة البطاطا في كلّ مكان كأفضل حلٍ لإخماد نار الجوع.

شام تمضي الوقت بحفظ سورة يس ويردد معها عبد الرحمن بعض الآيات. كنت أستمع إليها وكأنها المرة الأولى التي أسمع فيها الآيات، أرتجف مع كلّ حرف يعيد إلي أفكاري وحساباتي السابقة، أتذكر ما يقبع في عقلي من احتمالاتٍ مخيفة كنت أعتبرها جزءًا من الهوس الذي أصابني قبل أربعة أعوام، ورغم احتلال هذه الأفكار لعقلي إلّا أنّ بلادةً شديدة أصابتني فجمَّدتني بعد مرور أكثر من عام على بدء الكارثة، لا يوجد شيءٌ أسوأ ممّا نحن فيه. أعرف أن الأمر قادمٌ لامحالة، ولكنني لم أعد مهتمّةً بإخبار أحد، الجميع منهمكٌ في محاولة النجاة من قبضة الجوع.

صوت المطر وقطع البَرَد تضرب النوافذ بشدّة في عتمة الليل. لم نشاهد الشارع منذ يومين، أتخيله قد تحول إلى بحيرات بينما نحن مُتكوِّمون تحت الأغطية في غرفة شام الصغيرة لا نجرؤ على إشعال الفحم كيلا نضطرَّ إلى فتح النافذة.

هذا الشتاء باردٌ جدًا بالفعل..

***

غزة - 9 كانون أول 2021م

"ماما.. شو بيصير" قالها عبد الرحمن وهو يبكي برعب ثم التصق بي أنا العاجزة عن التفكير يبحث عن الحماية، كلّنا عاجزون عن التفكير؛ الأولاد مرتعبون وأنا أفوقهم رعبًا وعجزًا.

أصوات صريخٍ تأتي من الشارع مختلطةً بصوت الأمطار الشديدة، الأرض تهتز بشكل غريب، والمصابيح تتراقص في السقف باستفزاز، بينما أصوات تحطّم الزجاج وتساقط الأواني تأتي من المطبخ.

أخذت أقلِّب إشارة المذياع على هاتفي لعلّني أصل إلى خبر. جميع المحطات مرتبكة في أخبارها، فهمت أن الكثير من الزلازل تجتاح العالم، إسرائيل تعلن حالة الطوارئ، والزلزال الذي يضربها وصلت شدته إلى ٨ ريختر. مصر والسودان تتعرضان لفيضان في نهر النيل بعدما انهار سد النهضة بفعل الزلزال، والأخدود الإفريقي العظيم يزداد اتساعًا. مجموعة من الزلازل العنيفة تثير رعب الناس في أقصى شرق آسيا وأقصى غرب أمريكا الجنوبية، وهناك عمودٌ من الدخان يرتفع عاليًا في السماء يراه الناس في تركيا وأوروبا متصاعدًا من جنوب ايطاليا؛ إنه فيزوف يستيقظ من سباته مرةً أخرى.

كان علينا أن نختبئ في مكان آمن، لكن الخروج إلى الشارع مستحيلٌ في ظلّ هذه السيول المنهمرة التي لم تتوقف منذ عشرة أيام.

دخلنا جميعًا إلى غرفة شام الخالية من الأثاث، أغلقتُ علينا الغرفة ووضعتُ الأطفال المرتجفين تحت الأغطية. أنا حقًا أفهم ما يحدث، أولئك الساكنون بقرب الشاطئ لا يعرفون، لكنني كنت أترقَّب الأمر منذ زمنٍ بقلبٍ وجِل. ضممتُ أطفالي تحت الأغطية وأنا أرتجف هلعًا..

أو لعلّه ليس الهلع..

بل الشعور بالذنب..

***

كنت في الثانية عشر..

وكنت أحلم..

أمسك يد رفيقتي وأركض في أزقة مخيّم الشاطئ هربًا من الأمواج العاتية التي تلاحقنا في الطرقات مصرّةً على إغراقنا..

كنتُ حافية القدمين، لسببٍ ما لا أعرفه كنتُ دائمًا حافية القدمين في المنام، وكان الطوفان يلاحقني في كل مرّة، أهرب منه تارةً، وأراقب انحساره عن البيوت من فوق سطح بيتنا تارةً أخرى. تلاشت كلّ أحلام الطفولة من ذاكرتي وبقي حلم الطوفان راسخًا لا يتزحزح.

الأرض تهتز، والمطر لا يتوقف، وصوت صراخٍ يصم آذاننا، أو هو ضوضاء أفكاري التي لا تنتهي، لم أعد أدري حقًا. لا أرى سوى تلك الدموع التي تغرق وجهي في تزامنٍ غريب مع الأمطار التي تغرق بيتنا.

اللهم استعملنا ولا تستبدلنا..

اللهم استعملنا ولا تستبدلنا.

***

كان حلمًا.. هل تصدّق؟.

كل تلك التفاصيل والأحداث والألم، الألم كان حلمًا؟ هل تصدّق؟.

خرجتُ منه لأجد نفسي طيفًا أتنقَّل فوق مجموعة من الجبال أتفحّص وجوه الرجال المُتعَبة بعد أن مرَّ عليهم شتاءُ قارصٌ في الحدود الجنوبية لـ"لبنان".

كانوا يلبسون ثيابًا بيضاء، يسيرون معا متكاتفي الأيدي وعيونهم تمتلئ إصرارًا، أسمع صوت قلوبهم المرتجفة والمتأرجحة بين التصميم والخوف.

لم يقرّروا العودة لأجل أنفسهم، كان الأمر يحتاج قرارًا حاسمًا؛ لو سمحوا لإسرائيل بإبعادهم إلى خارج البلاد والإفلات بقرارها فإنهم يساهمون بفتح الباب على مصراعيه أمام ترحيل الشعب بالكامل. لقد قرّروا أن يقفوا في وجه القرار هذه المرة. كانوا أربعمائة أو يزيدون، يلبسون الأكفان وقد توقعوا الموت في أي لحظة.

لم تكن إسرائيل لتسمح لهم بهزِّ هيبتها هكذا، فسالت الدماء وأصيب العديد فاضطرّ الحشد للعودة لمخيم مرج الزهور. لكن الحكومة الإسرائيلية التي التقطت إصرارهم على العودة عرفت خسارتها أمامهم، فتراجعت عن قرار الإبعاد بأقل الخسائر لحفظ ماء الوجه.

ساد الضباب للحظات ثم وجدت نفسي في مكانٍ آخر ووقتٍ آخر يسبق مسيرة الأكفان. ما زلتُ طيفًا ولكنني أحلّق في مكانٍ صعب التضاريس يعجّ بالخيام المغطاة بالثلوج والكثير من الوجوه المبتسمة. عجيبٌ أمر ابتسامتهم في مثل هذه الظروف من التشرد والبرد وتخاذل الجميع عن قضيتهم.

أرى بعض الشباب متحلّقين حول رجل أربعيني وسيم بلحيةٍ كثّة، يفترشون أرض الخيمة وأمامهم سبّورة. أنْصَتُّ لهم فالتقطتُ بعض الكلمات عن أعجوبة العدد 19 والنظام العددي الدقيق في القرآن الكريم وعِلمٍ يُقال له حساب الجُمَّل. يمرّ أحدُ الأشخاص بالقرب من الخيمة، يبتسم ابتسامةً ساخرة أو هكذا ظننت، أسمع في رأسه الكثير من

التعليقات بخصوص ذلك الأربعيني الذي يشرح الدرس، لكن الضباب بدأ يلفُّني ثانيةً وطيفي يبتعد سريعًا خارجًا من بئر العتمة الذي كنتُ أطفو فيه.

فتحت عينيّ بهدوء أحدّقُ بالظلام، الساعة المضيئة أمامي تشير إلى الرابعة صباحًا، بعد قليل سوف يحين موعد أذان الفجر. استيقظتُ من الحلم العجيب بجسدٍ منهك ووجهٍ مبلل بالدموع بينما الحيرة الشديدة تسيطر عليّ.

أخبرتك أن الأحلام لا تزورني كثيرًا، لكن هذا الحلم يبدو مختلفًا، لقد عشت كلّ تفاصيله وعذاباته كأنها حقيقة، تعبت بالفعل.

لم أكن قادرةً على الحركة، فبقيت لفترةٍ في الفراش أحاول استيعاب الأمر، أغمضتُ عينيّ ثانيةً وقد تجمَّدت مشاعري؛ يبدو أنني استهلكتها كلها في منامي.

تسرّب صوت التلفاز إلى أذني، فاستغربت الأمر لأول وهلة، صوت مذيع الأخبار يتحدّث عن قصف الطائرات الأمريكيّة لبعض القادة الإيرانيين على أرض العراق. تخيّلت أن الحلم مازال مستمرًا، ففتحت عينيّ على اتساعهما لأتأكّد، يبدو الأمر طبيعيًّا، أنا في غرفتي أحدّق في السقف وكل شيء على ما يُرام.

أجبرني طلب عبد الرحمن للإفطار على النهوض، تفقَّدتُ الموقد؛ هناك غازٌ بالفعل، أضأت المصباح؛ الكهرباء موجودة، الماء أيضًا موجود، كان حلمًا فحسب..

قلت لنفسي: ها قد عُدتِ.. ها قد أرجعَكِ الله للبداية، فماذا ستفعلين؟.

تذكَّرت الابتسامة الساخرة على وجه ذلك الرجل المارّ بجانب الخيمة، انتابني شعورٌ أنني سأرى مثل هذه الابتسامات الساخرة كثيرًا في المستقبل.

كنت أعرف ذلك الأربعيني الجالس في الخيمة جيدًا، لم يكن سوى بسام جرار في عام 1993 يشرح أفكاره لبعض الشباب المبعدين معه إلى مخيّم مرج الزهور، حيث نشر لأول مرة كتابه عن نبوءة زوال إسرائيل بالحسابات العددية واستقراء القرآن وحساب الجُمَّل.

من هنا، من كتابه هذا، كانت بداية رحلتي التي سأقصها عليك، فأعِرْني انتباهك.

***

-3-

خامدون

غزة - 25 آب 2014م

الصمت يسود صالة المعيشة حيث اجتمعنا كلّنا نراقب التلفاز الذي يعرض على شاشته صورة المجمّع الإيطالي، البناء الأعلى في قطاع غزة، مختفيًا في ظلام ليلٍ تلتمع فيه بين لحظة وأخرى بعض النقاط المضيئة من شقق العمارات المنتشرة في شارع النصر.

عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة. قبل قليل قامت قوات الاحتلال بضرب ثلاثة صواريخٍ تحذيرية على المجمّع الإيطالي بعد الاتصال بهواتف السكّان لإخلاء البرج تمهيدًا لإزالته من الوجود، يبدو أننا نعيش المراحل الأخيرة للحرب. لقد اتفقت الأطراف على هدنةٍ نهائية تبدأ في صباح الغد، وكان الجميع يحاول استغلال ساعات الحرب الأخيرة لكي يثخن في الطرف الآخر؛ المقاومة تطلق الصواريخ بكثافةٍ شديدة، والاحتلال يقصف الأبراج السكنية الضخمة.

قلوبنا مضطربة وعيوننا معلقةٌ بالتلفاز من جانب وشاشة الحاسوب من جانبٍ آخر لملاحقة الأخبار على المواقع المختلفة. كلّمتُ شقيقتي التي تسكن بجوار المجمع كي أتأكد أنهم في مكان آمن، ثم عدت أتابع التلفاز في انتظار الضربة.

أضاءت الشاشة المعتمة أصلًا قبل لحظات من سماع صوت الانفجار المرعب الذي هزَّ المنطقة كلها، خيّل إليّ أنني أسمع الصوت قادمًا من النافذة على بعد ثلاثين كيلومترًا من المكان، تفاصيل البرج ظهرت جليةً مع الوهج الشديد الذي سطع فجأة، وظلَّ المبنى واقفًا في وجه الطائرات الحربية ولم يسقط.

ضربةٌ ثانية وثالثة، أجبرني المشهد على سكب دموعي حزنًا على ذلك البرج الذي استمر بالوقوف صامداً تحت كلّ هذه الضربات الثقيلة. أصرّت الطائرات على إنزاله بالكامل لكنّها لم تفلح، لقد بقي واقفًا في وجهها على الرغم من كلّ تصدَّعاته وشروخه، كانت أساساته قويةً إلى درجة أنهم استخدموا أطنان المتفجِّرات لإسقاطه، لكنه لم يفعل، بقي صامدًا حتى النهاية كالوطن تمامًا، وقف شامخًا في وجه الاحتلال لكي نهدمه نحن بأيدنا فيما بعد.

***

وقفنا نطلّ من النافذة باستغراب نراقب المحتفلين بانتهاء الحرب. الكثير من الأحاسيس المختلطة تجتاحنا وتسيطر علينا، جمودٌ في المشاعر، وتوجُّسٌ من اتفاقيات وُقِّعت لا يعلمها إلا الله، وبرودٌ عجيب منعنا من إبداء أي ردِّ فعل على الأخبار التي يتناقلها الناس.

كان بعضهم يطلق الرصاص في الهواء، البعض الآخر كان يرقص، وآخرون كانوا يلملمون جراحهم. عائلاتٌ كاملة بكلّ أفرادها لاقت ربها، مناطقٌ سكنية كاملة اختفت من الوجود، مدارسٌ تعجُّ باللاجئين بين ذلّ التشرّد والأمراض والخوف من المستقبل والقهر على فقدان كلّ شيء. سمعت أن إحدى طالباتي أصيبت بالتهاب السحايا أثناء وجودها في

المدارس، قصصٌ أخرى سمعتها لا أجرؤ على سردها ولكن الأمر كان مريعًا.

لم أكن أتخيّل أن أحدًا يمكن أن يحتفل بأيّ انتصار في ظلّ أوضاعٍ كهذه، يبدو أنه بالفعل "اللي إيده بالمية مش زي اللي إيده بالنار"

كان هناك عجزٌ كبيرٌ في السلاح الذي تملكه فصائل المقاومة، مما جعلنا نتساءل كثيرًا عن قدرتها على مواصلة الحرب. العديد من الشباب كانوا محاصرين بالأنفاق بعد تدمير مداخلها بصواريخ الطيران، هناك شهداءُ دُفنوا تحت الأنقاض ولم يتمكنوا من إخراج جثثهم بعد، بينما هناك في الخارج يمارس العالم مهمته التقليديّة في الضغط السياسي علينا؛ وهكذا فهمنا أن هذه الجولة يجب أن تنتهي بأي وسيلةٍ كانت.

وبكل صلفٍ وجبروت أرغمنا الحياة على أن تعود كما كانت بعجلاتها التي تدور بلا توقف. وكان علينا أن ننسى وأن نجمِّد في الذاكرة منطقةً زمنيةً كاملة، وكان علينا أن نستمر.

غزة كما هي في حركتها ونشاطاتها وأعمالها مع إضافة مسحة حزنٍ وقهرٍ جديدة على وجوه العابرين في الطرق التي امتلأت بالأنقاض والحطام، كأن البشر قد اكتسبوا لونًا جديدًا من الكآبة غير الألوان التي اعتادوا عليها سابقًا.

هذه الحرب كانت لحظة وعيٍ فارقة في حياة الكثير، أولئك الذين عرفوا معنى سيل الدماء ومكاسب الأحزاب وفقدان الهوية، بعد مرور الكثير من الوقت عليهم وهم في غيابة جُبّ الوطنية والتضحية والمبادئ، تلك المبادئ التي كانت الأحزاب أول من ضحَّى بها عند لحظة الاختبار الحقيقية.

في هذه الحرب عرفنا بشرًا قالوا "نحن مع المقاومة حتى الموت، فداهم كلّ شيء"، وعرفنا بشرًا قالوا "خلص، تعبنا، أوقفوا الحرب". تعلَّمنا فيها أنها سنينٌ كاشفة، وما كان الله ليذر المؤمنين على ما هم فيه حتى يميز الخبيث من الطيب. بعد هذه الحرب لا مجال للعودة إلى الوراء، لم تعد الحياة كما كانت من قبل.. ولا غزة أيضًا.

***

هنا غزة.. حيث حياة البشر تمرُّ هامشيةً بلا تغييرٍ ولا إنجاز؛ تعوَّدنا أن نصحو من النوم لنكرر الروتين اليومي آملين أن ينتهي النهار ويأتي المساء فننام لنصحو في اليوم التالي على روتين يومٍ جديدٍ لا يُحتسب إلا في الشعيرات البيضاء التي ترسم لونًا جديدًا في رؤوسنا. عَلِقنا في فجوةٍ زمنية كتلك التي في الفيلم الغربي الذي استغربتُ أحداثه ذات مساء، حين يصحو البطل في كلّ يومٍ على صوت المنبه ليكتشف أن التاريخ ما زال هو ذاته تاريخ الأمس، وما زال عليه أن يكرر أحداث الأمس في كلّ يوم، وهو يعلم أن اليوم ينتهي بمقتله بطريقةٍ أو بأخرى. كان يعرف تمامًا أنه سيموت لا محالة في نهاية نهار الأمس العالق.

هنا غزة.. حيث كوابيسك تصبح حقيقة؛ لا كهرباء إلا بمقدار ما تشحن به ربع بطاريةٍ للإضاءة وربع خزانٍ من المياه إذا أسعفك الحظ وكان توقيت ضخ المياه القادمة من الخزان العمومي مناسبًا لجدول الكهرباء، وسيكون على أمّك أن تنهض في منتصف الليل لكي تغسل الملابس أو تكويها، هذا إذا ما كنتَ معتادًا على الترف والقمصان المكوية ولم تستبدلها بالتيشيرتات البسيطة الخفيفة، ستسهر حتى موعد الكهرباء لتتأكد من عمل الثلاجة وشحن جميع الهواتف النقالة والبطاريات،

وسيصبح نظام الإضاءة التقليدي في المنزل هو إضاءة الليدات الشاحبة التي ستجبرك على ارتداء النظارة بعد عام.

هنا غزة.. حيث لا عمل، فان وجدتَ عملًا حكوميًّا سيكون بنصف راتبٍ يتقلص مع الزمن. وإن كنتَ مقتدرًا فقرّرتَ أن تفتتح مشروعك الخاص، فاعلم بانك إنما ترمي بنقودك في سلة القمامة. هنا يتحول الجميع مع مرور الزمن إلى فقراء، ويتحول الفقراء إلى معدمين، هنا الكبت والقهر والجوع.

احتاج الأمر مني إلى كثيرٍ من الوقت كي أذيب جليد الصدمة بعد الحرب؛ حاولتُ الانشغال بكثيرٍ من المشاريع، وفي كلّ مرة كنتُ أبدأ العمل في قمّة النشاط ثم أنهار تمامًا في منتصف الطريق، كأن طاقتي أشبه بالبطارية المُهترئة التي أكتشف فجأة دون سابق إنذار أنّها انتهت، وأنني لم أعد قادرةً على الإكمال، ولا رغبة لي بالعمل.

كثيرًا ماكنت اترك العمل في الكُلِيّة، ثم أعود، ثم أتركه لأعود ثانيةً، وفي كلّ مرة أبدأ تنفيذ القرار مقتنعةً تمامًا بترك العمل ثم تجبرني الحالةَ النفسية على تغيير رأيي.

كنت أحارب حربًا شرسة لأبقى على قيد الحياة بينما أنا في الحقيقة أموت شيئًا فشيئًا في داخلي. أتنازل عن أي سببٍ للسعادة هكذا بهدوء ورضىً، لم أعد أدرك تعريف السعادة على أيّة حال.

تواعدتُ مع شيماء شقيقة زوجي للخروج وممارسة رياضة المشي في الصباح الباكر. تركتُ شام نائمةً في المنزل مع إخوتها، حيث دراستهم في ذلك الوقت تبدأ في الفترة المسائية، مشينا إلى الشارع العام ومررنا

بالسوق، وأنا أتساءل كيف عادت المدينة إلى ضوضائها المعهودة بهذه البساطة.

مررنا عبر السوق حيث اصطفت بعض عربات الخضار بجانب دكّان الجزّار، وعلى الجانب الآخر يقف طابورٌ من سيّارات الأجرة في الموقف المخصّص للجامعة، وقد ارتفع صوت متعهد الموقف ليغطّي على أصوات الباعة متشاجرًا مع أحد السائقين الذي تجاوز دوره دون أن يدفع الرسوم. هذه المشاهد نراها دائمًا في كلّ موقفٍ لسيارات الأجرة.

قلتُ لشيماء متجاهلةً تفاصيل السوق وضوضائه: هل تصدقين لو قلت لكِ أنني أتقبّل تمامًا فكرة الموت.. أشعر أنّها نهايةٌ مريحة، أنا مريضة، أليس كذلك؟.

كانت شيماء تحاول أن تخفِّف عنِّي حيث إنها مرت بالصدمة ذاتها سابقاً بعد استشهاد أخيها سالم في عام 2009، قالت: لا تفكّري بهذه الطريقة.

- أنا لا أفكّر، أنا أشعر بهذا في داخلي، لا أعرف كيف أشرح لك.. في داخلي فراغٌ تام، أقصد أنني لن أخاف لو عرفت أن موتي سيكون الآن، ربّما الشيء الوحيد الذي قد أفكّر فيه هو الأولاد وما سيحدث لهم لو أنني مُت، أو ربما أنني لا أريد لأمي أن تعاني وجع الفقد ثانيةً.. هذا كلّ ما قد أفكّر فيه.

- كلامك ليس طبيعيًّا.. غير صحي بالمرّة.. إذا بقيتِ تفكرين بهذه الطريقة سوف تمرضين بحق.

تنهدت وقلت بيأس: والله أعرف، لكن الأمر ليس بيدي.

لم يكن هذا الإحساس اختيارًا، لقد كنت أرزح تحت مخدّرٍ قوي يمنعني من الرؤية والتفكير وتحديد أهدافي، يمنعني من الحياة.

في كلّ مرّة أحاول أن أشغل نفسي بشيءٍ جديد ينتهي به الأمر مركونًا في أحد جوانب المنزل، حتى إنني توقفت عن التفكير بأي مشروع لكي أتوقّف عن الشعور بالإحباط في منتصف الطريق.

اثنان وخمسون يومًا من الحرب حوّلت أي رغبة في الحياة الطبيعية إلى وهمٍ وسراب. محنةُ الفقد جعلت الموت فكرةً جيدةً لملاقاة الغائبين، أو على الأقل هي فكرةٌ منطقية ونهايةٌ غير مخيفة، لأنّ هناك من ينتظرنا في العالم الآخر.

ورغم ذلك الشعور الجاثم على صدري، كنت أقول لنفسي إنني ما زلت على قيد الحياة، لابد أن هناك هدفًا ما لوجودي، هنالك سببٌ حتميّ يعلمه الله وحده لبقائي، يا الله كم أود الخروج من هذه الدوّامة التي تكاد تبتلعني.

تأمَّلتُ الناس في طريق العودة وأنا أتخيَّل نفسي أعاود حياتي من جديد كما يفعل كلّ هؤلاء البشر في أنحاء السوق متسائلةً عن المعنى الحقيقي للسعادة، أقلِّب في صفحات وجوههم وأسبر أغوارهم عبر أعيُنِهم المتلفتة يمنةً ويسرة، لعلِّي أجد تلك القشة التي تنقذني من هروبي الصامت نحو النهاية.

هل تعلم ما السعادة؟..

لربما كانت السعادة في دعاء أمِّك تسمعه حين تنطلق صباحًا إلى العمل رغمًا عنك بعدما فقدتَ الأمل في راتبٍ كامل فتبتسم، لعلَّ الله يحدث بعدها أمرًا. السعادة في رفيقٍ تحدِّثه بأي شيء يدور في خلدك دون

خوفٍ أن يسيء الظنَّ بك أو يُنَصّب نفسه قاضيًا فيحاكمك، السعادة في بسمة عجوزٍ تحمل حفيدها شاء الله أن أجاورها في سيارة الأجرة، في امتنانٍ غريبٍ من بائع خضرةٍ نقدتُه ثمنَ ما اشتريتُه دون أن أجادل فابتسم، رغم أن هذا حقّه وليس مِنّة مني، في أملِ بائع بقدونس يدور في السوق ينهكُه الوقوف وهو يعرضُ بضاعَتَه على كلّ من يمرُّ به دون أن يملَّ أو يتوقف. السعادة في ضحكة أبي يوسف العجوز يوم أن شرع يشرح لي مقادير الكعك وأفضل أنواع السمن وأنا منصتةٌ باهتمامٍ لاهتمامه رغمَ أنني أصنع الكعك منذ أحد عشر سنة.

السعادة أن أخرج من قوقعتي لأمشي في شوارع المدينة التي ظننتُ أهلها يموتون ويتحولون إلى زومبي، لأجد أنهم ما زالوا يتنفسون، ما زالوا يحلمون، ما زالوا بخير من الله رغم كلّ السواد الذي يلفُّهم ويلفُّني، ورغم كلّ اللصوص والكذابين والمتآمرين، ما زالوا بخير من الله، فلنا الله.

السعادة في دعاءٍ ترفعه في حين مظلمة وتقول يا الله ما خاب من التجأ إليك فلا تكاد تنهي كلماتك وتمسح عبراتك حتى يطبِّب الله قلبك فتستشعر وجوده حولك فتطمئن.

السعادة أن أرى هذه المدينة المنكوبة على مرِّ الأزمان وهي ما زالت تقاوم. هل تعلم يا صديقي، إنها حقًا مدينةٌ جَلِدَة.

***

-4-

أول الخيط

غزة -7 يوليو 2015م

لماذا يجب عليّ أن أخوض الصراع ذاته مع الأولاد في كلّ ليلة لكي يذهبوا إلى النوم؟. الأعذار والملاحقات ذاتها في كلّ ليلة: ماما ما شربت حليب.. ماما بخاف من العتمة.. جوعان.. زهقان.. مش نعسان. لا أفهم سببًا يبقي الأطفال بطاقتهم وحيويتهم منذ الاستيقاظ في السادسة صباحًا حتى التاسعة مساءً دون توقف عن اللعب والصراخ والشجار والعبث بأعصابي.

الليل هو الفرصة الوحيدة التي أحظى بها للتفكير والبحث والقراءة، وهو الفرصة الوحيدة لأتوقّف عن كوني آلةً تتابع الأعباء والمهام طوال النهار؛ لذلك كنت أستغل ساعات الليل على أكمل وجه، بالطبع إذا سمحت لي طاقتي بذلك.

تذكرّت بسام جرار، بحثت عن دروسه على الإنترنت، ثم بدأت بأول تسجيلٍ ظهر أمامي من سلسلة المحاضرات التي يلقيها، وصدف أنه كان يتحدّث عن الحرب على غزة.

رأيته مرتديًا السواد جالسًا على مقعدٍ خشبي في وسط مسجدٍ في مدينة البيرة بعد صلاة المغرب من يوم الأحد، وكانت المحاضرات تُعقد مساء كلّ أحد. كلامه عاميّ يدخل قلوب البسطاء بسلاسة، وفيه بعض التسرية

عن النفس والتحفيز على الصبر، زرع الاطمئنان في القلوب، والثقة في قدرٍ محتوم كتبه الله علينا وهو قادمٌ لا محالة.

ولكن ماذا عن نبوءة زوال اسرائيل التي ذكرها ضياء ؟. ما هي ؟ أين سأجدها؟.

انتقلت إلى تسجيلٍ آخر، وكان في غرفةٍ مغلقة بها سبورة، كأنها قاعة دراسية. الكثير من الأرقام وحساب قيم الكلمات والتواريخ وأرقام الآيات، لم أفهم شيئًا في الحقيقة، لقد ضِعتُ بين كلّ هذه الأرقام ولم أحتمل متابعة الدرس فأوقفت التسجيل وأغلقت الحاسوب.

كيف يمكنني استيعاب هذا القدر من الأرقام؟ و كيف ربط هو هذه الأرقام في نظامٍ متكامل وعلاقاتٍ رياضية غريبة بالكاد أستطيع ملاحقة أرقامها؟.

هززت رأسي بعنف لطرد تأثير الضوضاء التي أحدثتها دوامة الأرقام في عقلي.. وذهبت للنوم.

***

غُصتُ لفترةٍ لابأس بها في أبحاث بسام جرار ومركز نون، تعلّمتُ حساب الجمَّل، حاولت أن أتدبر القرآن بطريقةٍ أخرى غير تلك التي نشأتُ عليها عمري كله. كان الشيخ يتحدث عن أشياء لم أعتد عليها، ولم يخطر ببالي تصديقها، لكن شعوري بالتقصير جعلني أستمر بالبحث إلى أن تحول إحساسي السابق بالذنب إلى إدمانٍ وشغف.

خطر ببالي أن حديثه عن نبوءة زوال اسرائيل وما خرج معه من نتائج ليس إلا مجموعةً من الصُّدف. فإن لم يكن الأمر صدفة ، وجب أن

تنطبق هذه المنهجية على القرآن كله، أقصد على قصصٍ أخرى في القرآن الكريم وليست محصورةً في سورة الإسراء وزوال اسرائيل.
أدخلني الفضول والعناد في محاولاتٍ لتجربة حساب الجمّل في سورةٍ أخرى. وكانت قصة أصحاب القرية في سورة يس إحدى القصص التي شدت انتباهي كثيراً، وهي القصة الوحيدة التي وردت في سورة يس بالمناسبة.
يقول بعض المفسرين أن القرية المقصودة هي أنطاكية وأن الرسل كانوا رسل عيسى عليه السلام، لكن مفسرين آخرين قالوا أن أهل أنطاكية لم يكفروا بالرسالة، بل آمنوا بسرعة دون أن يعذبهم الله عذابًا بهذا الحجم المذكور في السورة. إذاً من هم أصحاب القرية؟.
كنت قد قرأت سابقًا في كتاب الحضارات القديمة عن بومبيي Pompeii أو كما أسماها الكاتب مدينة الرذيلة، ماخور الدولة الرومانية التي هلكت تحت رماد بركان فيزوف فغطَّاها لمدة سبعة عشر قرنًا قبل أن تُكتشف بالصدفة مع مدينة هركيولانيُم Herculaneum المجاورة لها والمدفونة معها بالحدث نفسه.
الحق أنها لفتت انتباهي بشدة بسبب تشابه وصف موت أهلها تحت الرماد مع وصف هلاك أهل القرية في سورة يس ب"خامدون". ذلك لأن المعجم يعرِّف كلمة خَمَدَ بأنها "سكنت ناره تحت الرماد"، ولم أجد كلمةً في اللغة العربية تصف حال هلاك أهل بومبيي أفضل من كلمة خامدين.

وردت كلمة خامدون في القرآن الكريم مرتين: المرة الأولى كانت في سورة يس والمرة الثانية في سورة الأنبياء حين وصف القرآن عذاب أهل القرية التي قصمها الله ب"حصيدًا خامدين".

ولقد جذبتني الكلمة والقصة بشكل لا يُصدَّق فأبعدتني عن اهتماماتي ومشاريعي الكثيرة التي لم تعد تكتمل أبدًا. أصبح البحث في التاريخ عن مدينة بومبيي إدمانًا في كلّ مكان وكل وقت. لم أترك وثيقةً أو مرجعًا أو فيلمًا يتحدث عنها سواء بالعربية أو الإنجليزية إلا وبحثتُ فيه بِنَهَم. وهكذا بدأت قصتي مع سورة يس.

لفظ القرية لغةً يأتي من جذر قَرْي بمعنى الجمع وتُذكر حين يُراد وصف المكان من جهة الاجتماع والمجتمع، وكل مكان اجتمع فيه الناس على معتقدٍ أو دينٍ أو لغة أو ممارسات فهو قرية. وقد تصف القرية دُولًا كبيرة اجتمعت على ممارسات واحدة وليس كما أُتُّفِق عليه في الوقت الحالي أن القرية هي الريف.

أما المدينة فتصف المكان من حيث المظاهر المادية والشكل والنظام والشوارع والحكم، ولذلك توصف المناطق المتحضرة بالمدنية.

السؤال الذي خطر ببالي أثناء البحث: هل كانت القرية المقصودة هي الدولة الرومانية بأكملها كمجتمع وثني غارق في الشهوات والظلام؟.

استغربت أن رقم سورة يس 36 يتطابق مع خط العرض الذي ينصف الإمبراطورية الرومانية بالعرض ورقم الآية 13 التي وردت فيها لفظ القرية يتطابق مع خط الطول الذي ينصف الإمبراطورية الرومانية طوليًّا.

شرد ذهني وأنا أفكّر في قصة بومبيي، لقد تعلمَّت أن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، فلما رأيت التماثيل الجصّية التي صُنعت لقتلى مدينة بومبيي صُدمت بالهول الذي ارتسم على وجوههم؛ لقد مات الرومان في الشوارع وأجسادهم التي تركت فراغات في حفريات مدينة بومبيي كانت تصوّر عذابًا هائلًا، الكثير من التماثيل بكل الأعمار، كأنهم لم يجدوا مهربًا من الموت الذي فاجأهم بمنجله يحصدهم حصدًا.

ولأنني أثق بعدل الله سكنني يقينٌ غريب أنهم كانوا مجرمين، لأن عذابًا كهذا لا يحيق إلا بالمجرمين. ولأنني أعلم أن الله يمهل ولا يهمل وأنه ما من أمةٍ إلا خلا فيها نذير، كنت واثقةً تمامًا أن الله أنذرهم، وأنه عذّبهم بعذابٍ أقل درجة في السابق، مجاعة ربما، أو سلّط عليهم مترفيهم، أو ربّما أنذرهم بجفافٍ أو زلزال. إن عذابًا بهذا الحجم من الهول لابد أن يسبقه الكثير من العلامات، لكن قلّةً من الناس يلتقطون رسائل الله، وقلّةً من يصدّقونها، وقلةً من ينجون من العقاب.

صَدَّقتُ ذلك الخاطر الذي طرأ لي أن القصة التي اختفت تحت التربة الخصبة ذات النخيل والأعناب ودُفنت لأكثر من سبعة عشر قرنًا لحريٌّ بها أن تحوي صورة عقابٍ إلهي يشبه عقاب عاد وثمود وقوم لوط.

بومبيي، درة التاج الروماني، ومقصد الأثرياء من كلّ أنحاء الإمبراطورية تنتهي في أقلٍّ من أربعٍ وعشرين ساعة، أظنّه درسًا يفوق أيّ تصورٍ قد يخطر ببال أحد.

عندما بدأتُ البحث كان لابد أن أعرف ما سبق الانفجار من أحداث، أن أتصوَّر الحقبة الزمنية التي عاشوها وأحوال البشر في ذلك الزمان من إيمانٍ وكفر. تخيَّلتُ وجود الرسل وحملة الرسالة أو المجددين لدين الله.

أعلم جيدًا أن لا نبيّ بعد عيسى عليه السلام بعدما صعد للسماء إلاّ محمد عليه الصلاة السلام، ولذلك تصوَّرتُ أن زمانهم هو زمان الحواريين وأتباعهم، أولئك الذين انطلقوا يبشرون بدين الله وبعودة المسيح ويدعون البشر إلى عبادة الله الواحد الأحد.

بدأتُ الرحلة في تاريخ الدولة الرومانية وعلاقتها بالنصارى الأوائل، أتجول بين الكتب والمراجع، أتعرّف على رسل عيسى عليه السلام، جهودهم، عذاباتهم، واستشهادهم في سبيل الحق. أطرُقُ تاريخًا لم أحفل به من قبل، لأنني كنت أعرف دائمًا أنه غارقٌ بالأكاذيب.

كنت أدرك تمامًا أنني سأواجه الكثير من الأكاذيب في رحلتي، لأن التاريخ يكتبه المنتصر كما يريد، غير أنني أقنعتُ نفسي أن الأكاذيب لا تخلو من بعض الحقيقة، وتلك الحقيقة هي التي سوف أبحث عنها جيداً تحت الرماد.

***

القَرْيَة

النصيحة الثانية:

الْزَمْ قَلْبَك، فَثَمَّ الحَقِيقَة

***

عندما تخرج من التيه، ستختلف كلّ القواعد التي اعتدتَ عليها، ستمكث لبرهةٍ على حدود الصحراء تحاول أن تتعلَّم القوانين الجديدة. ما زالت روحكَ هائمةً أسيرةً لكل القيود التي أرهقَتْك، ما زالت علامات التيه القديم راسخةً في أعماقك، لكنها كانت دروسًا عظيمة امتحنت قلبك وغرست فيه اليقين الكافي لإكمال الرحلة.

في الأفق هناك، سترى كلّ السُبل الجديدة تمتدُّ أمامك، غير أنّك بحاجةٍ لتركِ كلّ القيود المتأصِّلة في نفسك. وعليك أنت - حين تقرّر اقتحام تلك الدروب- أن تلقي عن كتفيكَ الأحمال الثقيلة كلّها، أن تحطّم الأغلال كلّها وتكتفي بذلك اليقين المغروس في قلبك.

واليقينُ يلازم الفطرة، والفطرةُ سوف تشعرك أنك ما زلت حيًّا وأن طاقتك لم تنضب بعد، أنَّك بشرٌ، بكل ما في تلك الكلمة من قوّةٍ وضعفٍ وعلمٍ وجهلٍ وصراعٍ بين كلّ القوى في هذا الكون.

***

-1-

المُرْسَلُون

تبدو الصحراء ممتدةً مترامية الأطراف في رحلةٍ ليس لها انتهاء..
الشمس الحارقة معلقةٌ في منتصف سماءٍ اعتزلتها الغيوم، والصخرة ثقيلة.. ثقيلة.. ثقيلة، وهُو لم يكن بتلك القوّة التي ظنّها في بداية الطريق.
كان منهكًا يسير في الصحراء القاحلة، يحمل على كتفيه صخرةً كبيرة ويتعثر في كلّ حينٍ غارسًا قدميه العاريتين في الرمال الملتهبة.
متعبٌ، أعْمَته الدموع التي تتساقط من عينيه بلا انقطاع، كأنَّها قد فاضت من قلبه المثقل بالهموم. تائهٌ يبحث في طريقه التي تغصُّ بالأشواك عن الحقيقة، بعدما يئس من الواحات التي مرَّت به كلّما اقترب منها ومدَّ يده يَتَلمَّس ماءها وجدها سراباً.
كان منهكًا، فسقط على وجهه ممدَّدًا فوق التراب وتدحرجت الصخرة عن كتفيه وهو يصرخ من أعماقه أين الخلاص؟ أين الخلاص يا الله؟.
من بعيد سمع صوتًا يناديه من السماء وقد بدأت السحب تغطّي عين الشمس، كأن يدًا خفيةً ترتِّبها في مظلّةٍ عملاقة ظلّلته فأوقفت احتراق رأسه الخالي من الشعر.
سمع صوتًا يقول له "انهض يا بولس.. ما زال الطريق طويلًا"

رفع رأسه نحو الطيف القادم من السماء متسائلًا من بين دموعه عمَّن يكون، لقد سمع صوته في رؤياه السابقة حين أنجده من السير في طريق الضلال.

- لقد تعبت يا سيدي.. تعبت من حمل ذنوبي طوال هذه الطريق.

ابتسم الطيف المكلّل بالنور وأحنى رأسه قليلًا فتحدّر القطر من شعره المنسدل على جانبي وجهه كأنما هو يخرج للتو من تحت المطر..

- إن الله يغفر الذنوب جميعًا يا بولس.

- أعرف يا رسول الله.. أعرف.. لكن نفسي تأبى أن تغفر لي.. إن الله رحيمٌ أثق برحمته، ولكنني أتعذّب بذنوبي.

- استقم.. وثِقْ به، فإنَّه مُخلّصك.

- كيف الخلاص.. أين الخلاص يا رسول الله.

- قريبا يا بولس.. كن قويًّا.. كن واثقًا.

- دُلّني عليه إذًا.. دلّني على الطريق.

- أترى تلك النيران التي تلتهم بلاد الزناةِ العصاة الراسخين تحت حكم قاتل أمّه.. انظر هناك في الأفق.. انظر.. إنها خلاصك يا بولس.

رفع بولس رأسه ينظر إلى الأفق البعيد حيث يشير المسيح، ارتسمت أمامه روما تحترق، بينما يخترق أذنيه صدى ضحكاتٍ مجنونة كأنَّما يُطلقها الشيطان ذاته. كانت الحرارة تلفح وجهه فيما هو واقفٌ بين الأنقاض المحترقة. تناهى إلى سمعه صوت عيسى عليه السلام يقول له بينما يصعد إلى السماء: إنها خلاصك يا بولس.. هلمَّ إلى الخلاص.. إن الله غفور رحيم.. هلُمّ إلى الخلاص.. هلُمَّ إلى الخلاص..

***

"بولس.. انهض يا بولس.. يبدو أنك محمومُ يا صديقي"
فتح عينيه بصعوبة ليطالع وجه رفيقه الطيب الذي يعتني به منذ قَدِم إلى تسالونيكي في أرض اليونان. سمعه يقول بقلق: كنت تهذي يا صديقي.
اعتدل في فراشه قائلًا: كنت أبحث عن الخلاص.
ابتسم لوقا وهو يعاونه على النهوض قبل أن يقول: قم معي لتأكل قليلًا.. لقد أحضرت لنا فيليبا بعض الطعام.. قم الآن ثم احكِ لي عن خلاصك إن شئت.. هيّا.
كان يجوب الأرض مبشرًا بدين الله منذ رأى المسيح في منامه فخلَّصه الله من السواد الذي لف قلبه وكاد يفتك به. قادته قدماه إلى هنا، إلى اليونان، أرض فيثاغورث وسقراط. هؤلاء القوم يقدسون الحكمة، فلا عجب إذًا أن دخل الحق قلوبهم بهذه السهولة.
قال له لوقا: في اليونان يستمع الناس لك بهدوء، لا ضجيج يمنعهم من رؤية الحق، لذلك كنت تجد الفلاسفة هنا يقتربون من معرفة الله ببساطة شديدة.. ربّما لوَّثهم الرومان بماديتهم قليلًا، ولكن فطرتهم السوية ما زالت تقودهم دائما نحو الحق.
- لمست هذا بصدق.. إنهم قومٌ لطفاء.
جلسا يتناولان الخبز الذي أحضرته فيليبا بهدوء، كان الكثير من أهل القرية قد دخلوا المسيحية ويتبرَّكون بإرسال الطعام للدعاة الغرباء حاملي رسالة المسيح إلى البشرية.

***

بدأت النيران التي أوقدها لوقا تبثّ الدفء في أوصالهما وقد اشتدَّ البرد في ذلك المساء فوق الربوة الجميلة التي خيَّما فوقها يتطلَّعان إلى البحر

من بعيد. كانت بقايا ألوان الشفق الأحمر قد زالت تاركةً ظلالها في اللهب المتصاعد من النيران.

تساءل لوقا في قلق: أخبرني عن كابوسك..

راجع بولس رؤياه في ذاكرته وهو يقول: لم يكن كابوسًا.. كانت رؤيا، رأيت السيد المسيح في المنام.. وكان يدلني على الخلاص.

- الخلاص.. الخلاص يا صديقي المتعب؟ أولم يدخل الإيمان قلبك؟ أليس الإيمان هو الخلاص..

- أنا متعبٌ يا لوقا.. تقبع فوق كاهلي الذنوب كأنما هي جبلٌ راسخٌ يرمي بظلّه فوق قلبي المهموم..

رفع لوقا حاجبيه في استغراب قائلًا: أووه يا صديقي.. فأين اليقين من عفو الله؟.

- إنَّما هي نفسي التي لا تعفو ولا تغفر.. في كلّ ليلة أرى استيفانوس أمامي بعينين لائمتين، كنت سعيدًا آنذاك وأنا أراهم يرجمونه حتى الموت بينما هو ينظر للسماء صارخًا "رب لا تقم لهم هذه الخطيئة"، لقد كان برنابا محقًّا حين لم يصدقني، كنت واقفًا هناك أحرس لهم ملابسهم بينما هم يلوّثون أرواحهم كما روحي بهذا الذنب العظيم..

كان بولس يبكي وقد تذكّر ما كان يصنعه من آثام في حياته السابقة لمحاربة المؤمنين واضطهادهم مع بقية قومه من اليهود.

قاطع لوقا صمته وعبراته وهو يقول مخفّفًا عنه: هوّن عليك يا صديقي، لقد ذهب استيفانوس إلى الله شهيدًا، وأنت حينها لم تكن قد عرفت الحق..

- يثقل قلبي بكاء النساء وعويل الأطفال حين كنت اقتحم بيوتهم وأقيد رجالهم ليُقادوا إلى حتفهم ثمنًا لإيمانهم بالمسيح، لعل أحدًا لن يشعر بثقل هذه الخطايا على القلب سوى من اقترفها.
- أخبرني عن خلاصك إذًا.. أين الخلاص..

تنهد بولس قبل أن يقول: لو رأيت كيف بدت لي روما واقعةً في فوهة الجحيم تحيط بها النيران من كلّ جانب بينما أصوات الشياطين تحوم حولها. كيف هي أخبار المؤمنين هناك؟..

قال لوقا بحسرة: بخير، ينتشر الدين بهدوء وخفية، لقد اعتاد الرومان على الفواحش حتى صارت طهارة الدين تهدد أصحابه بالهلاك.

ساد الصمت لفترةٍ من الوقت قبل أن يقول بولس: اشتقت لأورشليم، سأذهب إلى هناك في أقرب فرصة، ولعلّني أعدُّ العدَّة بعدها لرحلةٍ جديدة، إلى روما هذه المرة.

- إلى روما؟ أما سمعت عن أفعال نيرون؟ ذلك الطاغية الآثم!
- قد سمعت بالطبع، ومن لم يفعل؟ إنه قدري يا صديقي، ولا أحد يهرب من قدره. نحن في جوار الله فكيف يخيفنا نيرون.

اعتدل لوقا واقفًا ينفض التراب عن عباءته وهو يقول: خذني معك إذًا.

تبسّم بولس قائلًا: ظننت قلبك قد تعلّق باليونان وأهله.

- أخاف إن تركت الأمر لقلبي أن يُضلَّني فيستعبدني هواي. لقد أحببت صحبتك يا صديقي فدَعنِي أكُن عونًا لك.
- أنت عوني دائما أيها الطبيب الحبيب.

كانت طريق بولس ولوقا إلى أهل روما العصاة معبدةً بالشرور التي غَرست جذورها عميقةً في نفوس القوم. ولو سألتني أنا عن مصدر هذه

الشرور فلن أجد إجابةً أفضل من الكِبر، سيد الذنوب وأول ذنب عُصي به الله. الذنب الذي يمنع صاحبه من طلب المغفرة ويُعمي عينيه عن رؤية الحق الذي يحمله سواه، لأنه لن يرى حينها على هذه الأرض الفانية سواه. إنه الكبر، حيث لا يستطيع المتكبّر بعدها العودة إلى طريق الله أبدًا، فلتحذره يا صديقي لتحفظ قلبك.

***

كان قرص الشمس قد بدأ بالظهور من خلف التلال مؤذنًا ببداية رحلةٍ جديدة. وهناك في تلك السقيفة الحجرية التي سكنها بولس ولوقا في مزرعة الزوجين اللطيفين هكتور وفيليبا كان كلّ شيء معدًا للرحيل.

جمعا أمتعتهما القليلة وبعض الطعام والفواكه المجفَّفة في حقيبةٍ كتَّانية ثبتاها جيدًا فوق بغلٍ قوي سيكون سندًا لهما في الرحلة.

كانت الخُطَّة أن يتركا تسالونيكي غربًا عبر أبولونية، ثم فيليبي، وبعدها نيابوليس وتراوس حيث سيلتقيان بالجموع اليونانية الراغبة في زيارة أورشليم، ليكملا معهم الطريق بحرًا مرورًا بـ رودس إلى أن يصلوا الساحل الشرقي لسوريا ثم يرتحلون برًا إلى أورشليم.

لم يكن الطريق بهذا البعد لكن السير على الأقدام ووعورة الطريق مع ثقل القلب المنشغل بتفاصيل الرحلة، وصعوبة حمل الأمانة التي ارتضياها بسعادة، كلّ هذا كان يترك ظلًا ثقيلًا على نفسيهما. وكان وعد الله للمؤمنين بالرضى، والشوق إلى لقاء المسيح يومًا وقد شهد على جهادهما يمسح الغم عن قلوبهم ويورثها بردًا وسلامًا وطمأنينة.

قال بولس: أتدري يا صديقي.. أنا لم أكن أحمل ذلك الحقد حين كنت أعذّب المؤمنين، لقد تربيت بين اليهود، وكنت أخشى على شريعة

موسى من الضياع، كنت أظن دعوة المسيح ضربًا من الهرطقة، أغمضتُ عينيّ، وأغلقت آذاني عن سماع كلام المؤمنين، غير أن الله أبى إلا أن يُسمعني كلمة الحق.

ربَّت لوقا على كتفه قائلًا: إن الله يعلم أسرار القلوب، ولقد كان قلبك نظيفًا فأرشدك إلى طريق التائبين.

تذكر بولس روما فقال: ماذا يقول الناس عن نيرون؟

- يقال إنه قد تلّبسه الشيطان، تملكت القسوة من قلبه فأرسل من يحاول قتل أمه مرارًا وتكرارًا دون أن يرف له جفن، دَعَكَ من ذنوب أمه وغطرستها وحدِّثني عن العبث في دماء البشر بلا ضمير أو أخلاق. إن هذا الذي يحتمل قلبه إسالة الدماء بلا سبب هُوَ إلى الشيطان أقرب من البشر.
- أنا لا أستبعد أن تكون أمه هي من غرست روح الشيطان في قلبه، وقد لاقت جزاءها على يد صنيعتها، أستغرب فقط رضى قومه بأفعاله.
- لقد هرب إلى نابولي هذه الأيام بسبب اعتراض أهل روما على فعلته، لكنني أثق أن الأمر سينتهي بشكلٍ طبيعي، مَن تَعَّود على العبودية لغير الله تصعب عليه الثورة لأجل أي شيء، إنما هي فترة من الاعتراض سيعود بعدها الطاغية إلى عرشه في روما كما كان.

وافقه بولس بهزة من رأسه قبل أن يقول: صدقت، إن عبودية البشر للبشر تغرس المهانة والذل في النفس حتى يثقل عليك بعدها طلب الحريّة و الحياة بلا قيود.

- كأننا مُقبلون على صراعٍ شديد.

- نعم يا صديقي إنّه لصراعٌ شديد، فاملأ قلبك باليقين وادعُ الله أن يهدينا الطريق السديد.

كانا يتبادلان حمل الأمتعة وامتطاء ظهر البغل أو السير على الأقدام في الطريق. وما بين فترة وأخرى يتذاكران كلام المسيح ودعوته التي بدأت تنتشر في أنحاء العالم على ألسنة إخوتهم من التلاميذ والرسل. لقد بشَّرهم بالغفران، وبشَّرهم بالنبي الأمِّيّ، وبشَّرهم بعودته في نهاية الزمان حاملًا السلام للعالمين. إنهم يصدّقون حقًا، ولسوف ينقلون بشارته لكل الناس حتى أولئك الزناة العصاة الكارهين لدين الله. إن مهمتهم هي البلاغ فليؤمن من شاء وليكفر من شاء.

لاح لهما من بعيد ظل اللون الأزرق اللامع تحت أشعة الشمس، إنه البحر.. يا ترى ماذا تخبئ لهم هذه الرحلة؟

***

"توقف أيها العجوز هناك.. من أنت؟ وكيف تجرؤ على دخول المعبد؟"

التفت بولس إلى الرجل الذي يترأس حشدًا من اليهود ثم قال:

أنا بولس الطرسوسي، هذه بلادي وهذا معبدي، منذ متى تمنعون المصلِّين من دخول بيوت الله؟

قال الرجل: وهؤلاء الذين معك؟ إنهم ليسوا من هنا، لا يُسمح لهم بدخول المعبد..

قال بولس بغضب: إنه بيت الله، وحده الله الذي يملك طرد زوّاره لا أنتم.. إليك عنّي وابتعد عن الباب..

صرخ الرجل غاضبًا فازداد الحشد من حوله يمنعون بولس ومن معه من الزوار اليونانيين من دخول المعبد في أورشليم، لن يسمحوا للغرباء

أن يدخلوا معابدهم أبدًا، ولولا حكم الرومان لهم منذ زمن لمنعوهم من دخول المدينة أيضًا.

قال أحدهم: اذهب يا بولس ولا تختبر صبرنا عليك، كنت قد رحلت منذ زمن فلماذا عدت؟

- لن يمنعني مانعٌ من زيارة بيت الله في أي وقت أشاء فابتعدوا أو اصنعوا ما بدا لكم..

أحاط به الرجال وقيّدوه، ثم ساقوه إلى الحاكم حيث وضعه بالسجن إلى حين ينظر في أمره، بينما تفرَّق بقية الجمع في أورشليم يبحثون عن طريق العودة إلى بلادهم خوفًا من بطش اليهود، وبقي لوقا يراقب صديقه من مكان قريب منتظرًا الفرج من عند الله.

قرّر الحاكم إخراج بولس من السجن بعد ثلاثة أشهر، إذ لم يجد أي سببٍ لاتهامه أو اعتقاله. لم يشأ بولس تأجيل رحلته إلى روما أكثر من ذلك، خصوصًا وقد تجمَّع عليه العديد من اليهود يراقبونه وينتظرون زلَّاته، فلم يعد يأمن على حياته هنا في أورشليم..

هكذا انطلق ثانيةً مع لوقا الذي كان ينتظره في قيصرية ليبحرا عبر ميرا على سواحل ليكية ثم إلى كريت وصولًا إلى مالطة وسيشل على السواحل الغربية لإيطاليا ليكملا الرحلة البحرية فترسو بهم السفينة في خليج نابولي. وهناك، كانت تنتظره قصةٌ أخرى..

-2-

نيرون

نابولي - 59 للميلاد

"أجربيناااااه "

استيقظ صارخًا وقد داهمه الكابوس ثانيةً مما أفزع بوبيا النائمة بجانبه وجعلها تنتفض ذعرًا فتنهض وتمسح العرق الذي بلّل جبينه قائلةً: اهدأ يا سيدي.. أنت بخير..

تلفَّت نيرون حوله في ذعر، قبل أن يطمئن إلى كونه في غرفته فيقول: ما كان علي أن أقتلها، ما كان علي أن أفعلها.

- قد فعلتَ وانتهى الأمر يا سيدي، دعك من لوم نفسك، لقد كانت تعاملك كما لو كنت طفلًا.

- نعم كانت تفعل، كانت تخيفني منذ كنت طفلًا، لم أكن طفلًا سعيدًا يا بوبيا.

دُهشت بوبيا لمرأى الإمبراطور ضعيفًا خائفًا كالطفل الصغير، لكنها حاولت جهدها أن تقاوم ظهور هذه الدهشة على وجهها فقالت: أنت الإمبراطور الآن يا سيدي، يمكنك أن تصبح سعيدًا، لو شئت.

- سيلاحقني طيفها إلى الأبد، لقد صبَّت علىّ لعنةَ الآلهة.. هي من علّمني القسوة، تظنّ أنني لا أعلم عن قتلها كلوديوس بالسّم.

ضـحك فـي مـرارة قبـل أن يكمـل: كانـت تهـدّدني بإعـادة العـرش لبريتانيكوس، هل تتخيّلين؟.. لقد دفعتني لقتله دفعًا..

- هدّئ من روعك يا سيدي، لقد ذهبوا جميعًا لحالهم.

همس نيرون كما لو كان يكلم طيفًا خفيًّا في سماء الغرفة: ما كان عليكِ أن تقفي في طريقي يا أجربينا..

أراح رأسه على الوسائد وهو يردد "ما كان عليك مطاردتي، ما كان عليك ملاحقتي يا أمي، أنا ابنٌ سيء "

كانت بوبيا تنظر إليه في عجب، تظنه مجنونًا متعطِّشا للَّهو، ولكنه يبدو أمامها الآن في هشاشة الأطفال.

كانت ذكية بما يكفي لتستغل الفرصة التي لاحت أمامها لتكون عشيقة الإمبراطور الروماني، على الرغم من اعتقادها أن مسًّا من الجنون قد أصاب عقله.

لقد وعدها بالزواج بالفعل، بل إن قراره بالزواج منها هو ما أثار حفيظة أمّه أجربينا المنفية في قصرها البعيد. ظلّت ترفض أن يطلّق زوجته كلوديا أوكتافيا رفضًا باتًا، خصوصًا بعدما علمت بنيّته استبدالها بـ بوبيا سابينا. أغضبها أن ترى كلّ ذلك الجهد الذي بذلته ليحظى نيرون بولاية العهد ويحافظ على الدماء الملكية لسلالة أغسطس أوكتافيوس العظيم يذهب أدراج الرياح.

"عليها لعنة الآلهة.. لقد نعتتني بالعاهرة تلك العجوز المقيتة. كانت تستحق القتل، تلك العجوز التي تتحكم به كالدمية" هكذا قالت بوبيا لنفسها، ما كانت تجرؤ أن تقول هذا علنًا أمام نيرون المتهور، يصعب عليها أن تتنبأ بردود أفعاله.

ما زالت خطتها قابلةً للتنفيذ، سوف يتزوجها وتصبح الإمبراطورة، ثم فليتفرغ للغناء و التمثيل إن شاء. ستفعل مثل أجربينا تمامًا، وتدفع بابنها كريسبينوس إلى ولاية العرش. لاح شبح ابتسامة على شفتيها وهي تتخيل جلوسها على عرش روما تتحكم في ولايات الدولة الممتدة شرقًا وغربًا لا تغيب عنها الشمس.

كانوا قد انتقلوا إلى نابولي إثر خروج الشعب الروماني في روما غاضبًا على نيرون متوعدًا بالثورة عليه بعد أن علم الناس بقصة إرساله القائد أنيكيتوس وجنوده إلى قصر أمه لقتلها وحرق جثّتها.

الشعب الروماني محافظٌ برغم كلّ شيء، ما كان ليقبل بجريمة شنيعة كهذه. لكن نيرون يعلم أنها مسألة وقت، سوف يُذعن الشعب بعدها لحكمه، خصوصًا بعد أن يتدخَّل الجيش لصالحه كالعادة. أقنعت بوبيا الإمبراطور بزيارة بومبيي الرائعة القريبة من نابولي، مدينتها الأم المليئة بذكريات الطفولة الجميلة. سوف يكون عليها استغلال الزيارة لتقنعه بالتخلص من أوكتافيا، لابد من إزالة أوكتافيا من طريقها لكي تكتمل خطَّتها.

***

تجمهر جمعٌ كبير من أهل روما أمام القصر الذي تركه نيرون قبل يومين، مطالبين بظهور الإمبراطور أمامهم. بعضهم تجاوز الصراخ إلى إلقاء الأحجار و قشور الفواكه على الحراس المتراجعين.

لم يكن أهل روما يحبون أجربينا، لكن هذا لا يخفّف من بشاعة الجريمة التي ارتكبها نيرون، فكيف يأمن الشعب على حياته ومستقبله تحت حكم رجلٍ قتل أمه بدمٍ بارد!!

ظهرت ثلاثة ظلالٍ متخفِّية في أحد الأزقة الضيقة على أطراف روما يحثّون السير دون أن يتبادلوا الحديث فيما بينهم. كان أحدهم قصيرًا كبير السن ملامحه غريبة عن أهل روما، أما الآخران فكانا شابين هزيلين يبدو على وجوههم التعب والجوع.

"إلى أين تأخذنا يا الكساندر؟" قال أحد الشابين.

"ستعرفان بعد قليل.." رد القصير ببرود.

ساد الصمت للحظات قبل يصلوا إلى منزلٍ قديمٍ في نهاية الزقاق، وقد تناثرت عند مدخله بعض القطط السوداء. طرق الباب، ففتحت لهم سيدة شقراء بادرها ألكساندر بالتحية قائلًا: سيدتي هيلانة، لقد جئت بالشابين.

أشارت لهم أن يدخلوا حيث كان سيمون، ذلك الساحر الطويل النحيف ذو الانف المعقوف، يجلس منتظرًا.

انحنى ألكساندر لسيمون قائلًا: لقد آمنوا برسالتك يا سيدي، جاءوا لتقديم فروض الطاعة.

تلفَّت الشابان حولهما ثم سأله أكبرهما: أأنت الذي جاء حاملًا رسالة الله إلينا؟

تبسّم سيمون ابتسامته الصفراء ثم قال: أنا الذي حملت نور الله في داخلي فهلمّوا إلى نوري واشهدوا على مجدي..

بدا عليهما الارتباك قليلًا قبل أن يركعا أمامه في انكسار: يا سيدي نحن لم نأكل منذ مدة ولدينا أمٌ مريضة وإخوةٌ صغار..

بدا على سيمون أنه لم يكن مستعدًا لهذا الطلب لكنه ابتسم لهما وقال: نعم ستأكلان، أحضر لهما شيئًا يا ألكسندر، إنما أنا جئت من أجلكم أيها الفقراء..

وضع ألكسندر شيئًا من النقود في يد الشاب ونكزه ليسجد. تلفّت الآخر حوله ولم يكن قد غادره الارتباك بعد، ثم سجد كأخيه عند قدمي سيمون قبل أن ينهضا متعثرين ويغادرا المنزل بسرعة.

قال ألكساندر في قلق: لم يعد لدينا الكثير من النقود يا سيدي.

رد سيمون بتأفّف ونفاد صبر: أعرف يا ألكساندر، أعرف، أنا أبحث عن حل.. لا بد أن نجد ثريًّا يؤمن بي في هذه البقاع، أنت لا تجلب إلا الفقراء.

- إن طريق الأثرياء مفروشةٌ بالأشواك يا سيدي؛ شكّاكون، مغرورون، وقد يبلِّغون عنّا جنود الإمبراطور. لا تنسَ يا سيدي أننا ندعو بدعوة مسيح، وهم غير مرحبٍ بهم في هذه البلاد.
- دعك من هذا، لابد أن نصل إلى الأغنياء. اللعنة على ذلك العجوز بطرس، ماذا كان عليه لو منحني قوة سحرهم، هو حتى لم يتركني أعيش في السامرة.

زفر بغضب قبل أن يقول: كلّ هذا التشرد بسببه، عليه اللعنة.

عاد بذاكرته إلى السامرة حيث كان له عزٌ وشرفٌ قبل أن تنتشر هذه الهرطقة الجديدة التي جاء بها المؤمنون الجدد أتباع المسيح. كان يعلم أنهم سحرة، يثق بذلك تمامًا وهو الذي أمضى حياته يتعلم السحر ويعتاش منه. لكنهم كانوا أقوى منه، لا يدري كيف يقومون بشفاء المرضى الذين يأتونهم للاستشفاء بعد أن استعصت أمراضهم على الأطباء. لم يفهم يومًا سرّ تلك الكلمات التي كانوا يردّدونها.

لقد تقرّب من فيليبس قدر ما استطاع مدّعيًا الإيمان بدعوتهم، تبعه في كلّ مكان يذهب إليه عساه يكشف سر سحره في يومٍ ما.

ثم جاء بطرس العجوز إلى المدينة، وكان أكثر قوةً وعلمًا من فيليبس، حتى إن سيمون لم يستطع الصبر، فعرض عليه النقود مقابل أن يعلّمه بعضًا من سحره.

احمرَّ وجه سيمون غضبًا لما تذكّر الإهانة التي تلقاها من بطرس آنذاك، ضرب حافة المقعد بيده قائلًا: ذلك الحقير، سوف يأتي اليوم الذي أعود فيه للسامرة فأنتقم منه.

كانت روما محطةً جيدة حاول فيها أن يبدأ من جديد مستغلًا الكلمات التي تعلمها من فيليبس، لقد خطط أن يبني له مجدًا جديدًا بعيدًا عن سمعته التي تلوثت في السامرة، لا بد أن يجد طريقةً ما تدلُّه على الثراء هنا، لابد من ذلك.

***

بدا القصر الضخم الذي يطلُّ على البحر في كومو على السواحل الغربية لإيطاليا عتيقًا بأحجاره الرمادية الضخمة وبرجيه المرتفعين تنتصب فوق أحدهما منارةٌ قديمة يشعلها رجال القصر في المساء لتُنير ظلام البحر للعابرين.

هنا كان مسقط رأس بلينيوس، ذلك الجالس يُملي كتاباته عن حروب الجرمان على الكاتب الشاب سيسيليوس الذي يرافقه منذ مدةٍ بعد عودته من جنوب ألمانيا، لقد ترك العمل في الأسطول الروماني هناك منذ تولّى نيرون الحكم.

بلينيوس الذي ابتعد عن العمل لدى الحكومة الرومانية لسببٍ مجهول اعتذر للجميع عن العمل في أي شيء يخص القانون الروماني كيلا يضطر للتعامل مع الطبقة الحاكمة في ذلك الوقت.

يعرف أجربينا جيدًا بحكم سمعتها في كومو حيث كانت بداية حياتها، حيلتها الرخيصة في التودّد إلى كلوديوس الأحمق كانت واضحةً منذ البداية. لقد كانت تسعى إلى السلطة عن طريق الدفع بابنها نيرون إلى الواجهة، وهذا ما حدث. لقد تحالفت مع الشيطان، وعاجلًا أم آجلا كان الأمر سينتهي بكلوديوس إلى الموت.

لكنها لم تنجُ من اللعنة التي جلبتها لروما هي أيضًا، جاءت لهم بالشيطان ذاته إمبراطورًا عليهم ثم كانت هي أول ضحايا هذا الشيطان. إن من يتصوّر أنه سيهرب من عقاب الإله على جرائمه هو واهمٌ كبير.

الإله، كان هذا هو سرّه الذي لا يطلع عليه أحدًا، لطالما كان يؤمن أن هناك إلهًا واحدًا للكون، كلّ معارفه وعلومه التي استقاها من كتب الإغريق، والتي تعلّمها في بلاد الجرمان، وبحث عنها في بلاد المشرق وجزيرة العرب، والتي يراها حوله كل يوم من بديع الخلق وجمال المخلوقات تقول هذا، كلّ فلسفة سقراط وكتابات أفلاطون وحسابات فيثاغورث تقول هذا، الأمر أوضح من أن تخفيه مصالح الإمبراطور أو جشع النبلاء الذين يصرّون على اتباع أهوائهم ومحاولة الهروب من القوة الإلهية التي تحكم الكون وأحكامها وأعرافها، في داخلهم يعرفون ولكنه الكِبر الذي أعماهم عن الحق فجعلهم يعبدون هذه التماثيل الحجرية وأنَّى لها أن تحميهم إذ يلوذون بها.

كان عالمًا متفتح الذهن يبحث في دقائق الطبيعة ويتعلّم منها، وكان يقول لنفسه دائمًا "هناك إلهٌ واحد لهذا الكون.. هناك إلهٌ واحد، ولابد أن أجد الطريق إليه ذات يوم"

***

-3-

بومبيي

بومبيي - 59 للميلاد

مُتعِبةٌ جدًا تلك الرحلة البحرية التي جاءت ببولس ولوقا من بلاد الشام إلى بلاد الرومان، لقد شاءت الأقدار أن تلعب الرياح دورًا معاندًا للرحلة على سفينةٍ صغيرةٍ مليئة بالركاب، لكن كل هذا التعب انتهى حالما وصلا لوجهتهما. ورغم أن روما ما زالت بعيدة عن السواحل التي رست السفينة قبالتها إلا أن انتهاء الرحلة البحرية الصعبة زوَّدهما بطاقةٍ جديدة للمتابعة.

هل كان بولس يعرف ما هو الخلاص الذي ينشده؟. لقد كان يعمل خيّامًا قبل أن يؤمن بدعوة المسيح ويبدأ رحلته مبشرًا بدين الله في بقاع الأرض. من يقرأ عن تلاميذ المسيح الذين حملوا رسالته سيكتشف أنّهم كانوا في غالبيتهم من البسطاء، تحمّلوا الكثير من المشاق فداء نشر الشرع الإلهي وإيصاله للبشر، عُذِّبوا كثيرًا وقُتل العديد منهم بينما هم ثابتون على النور الذي حملوه. استفانوس مثلًا، قضى نحبه رجمًا أمام عيني بولس أو شاول كما كان يُدعى في ذلك الوقت، وما زال هذا الذنب يؤرق بولس ويحجب الراحة عن قلبه.

أما لوقا فقد أتى من أنطاكيا في الساحل السوري، التقى بولس وصاحَبَه منذ رحلته التبشيرية الثانية، واستمرا معًا إلى أن قرّرا الذهاب إلى روما.

عندما رست السفينة الصغيرة على الميناء، اتخذ بولس ولوقا طريقًا رمليًّا يتجه شمالًا مبتعدًا عن الساحل، وكانت هذه البقاع مجهولةً تمامًا بالنسبة لهما، فتساءل لوقا مستفسرًا: كيف سنعرف الطريق يا صديقي؟

لم يبدُ القلق على وجه بولس وهو يقول: دعنا نسير على بركة الله فإنه قد رسم لنا طريقًا لا يخيب، أتظنُّ هذا البغل يجهل الطريق في هذه البقاع، إنه مأمورٌ أيها الطبيب الحبيب.

بدأت الشمس تتَّخذ مكانها في وسط السماء وتُلهبهم بحرارتها، فأوقف بولس البغل الذي يحمل متاعهم قائلًا: دعنا نسترح قليلًا هنا ونأكل غداءنا.

أخرج لوقا الخبز والزبيب مع بعض الماء وجلسا في ظل شجرةٍ بجانب الطريق وقد أطلقا سراح البغل يأكل من الحشائش والعشب بجانبهما.

تأمّل لوقا المكان قبل أن يقول: أتعلم يا أخي بولس، خطر لي عُزَير وقد وضع طعامه بجانبه وأطلق حماره كما فعلنا الآن ثم قبضه الله مائة عام وبعثه، أترى الله يقبضنا قبل أن نبلغ روما؟

- أرواحنا يا صديقي بين يدي الله لو شاء تركها ولو شاء قبضها، ولكنَّ لي رأيا أصدّقه وأؤمن به، إنّ الله قد هيّأ لنا هذه الرحلة وابتعثنا لهداية الناس لأمرٍ جللٍ سيحلّ على هذه الأمّة، ولذلك أحسب والله أعلم أنه سيُمِدُّ في أعمارنا حتى ينتهي دورنا. ولابد لنا من إتمام مهمّتنا ما

استطعنا، فإذا حان أجلنا لحكمة يعلمها الله فلا رادّ لأمره ولسوف يُيَسِّر الله حينها من يأتي بعدنا ويتمُّ المهمة.

- صدقت يا أخي.

صمت قليلًا قبل أن يقول: لماذا يحارب اليهود دين السيد المسيح؟ كنت دائما أسأل نفسي هذا السؤال، لقد كان من المفترض أنه ابنهم، يعرفهم ويعرفونه، وعلو شأنه يزيدهم رفعة.

- أتعلم يا صديقي، لقد كنت أسأل نفسي سؤالًا أصعب، كيف لمن عرف الله ورآه، أن يتكبر فيعصيه؟ كيف عصى إبليس ربّه وهو يعرفه ويعظِّمه؟ إن الكبر ابتلاء، ولقد ابتُلِي اليهود بالكبر الذي أعمى عيونهم عن الحق. ما كان الكهنة لِيسمحوا لشرعٍ جديد أن يعدل ما أزاغوه من شرع الله، لقد ضلوا وأعجبتهم ضلالتهم.

تنهد لوقا موافقًا: ربّما معك حق يا بولس، عافانا الله وإياك من الكبر والزيغ.

***

بومبيي - 59 للميلاد

تختلف القبور عند الرومان باختلاف أصحابها ومقاماتهم، هذا هو ما يراه السائر بين الأضرحة في المقبرة القابعة خارج بوّابة نيوسيريا في الشارع الموازي لأسوار بومبيي. قبورٌ صغيرةٌ متجاورة، غُطيت بقِطعٍ صخرية دُفن أصحابها بالليل بلا طقوس ولا مراسم كتلك التي قد تمتدّ لأسبوعٍ أو يزيد عند الموتى من النبلاء بجنائزهم المهيبة. هنا ترقد الكاهنة إيموكايا تحت مصطبة ضخمة من الحجر، يعلوها محرابٌ دائري وعلى جانبيها ضريحان مسقوفان فوق عقدين ضخمين وقد زينهم

الرومان بتماثيل الأباطرة الآلهة، لا يمكن للسائر ألا يلمح ضريحها في طريقه إلى البوابة.

الشارع المرصوفُ بالصخور البازلتية الناعمة التي تأخذ الشكل المضلع يمتدُّ بين الأضرحة والمقابر حتى ينتهي ببوّابة نيوسيريا الصغيرة نوعًا ما، يعلوها قبو دائري قصير. تعثَّر البغل الذي يحمل متاع بولس ولوقا بأحجار الشارع إذ لم يَعْتَد على السير في مثله من قبل، فخفف لوقا من سرعة سيره قبل أن يزفر بقوة قائلًا: إنها بلاد الرومان يا صديقي.

رد بولس مبتسمًا: أضحكتني حقًا يا لوقا العزيز، كلّ البلاد التي مررنا بها يملكها الرومان بما فيها بلادنا، أم تراك نسيت. إنما قل أنّها البلاد التي يسكنها الرومان، ربّما كان هذا أكثر دقّة.

ضحك لوقا ثم قال: فلندخل إذًا على بركة الله..

واصلوا السير في اتجاه البوّابة التي أصبحت أكبر الآن وبدت حجارتها وتفاصيلها أكثر وضوحًا. كان القليل من الرومان المارِّين بهم يرمقونهما بريبة، لقد كان واضحًا أنهما غريبان عن المدينة، تشهد بذلك ملامحهم الشرقية وملابسهم البعيدة كلّ البعد عن التوجا أو العباءة الرومانية المعروفة.

بدا لهما على جانبي الشارع المرصوف الممتدِّ أمامهما الكثير من المتاجر لبيع الطعام والأمتعة، بينما تنتشر بينهم بعض الحدائق الجميلة والقليل من البيوت الضخمة ذات المداخل الصغيرة والجدران التي يجمع بناؤها بين الطوب والحجر والخرسانة.

كل شيء مرّ بهما كان يوحي أنها مدينةٌ جميلةٌ مرتبة، العديد من الحمّامات العمومية، المدرج الضخم حيث تقام مباريات المصارعين

وصالة الألعاب، المتاجر الفخمة والبيوت الجميلة والمغاسل، وهناك من بعيد في نهاية الشارع المسمى "دي لابونـدانزا" يظهر مركز المدينة حيث المنتدى والمعابد والعديد من المرافق العمومية. جميلة بومبيي بتفاصيلها المزخرفة وأبنيتها الفخمة وشوارعها المرصوفة المجهزّة للعربات مع ممرّات خاصة لتأمين المشاة، تتوزع بها نوافير المياه والتي يصلها الماء من ينبوعٍ بعيدٍ في الجبال عبر أنابيب ضخمة تمتد لمسافاتٍ طويلة. قمّة الرفاهية والترتيب الذي يبهر الزائرين القادمين من كلّ أنحاء الإمبراطورية.

بدا لوقا مرتبكًا قلقًا وهو يقول: هناك انقباض في قلبي يا بولس.. أشعر أننا محاطان بالشياطين.

ردّ بولس بهدوئه المعتاد: إنهم بشر يا لوقا، لا تبالغ. هناك من يحمل أفكار الشياطين، وهناك من يحمل قلوب الملائكة، لكنهم بشر يا صديقي، مثلنا تمامًا، بشرٌ يتأرجحون ما بين الصلاح والخطيئة.. ونحن جئنا إلى هنا لأجل ذلك، لكي نعلّمهم الفرق بين الحق والباطل.. مالي أراك ممتقع اللون منذ دخلنا إلى هذه المدينة، كأننا ندخل أبواب جهنم؟؟

- لا أدري، أشعر بانقباض في قلبي وأرجو من الله ألا تطول إقامتنا هنا.

كانا قد دخلا شارعًا ضيقًا للمشاة يخلو من المتاجر، على جانبيه رصيفان مرتفعان ومن خلفهما مبانٍ قصيرة ومتجاورة. شعر بولس كأنما هناك من يجذبه من ملابسه فكادت عباءته الصوفية تسقط عن كتفيه. أدار رأسه إلى الخلف ليجد فتاةً شابة لا يكاد القماش الأبيض الذي تحيط نفسها به يغطي عورتها، كانت تشير له على عتبة أحد المباني

ومن خلفها الباب المغطى بستائر قماشية لا تكاد تداري الغرفة الصغيرة التي يظهر منها سرير حجري مفروش ببعض الوسائد الملونة المهترئة.
ابتسمت الفتاة بخلاعةٍ قذفت الرعب في قلب بولس فتغيّر لونه وعدّل عباءته ليسرّع من خطواته في الاتجاه الآخر دافعًا المارة لكي يتمكن من الهروب من هذا المكان بأقصى سرعة، خلفه لوقا يحاول السيطرة على البغل فوق الأرض الحجرية. في الواقع لم تكن الفتاة وحيدة، كان الشارع يعج بالمومسات الواقفات على جانبي الطريق. حاول بولس جهده ألا يصطدم بهن في طريقه إلى المنفذ البعيد الذي بدا أنه يخرجه من هذا الشارع.
انطلق يهرول في الشارع الضيق ما بين سقوطٍ وتعثُّر بين عجلات العربات. كان شكلهما مثيرًا للاستغراب، رجلان مسنَّان يركضان متعثرين بالمارة كأن شياطين الكون تلاحقهما.
وقع بولس على ركبتيه وهو يلهث في نهاية الطريق ولحق به لوقا الذي كان يعرج مستندًا على عصاه بعد أن سقط أثناء الركض فآذى قدمه.
جلسا على حافة الرصيف يلتقطان أنفاسهما وقد امتقع وجه بولس واستحال إلى اللون الأحمر "أين نحن يا لوقا؟.. ما هذه المدينة؟.. أيّ جحيمٍ عبرنا دون أن ندري؟."

***

كان هناك رجلٌ شرقيُّ الملامح يقف غير بعيدٍ عنهما يبيع العنب في جانب الطريق. اقترب منهما فجلس بجانبهم وقال: من أين أنتم؟ يبدو لي أنكم من اليهود.. أليس كذلك؟

كان بولس قد هدأ قليلًا واستعاد رباطة جأشه فقال: نحن من أنطاكيا، لسنا من اليهود ولكننا جئنا من يهوذا بالفعل.

رد الرجل متبسمًا: أنا يهودي، اسمي يوسيفُيُس، جئت من السامرة قبل سنوات عديدة وكنت أعمل بحّارًا على بعض السفن في الماضي، تركت البحر وسكنت في مدينة قريبة من هنا تُدعى هركيولانيُم، لدي بجانب الجبل بستان صغير، آتي إلى هنا كلّما نضجت الفاكهة على الشجر فأبيعها وأعود لبيتي، هذا موسم العنب.. تفضلا تذوّقاه..

لوقا: شكرًا لك.

يوسيفُيُس: لاحظتُ صدمتكم، الحياة هنا تختلف عن أي مكان آخر.

لوقا: سعيدٌ أنني وجدت أحدًا يرى جنون هذه المدينة.

يوسيفُيُس: تذكّر أنني لست من هنا في الأساس.

قال بولس: هل سمعت بالمسيح؟..

يوسيفُيُس: النبي الذي قتله بيلاتيس، بالطبع سمعت.

بولس: بالطبع لم يقتله يا صديقي !! بل رفعه الله إلى السماء.

يوسيفُيُس: أنتم من المؤمنين الجدد إذًا، هلا حدَّثتموني عن هذا الدين؟.. لا، انتظر، دعني أنتهِ من بيع فاكهتي ثم نعود معًا إلى هركيولانيُم حيث الحياة هناك أقل صخبًا.

***

كانت المشاعل المعلّقة في كلّ مكان من المنزل الكبير تلقي ظلالًا جميلة على الديكورات الجصّية الملوَّنة والجدران الحمراء المزخرفة. المكان يعج بالموسيقى والصخب، حيث بعض العبيد يعزفون على القيثارة والناي في ركن الحديقة. الكثير من الموائد الممتدة في أرجاء الحديقة

الداخلية المحاطة برواق من الأعمدة الكورنثية، وعلى الموائد تراصت أقداح الخمر وأطباق الطعام التي يتناولها الضيوف بين الحين والآخر.
هذا حفل زفاف جايوس يوليوس بالِبيوس أحد أعيان بومبيي الشباب، يبلغ الثلاثين من عمره الآن، وكان قد أكمل بناء بيته الجديد منذ عامين وقرّر أن يتزوج أخيرًا.
صوت العربات تتوقّف أمام المنزل وصهيل الخيول يضيع في ضوضاء الحفل الصاخب، إلا أن من جاء الآن كان ضيفًا لا تخطئه العين، هو لا يقبل أساسًا أن تخطئه العين، ولا يغفر أيضًا.
خرج بالِبيوس في طليعة المستقبلين للإمبراطور نيرون وامرأته بوبيا سابينا التي كانت ترفل في ثوب سماوي وقد بدأت ترسم صورتها كإمبراطورة روما المستقبلية.
قال بالِبيوس مُرَحِّبًا: سيدي الإمبراطور.. سيبلغ بي التيه عنان السماء أن وطئت قدماك داري المتواضعة.
نيرون: أنت صديق عزيز ومواطن صالح يا جايوس.. كما أن بومبيي الجميلة تستحق الزيارة في كلّ وقت.
التفت بالِبيوس إلى بوبيا قائلًا: سيدتي بوبيا سابينا الموقرة.. أهلا ومرحبًا بك.
أحنَت بوبيا رأسها تردُّ التحية بلا أي كلمة وهي تُجيل عينيها في جنبات البيت الذي تزيّن بتماثيل الآلهة والرسومات الجميلة ثم قالت: لديك منزلٌ جميلٌ يا سيدي وذوقٌ رائع..
رد بالِبيوس في فخر: يسعدني أن بيتي قد أعجبك يا سيدتي.

ازداد الحفل صخبًا بحضور نيرون المُوْلع بالحفلات والمجون، وكان بالِبيوس يتحين الفرصة ليسأله برجاء: سيدي الإمبراطور، أما هناك من فرصة لتغيير رأيك بخصوص الألعاب الرياضية والمحاربين؟.

ردَّ نيرون بلا مبالاة: لا أسمح بهذه التجاوزات والاعتداءات على أرضي، لا مباريات ولا ألعاب بعد اليوم. على الناس أن يفهموا معنى الانضباط كيلا يقوموا بمذبحةٍ أخرى كالتي حدثت.. لقد أربكتم البلاد بشجاركم مع نيوسيريا ولابد من عقابٍ لكم ولهم.

- ولكنها كانت المتنفَّس الوحيد لنا يا سيدي..

قال نيرون بهدوء وهو يأكل بعض العنب: لديكم المسرح.. يمكنكم الاهتمام بالغناء والتمثيل أكثر من ذي قبل، لديكم كلّ الوقت لتبدعوا يا جايوس.

توقف بالِبيوس عن النقاش خوفًا من إغضاب نيرون أو إزعاجه في ليلةٍ كان من المفترض ان تكون احتفالًا بزواجه، فاستطرد نيرون:

هل ستترشح للانتخابات البلدية هذا العام.. أظن الموعد قد اقترب.

- مازلتُ صغيرًا يا سيدي.. لا أريد أن أجازف حاليًّا.. سأهتم بأعمالي وتجارتي لأنني أحتاج إلى الاستقرار قبل أي شيء.

- أظنك ستكون منافسًا جيدًا لو فعلت.

كان الحفل ما زال في ذروته رغم اقتراب ملامح الفجر، جميع الحفلات في بومبيي صاخبة، حتى إن نيرون ذاته أعجبته الإقامة بها لبعض الوقت. كان يحتاج وقتًا يبتعد فيه عن روما حتى تهدأ قليلًا فيعود إليها وقد تخلّص من نفوذ أمِّه إلى الأبد.

***

-4-

فكذبوهما

هركيولانيُم - 59 للميلاد

الهدوء هو أكثر ما يميز مدينة هركيولانيُم على عكس بومبيي. يتوزع الأهالي ما بين العمل في الصيد والزراعة والحرف، بالإضافة إلى النبلاء الذين لا يعملون أساسًا بل يحكمون المدينة. معابدُ ضخمة ومكتبة رائعة وميناء جميل، الناس بسطاء إلى حدٍ ما، يلتزمون بالقوانين ويعملون بجد، وإن كان لابد من بعض المشاكل من حين لآخر، لكنها مدينة هادئة عمومًا.

كانت كروم العنب وحقول الزيتون تزيّن أطراف هركيولانيُم حيث التلال التي تستمرّ في الانحدار جنوبًا وصولًا إلى الميناء والبحر، كان بستان يوسيفْيُس السامري أحد هذه الكروم، يعيش في منزلٍ بسيط مع زوجته وابنتيه ليلي وفيبيا الصغيرة.

جلست فيبيا تلعب بالأصداف فتصنع منها عقدًا عندما لاح لها خيال القادمين من بعيد وأَلِفَت من بين الأصوات القادمة صوت أبيها فركضت إليه وتعلَّقت برقبته كعادتها في كلّ مرة يعود فيها من بومبيي أو نابولي.

ليلي التي كانت في السادسة عشر من عمرها تغزل الصوف الذي تجمعه من أغنامهم أو تشتريه من الجيران ثم تبيعه لجايوس النسّاج في شرق هركيولانيُم.

أمّا جَمع العنب والزيتون فكان مهمة العائلة بالكامل يتشاركونها كلّما أطلّ عليهم الصيف بمحصولٍ جيد، وكثيرًا ما كانوا يضطرُّون لتحويل العنب إلى زبيب. يعصرون الزيتون في معصرة داخل المدينة، فيبيعون الزيت لمتاجر الطعام بعد استبقاء ما يكفيهم للعام القادم.

قَدَّم يوسيفْيُس الطعام لضيوفه في جانب البستان حيث عرّشت أغصان الكرم المكان بشكلٍ جميل، ثم تساءل قائلًا بينما يقطع قطعةً من الخبز: ما الذي جاء بكما إلى هنا؟ إن هذه الأنحاء من البلاد لا تحوي إلا الضالين المُضلِّين..

بولس: إنما مقصدنا بلاد الضالين لنحمل إليها الإيمان.. نحن مأمورون بحمل هدى الله ودينه للعالمين، أتينا إلى هذه البِقاع لمحاربة الضلال والظلم.

يوسيفْيُس: هلا حدَّثتني عن المسيح يا سيدي..

بولس: لقد جاءنا بالحق من الله لمّا ضلَّت قطعان بني إسرائيل، آتاه الله المعجزات، وجعله نورًا في الأرض، حتى إذا أبوا إلا الكفر، رفعه الله إليه إلى أن يحين أمر الله، فيعود إلى البشر في نهاية الزمان هاديًا الناس أجمعين.

يوسيفْيُس: وبماذا أُمِرتُم؟

بولس: وهل يأمرنا الله إلا بما تستقيم له فطرتنا وتنسجم معه أرواحنا لنُعَمّر هذه الأرض بمشيئته؟

***

تقع ساحة النادي في منتصف بومبيي حيث مركز سطوة النبلاء وقلب المدينة النابض، كلّ الأعمال تبدأ من هنا، وكل العبادات تجتمع على

أطراف ساحته المستطيلة الكبيرة المزدانة بالأعمدة الأيونية والكورنثية. هناك في جنوب الساحة تتجمع المباني الحكومية يتوسَّطها مكتب العمدة ومساعديه حيث تُدار تفاصيل الحياة في بومبيي والتي من أهمِّها عقد الانتخابات الدورية.

إلي اليسار تظهر المحكمة، أو الباسيليكا كما اعتادوا تسميتها، حيث تُنصب المحاكم وتُناقش القضايا وتُعقد الصفقات والعقود التجارية أيضًا. ساحة النادي هي أيضًا تَجَمُّعٌ كبير لمعابد الآلهة، فذلك الذي هناك بجانب الباسيليكا هو معبد جوبيتر سيد الآلهة الرومانية إله السماء، وذلك الذي في شمال الساحة هو معبد أبولو، وهو الإله الذي أعجبهم من آلهة الإغريق فبنوا له معبدًا.

تستغرب أحيانًا من تعدد الثقافات الذي تراه في الدولة الرومانية بسبب اتساع الدولة واحتلالها الكثير من البلاد في آسيا وأوروبا وأفريقيا، ولذلك ستجد في آلهة الرومان العديد من الآلهة الوافدة من الحضارات الأخرى كأبولو من اليونان وإيزيس من مصر.

هناك أيضًا التنوع الشديد في المباني وأساليب البناء الوافدة من كلّ أنحاء الإمبراطورية، الخرسانة الرومانية جنبًا إلى جنب مع البناء بالطوب الطيني والأعمدة الرخامية القادمة من اليونان، حتى إنهم كانوا يقلّدون الأشكال والنحت الإغريقي بالرسومات والمنحوتات الجصّية. لقد كانت الدولة الرومانية نموذجًا على تأثير التنوّع الحضاري والعولمة في الحضارات القديمة.

وقف بولس على مصطبةٍ مرتفعة من الطوب مقابل معبد جوبيتر، استجمع رباطة جأشه، وملأ صدره بالهواء قبل أن يخرجه بزفيرٍ أفرغ

فيه كلّ توتره وهو يقف في قلب نادي بومبيي، قبل أن يقول بصوتٍ قوي:

أيها الناس، يا أهل بومبيي العظيمة، هلّا استمعتم إلى ما أقول لعلّكم تجدون فيه ما تُقَوِّمون به دنياكم وآخرتكم..

إني أنا بولس، عبد الله ورسول عيسى المسيح، كلمة الله التي ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة، خلقه وطهّره وبعثه بالحق نبيًّا ورسولًا، ثم رفعه إلى السماء حتى يحين موعدٌ لا يخلفه سبحانه أبدًا، سلامٌ عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا..

أيها الناس، إنكم قد غرّكم الشيطان وأغراكم بالشهوات والفجور والكفر فأضلّكم ضلالًا كبيرًا، وإنّ الله قد أمرنا بنشر الحق لنلقيه على مسامعكم فننذركم جحيمًا ينتظركم يوم يبعث الله الخلائق فلا تجدون وليًّا ولا نصيرًا.

أيها الناس، إنّما إلهكم إله واحد، كأنّي بِكُم قد تركتم عبادة الخالق الواحد الأعظم وتفرّقت بكم السبل بين آلهة لا تضرّ ولا تنفع، فارتضيتم أن تُذِلُّوا أنفسكم في محاريب المعابد التي عمَّها ظلام الكفر.

أيها الناس، اذكروا نعمة الله إذ مَنّ عليكم فابتنيتم أعظم المدن وأعلاها شأنًا، ورزقكم من الطيبات والنِعم ما أغناكم عن العالمين، فإذا بكم تكفرون بنعمه وتنشرون الفجور والبغاء بين البلاد، تُشرِّعون الفاحشة والزنا وتتاجرون بالأعراض، تمتهنون بذلك مهنةً لا ترضاها إلّا الشياطين. أما إنّنا والله جئناكم لنشر الحق ودين الحق بأمر الحق، فاسمعوا منَّا إنَّا إليكم ناصحون.

تعالت الأصوات المنددّة المستهجنة لقوله "ما هذا الهراء الذي يتحدث به ذلك الغريب"، "من هذا الرجل.. من سمح له بالخروج علينا بهذا الكلام"، "انزلوه من هناك.. "

امتدّت أيدي المحاربين الرومان والعبيد لتنزله عن المصطبة التي يقف عليها فسقط على الأرض وشُجّت جبهته لتسيل منها الدماء. لم يستطع بولس النهوض وكاد أن يُداس تحت أقدام المُتجمهرين لولا أنّ رجلًا كبير السن والمقام أوقفهم بيده قائلًا:

"مدينتنا لا تضرب ضيوفها، بومبيي تتسع لكل البشر بعباداتهم، فما بالكم تقتلون رجلًا على قول يقوله ويراه حقًا؟ إن كان كاذبًا فعليه إثمه وإن كان صادقًا يصِبكم ما يتوعدكم به."

ثم التفت الرجل إلى بولس قائلًا "إن شئت الإقامة بيننا فلا شأن لك بآلهتنا ولا أخلاقنا، يمكنك أن تفعل ما تشاء غير أننا لن نسمح لك باعتراض طريقنا وأعمالنا، هذا هو قانون هذه البلاد. ولو شئت رأيي فإن الرحيل عن هنا هو خيرٌ لك إذ إنني لا آمنهم عليك بعد الآن"

***

بومبيي - 61 للميلاد

كانت الشمس تغرب في الأفق خلف أسوار بومبيي حيث تحتضنها البوّابة المسقوفة ثلاثية المداخل التي تقود إلى مدينة هركيولانيُم.

هذا هو الوقت الذي يقوم فيه حراس المدينة بإشعال المصابيح والمشاعل في جميع أنحاء بومبيي قبل أن يلفّها الظلام، يتبعون ذلك بإغلاق البوابات الضخمة الموزعة على امتداد الأسوار.

لمح أحد الجنود في أعلى السور رجلين مسنَّين أحدهما يسير على قدميه والثاني يركب بغلًا صغيرًا رماديّ اللون تغيّر لونه مع شفق الغروب إلى البنِّي، هز كتفيه غير مكترثٍ برحيلهم في هذا الظلام ثم عاد إلى عمله في إشعال المصابيح.

كان الرجلان قد خرجا من البوابات قبيل إغلاقها حيث لا يبيتان فيها أبدًا، لا يتجرَّأ أحدٌ على إيوائهم على أية حال، يأتيان مرة أو مرتين في الأسبوع، أما بقية الأيام فيقضيانها طوافًا في المدن والقرى المجاورة.

مرّ عامان من الدعوة إلى الله وهما يجاهدان لإقناع الرومان بالعدول عن كفرهم وفجورهم. تملَّك منهما التعب وهما يتنقلان ما بين هركيولانيُم وبومبيي، وأرهقتهما المسافات التي قطعاها بين ستابيآي ونيوسيريا في الشرق ثم ميسينيام ونَابولي في الساحل الغربي، ضاعا بين التلال، وتعرّفا على الطرق الجبلية وحفظاها، فوجدا فيها الراحة بعيدًا عن المدن التي غصّت بعذابات المؤمنين. كان الألم والقهر يعتصر قلبيهما وهما عاجزان عن نجدتهم ونصرتهم بغير الدعاء، إلا أن ما كان يهوّن عليهما الأمر أنهما وجدا بعض الأصدقاء في القرى المحيطة ببومبيي، فآمن لهما العديد من الفقراء والعبيد.

كانا يقضيان بعض الوقت في منزل يوسيفُيُس الذي آمن بدعوتهم فكان عونًا لهما هو وزوجته وابنتيه.

الشمس غابت، والطريق مظلمة إلا من ضوء المصباح الذي أشعله لوقا ليدلّهما على معالم الطريق إلى هركيولانيُم. قال لوقا لرفيقه في قلق: هل شعرت باهتزاز الأرض بينما كنّا نتحدث إلى الحدّاد عصر اليوم.

التفت إليه بولس قائلًا: لقد ظننتني واهمًا يا لوقا.. هل ارتجفت الأرض حقًا؟

عقد حاجبيه بشدّة قبل أن يقول: هل تظنّ أن الله سيصب غضبه على الرومان وقد تمادوا في غيِّهم وكفرهم ومجونهم. أن يخسف بهم الأرض؟.

- يستحقّون عقاب الله.. يستحقّونه، لكنني والله أرجو أن يمهلنا الله بعض الوقت.

تنهّد بولس وقال: أجارنا الله من غضبه ... أجارنا الله من غضبه..

صمت قليلًا ثم قال: وصلتني رسالةٌ من بطرس يخبرني أنه في طريقه إلى هنا يتعقّب أثر سيمون الخبيث، لم أعرف أن سيمون في روما قبل أن تخبرني الرسالة بهذا، لم أثق به أبداً حين التقيته في السامرة، لقد كاد بطرس يقتله هناك.

- هل قال إنه سيذهب إلى روما مباشرة؟؟ أم سَيَعرج على هذه الأنحاء؟
- لا أدري يا صديقي، لم يذكر شيئًا سوى أنه قادمٌ إلى هنا.
- وددت لو ذهبنا إلى روما قريبًا، ولكن يبدو أننا سنبقى هنا لفترة غير معلومة، لعلنا نذهب في العام القادم أو الذي يليه ربما.
- ربما يا صديقي، إنها مشيئة الله في كلّ الاحوال، دعنا نسرع، لقد تأخر الوقت كثيرًا.

***

الشمس تشرق من بين التلال مضفيةً ألوانها الذهبية على كرم العنب، بينما تسلل الدجاج خارجًا من حظيرته بعد ليلةٍ باردة سامحًا لـ لِيلِي أن تجمع البيض من تحته. لازالت فيبيا على غير عادتها تغطُّ في نومٍ عميق

رغم أنها وعدت ليلي بالاستيقاظ باكرًا والذهاب معها في رحلتها إلى قلب مدينة هركيولانيُم حيث تبيع خيوط الغزل التي صنعتها لجوليوس النساج.

ليلي الجميلة التي ورثت عن أمها بشرتها الحنطية وعينيها العسليتين أصبحت في الثامنة عشر، تُمضي يومها في رعاية الحيوانات وغزل الصوف بمغزلها الخشبي الصغير، وتساعد أمها في تحضير الجبن القروي من حليب الماعز الذي تعلمّت فيبيا حديثًا كيف تحلبها لتخفِّف بعض الأعباء عن أمّها.

هركيولانيُم مدينةٌ هادئة، وحين تدخلها في الصباح الباكر بعد أن ينام المحاربون والنبلاء العابثون في ليلهم الطويل لن تجد في الشوارع المرصوفة الهادئة غير العمال الفقراء والعبيد.

اقتربت من دكان داما الحلاق صديق أبيها وكانت تحمل له كالعادة بعض العنب. سمعته يقول "يا مرحبا بالجميلة الصغيرة وهداياها، اجلسي نتناول العنب معاً ". ابتسمت بخجل قبل أن تقول:

لا أستطيع يا عم، أريد أن أنهي مهمَّتي بسرعة. وَعَدْتُ أمي أن أعود بسرعة لأساعدها في صناعة الجبن.

خرجت دون أن تبارح الابتسامة شفتيها، خفَّفت من سرعة خطوها عالمةً أن بروتُس داما سيلحق بها محافظًا على مسافة أمتارٍ بينه وبينها كما اعتاد أن يفعل منذ أشهرٍ خلت.

الحقيقة أنه لم يحدّثها يومًا أو يعترض طريقها، إنما كان يكتفي باللحاق بها حتى تصل إلى دكان جوليوس فيواصل هو سيره إلى درجات المعبد التي تمتد بطول الواجهة، يجلس هناك مستندًا إلى حافة تمثال جوبيتر

حتى تنتهي من فِصَالها مع النسّاج، فتُدير ظهرها عائدةً من الطريق ذاتها بخطوها الوئيد.

في كلّ مرّة كان يلمح شبح ابتسامتها من بعيد حين تلتقي عيناهما بينما هو ينتظر أعلى الدرجات، إلا أن الشك لا يلبث أن يداهم قلبه فيقنع نفسه بأنه يتوهم ما لمحه على محياها من ابتسام، إن هو إلا سرابٌ رسمه خياله لشيءٍ يتمنى أن يراه حقًا.

هكذا في كلّ شهر، ينتظر بروتُس رحلة ليلي المعتادة بلهفة لكي يراها ويشعر بحضورها، فيفرد عضلاته أمامها ليُشعرها بحمايته من بعيد، ثم يلمح ابتسامتها المفترضة فيهدأ قلبه قليلًا، ويصبر حتى يفي أبوه بوعده فيخطبها له.

"هيه داما.. بروتُس داما.. لم نعتد أن نراك في المعبد"، سمع صوتًا يناديه من الخلف فالتفت إلى صاحب الصوت الذي لم يكن سوى صديقه آنياس.

بهت وجه بروتُس لمرأى صديقه لأول وهلة قبل أن يقول: آنياس.. مرحبًا بك، أنا آتي دائمًا هنا، أنت الذي لم نعد نراك إلا نادرًا يا صديقي. يبدو أن السيدة تدلِّلُك كثيرًا في الآونة الأخيرة، أراك قد زاد وزنك.

"حقًا؟.. لم أنتبه لذلك" صمت قليلًا ثم قال: ألم نتفق على رحلة الشواء على الشاطئ منذ مدة؟.. لم نعد نراك بتاتًا، أنت لا تأتي للحانة ولا تحضر المباريات، أين تختفي كلّ هذا الوقت؟

كان بروتُس يسترق النظر إلى ليلي التي ابتعدت في طريق عودتها وفاته أن يلحق بها هذه المرّة فتنهّد قائلًا: أبي يترك الدكان بعهدتي كثيرًا

هذه الأيام، تعلم أنه أصبح كبير السن ولا يقوى على الوقوف لوقتٍ طويل.

قلَّب آنياس شفتيه بامتعاض ثم قال: بروتُس داما الحلاق، شيء مثيرٌ للاهتمام. لعلَّنا نسمع قريبًا خبر زواجك أيضًا ، دعنا نذهب في رحلتنا كما اتفقنا يا رجل.

- حسنا لا بأس، سنعدُّ العُدَّة ونذهب في نهاية هذا الشهر.. هل يرضيك هذا؟

- فليكن.. حسنًا، لا بأس. هل سمعت الأخبار التي تنتشر في المدينة؟.تقول السيدة أن هناك الكثير من المشاكل تبدو في الأفق، الجميع مترقّب.

عقد بروتس حاجبيه وهو يقول: لم أفهم.. عمّ تتحدث؟.

- العراف يقول إن ثمّة مشاكل في مسارات النجوم.. ألم تسمع بذلك؟ لم تسمع بالدين الجديد؟

- ما زلت تصدّق ترهات العرّاف، على كلّ حال يجب أن أذهب الآن.. إلى اللقاء.

كان يعرف جيدًا ما يتحدث عنه آنياس من مشاكل؛ لقد كان هو أول من رأى الغرباء الذين يسبون آلهتهم في منزل يوسيفْيُس.

الغريب أنه يصدّق كلامهم فعلًا، لكن أباه العجوز له رأيٌ آخر في خطورة الاندفاع وراء دعواتٍ مجهولة في مجتمع طبقي كمجتمع الرومان، لا بأس ببعض التروّي على أية حال، من يدري ماذا يخبئ لهم الزمن.

***

"لِيلِي.. لِيلِي "
تلفّتت لِيلي وهي تبحث بين أشجار الزيتون على ذلك الصوت الهامس الذي كان يناديها.
غربت الشمس منذ فترةٍ لا بأس بها لكن القمر الذي كان بدرًا لم يسمح للظلام أن يُكسب المساء وحشته المعتادة.
إنّه الربيع، تأسرها رائحة الياسمين في الليل فتخرج لتَنَشُّقِها وقد ساد الهدوء المنطقة بأسرها، لحسن الحظ أنهم يسكنون بعيدًا عن المدينة بكل تفاصيلها المرهقة.
كان بروتُس يختبئ بين الشجيرات على جانب الطريق الترابية المؤدية إلى منزلها. تلَّون وجه لِيلي باحمرارٍ لطيف وهي تقترب من مكانه متسائلةً عن سبب اختبائه "لماذا لا تدخل.. إن أبي في الداخل"
تردد بروتُس وهو يتأمّل ملامحها الرقيقة و قد حار جوابًا، لقد جاء لرؤيتها فقط، ربّما لو أُتيحت له الفرصة واستجمع شجاعته قليلًا لأخبرها بحبِّه الذي يكتمه منذ زمن، أو لعلَّه يخبرها على الأقل بعزم أبيه على خطبتها له في أقرب فرصة.
تأمّل عينيها الواسعتين اللتين تتلفتان بحثًا عن مهربٍ من نظراته المتفحِّصة فقال: لقد أعاقني فينيدياس عن اللحاق بك أمس.
زادت حمرة وجنتيها وهي تقول بخجل: هل كنت تلحق بي، لم انتبه لذلك.
كانت تكذب بالطبع، وهو يعرف ذلك أيضًا، يعرف خطواتها الصغيرة التي تتباطأ لتتيح له فرصة اللحاق بها، ويراها حين تنظر له خفيةً حيث يجلس على درجات المعبد.

قال بروتُس: ليلي.. أنا.. أقصد أن أبي..
كان يتمنى لو أن كلمة أحبك تطاوعه فتخرج من بين شفتيه مرةً واحدة، مرةً واحدةً فقط، لكنه وجد نفسه يقول بدلًا عن ذلك: إن أبي يقول إن هناك ضيوفًا عند أبيك.
لوهلةٍ ظنَّ أنه رأى بعض الخيبة في عينيها ولكنّها تماسكت وقالت: نعم تفضّل، سيكون أبي سعيدًا لو انضممت إليهم.
لعن نفسه وحماقته ألف مرة وهو يتجه خلفها إلى المنزل الريفي البسيط الذي يسكنه يوسيفْيُس، مدخله الصغير يؤدي إلى صالةٍ صغيرة لها بفتحةٍ في سقفها تظهر منها السماء التي أضاءها اكتمال البدر، ويتوسط أرضية الصالة حوضٌ غير عميق لاستقبال مياه الأمطار التي تتساقط شتاءً عبر السقف المفتوح.
صوت التراتيل الغريبة بدأ يتسرب إلى مسامعه من الجانب الأيسر للمدخل، حيث الغرفة التي يستقبل بها يوسيفْيُس الضيوف.
يرتاح قلبه كلما أتيحت له الفرصة أن يستمع لكلماتهم، لطالما ذهب إلى المعابد في منتصف المدينة، غير أن همهمات الكهنة غير المفهومة لم تطرق قلبه بتاتًا وإن تظاهر بطاعة السيد الكبير الذي كان يملك أباه ذات يوم، ما زالت التقاليد تقضي بطاعته لوليّ نعمته وسيده السابق حتى بعد أن نال حريته. إنها عبوديةٌ أبديةٌ لا تنتهي إلا ظاهريًّا.
اقترب من باب الغرفة حيث تركته ليلي واقفًا وذهبت إلى مكانٍ ما من المنزل. وقف متسمّرًا يستمع لتلاوتهم الغريبة فلم ينتبه إلى كونه قد أصبح في مجال رؤيتهم.
"بروتُس.. تعال يا بني.. منذ متى أنت هنا؟"

هكذا وبهذا النداء من يوسيفْيُس كان عليه أن يطرح أفكاره التي تعصف برأسه جانبًا ويدلف إلى الحجرة حيث جلس ثلاثتهم بولس ولوقا ويوسيفْيُس.

توقّف بولس عن تلاوة ما بين يديه من أوراق ونظر إليه هادئًا مبتسمًا. لم يكن بروتُس يدري لماذا يشعر بالألفة نحو هذا الرجل الأصلع، شيءٌ ما في ابتسامته وعينيه السوداوين الصغيرتين يخترق أعماق روحه ويبث فيها طمأنينةً غريبة.

- اجلس يا ولدي، تفضّل.. كيف هو العجوز داما أبوك؟

- بخير حال يا عم.

ساد الصمت لفترة وجميع العيون معلقةٌ ببروتُس يُطِلُّ منها التساؤل في انتظار ما سيقوله عن سبب زيارته لهم اليوم، الحقيقة أنه هو ذاته لم يعرف بم يجيب تساؤلاتهم.

ما زال بولس مبتسمًا وكأنه يدرك ما يعتمل في صدر الفتى من تقلّبات، قال منقذًا له من حيرته:هل أتيت لتسمع منا ما نقوله للآخرين؟

- نعم.. نعم، لماذا توقفتَ عن التلاوة؟ أريد أن أسمع منك.

أسعدته نظرات الرضى التي لاحظها في عيون الرجال وهم يرحِّبون به ثانيةً ويفسحون له مكانًا بينهم.

غريبٌ أمر الحياة، لقد جاء إلى هنا مشدودًا بشوقه للجميلة ليلي، فأقحم نفسه فيما لم يحسب له حسبانًا من قبل، أو هي الأقدار التي ساقته رغمًا عنه ليستمع لكلام الله فينشرح له صدره بنورٍ خفي لم يعهده من قبل.

في ذلك اليوم كان بروتُس يخطو خطواته الأولى في طريق الإيمان. كان حائرًا فيما سيقوله لأبيه العجوز الذي منعه من الاتصال بضيوف

يوسيفُيُس، لعله سيضطر لإخفاء الأمر عنه قبل أن يستقر هذا الدين في فؤاده جيدًا.

كان يقول لنفسه مُطَمْئنًا "والدي ليس سيئًا، أنا أدرِك أنه يصدِّق الرسل، لكنه يخاف عودته للعبودية من جديد. لقد أثقل الرقّ كاهله لسنين طويلة وما زالت آثاره تحفر القهر على تجاعيد وجهه، هو فقط يخاف علينا أن نحيا ذلَّ الحياة التي أمضاها في قيود السيد، ولأجل خوفه هذا لن أخبره الآن شيئًا."

***

-5-

النظرية

غزة - 15 كانون ثاني 2016م

أولا يجب أن يكون لديك نظرية لإثباتها، أنت لن تنطلق من الفراغ دون هدف. لابد من طريقٍ تسير فيه حتى وإن كان هذا الطريق غير واضح المعالم. في لحظةٍ ما، وبطريقةٍ ما، ستجد نفسك مرغمًا على تعبيده مهما بدا لك الأمر صعبًا. ثم إن وضوح الطريق يكمن في وضوح الهدف.

كانت النظرية قد بدأت تتشكل في عقلي الباطن مع كلّ معلومةٍ تترتب بجانب سابقاتها فتزيل الضباب الذي يلفّ الأفق وتحطم العقبات التي تسدُّ الطريق.

"جايوس بلينيوس سَكَندوس" أو كما يعرف بـ "بليني الأكبر"، تمييزًا له عن ابن أخته بليني الأصغر المؤرخ الروماني المعروف. و جايوس هذا، كان أحد الأشخاص الذين لفتوا انتباهي بشدة في قصة بومبيي؛ قصة ذهابه إلى هناك كانت عجيبة، والأعجب منها قصة موته. لا أحد يعرف إلى الآن كيف مات بالتحديد، فلم تبدُ عليه علامات الاختناق أو الإصابة بجروحٍ من قِطَع الخُفَّاف المتناثر التي يقذفها البركان. بعض المؤرخين المُحدَثين افترض أنه مات بالسكتة القلبية، كان كبيرًا في السن وربما لم يحتمل قلبه هول البركان، هكذا افترضوا.

كنت أستغرب معلومةً قالها ابن اختـه بليني الأصغر في رسالته إلى تاسيتوس بعد سبعةٍ وعشرين عامًا من الحدث. لقد قصّ عليه في هذه الرسالة كيفية وفاة خاله إثر ذهابه لإنقاذ من يستطيع من أهل القرى المنكوبة. وصف بليني الأصغر جثَّة خاله التي أحضرها بعد ثلاثة أيام من انتهاء الكارثة بقوله "لم يبدُ عليه آثار الاختناق أو الإصابات، لقد بدا كما لو كان نائمًا."

بليني الأكبر كان عالمًا رومانيًّا وأديبًا وقائدًا للأسطول الروماني في البحر المتوسط، تنقَّل في العديد من مدن العالم الشرقي والغربي، زار بلاد الشام واليمن، وله مؤلفاتٌ عديدة لم ينجُ منها إلا موسوعة تاريخ الطبيعة. حكايته مع البركان لم تصل إلى المراجع إلا من رواية ابن اخته، والذي جمع المعلومات الخاصة بموته من أحاديث الناجين ممن صحبوه في رحلته الاخيرة في الحياة.

لماذ أهتم بأمره؟ هذا هو بيت القصيد. عرفت قصته للمرة الأولى من فيلمٍ وثائقي كان يتحدث عن اليوم الأخير لبومبيي قبل أن يدفنها البركان، صوَّروه على أنه عالمٌ جريء، قتله فضوله العلمي. لكن قصَّته الملفتة جعلتني أبحث عنه بشكلٍ مكثّف، لأنني ولسبب لا أعرفه وجدته يرتبط في ذهني بالرجل المؤمن في قصة أهل القرية المذكورة في سورة يس. لم أعرف سببًا لهذا الربط ولكنّ خيالي صوَّر لي الأمر بهذا الشكل.

وجدت خلال بحثي عن معلومات تقودني إليه أنه ارتحل إلى بلادٍ كثيرة من بينها اليمن والجزيرة العربية ومصر، وبلاد الشام التي كانت تحت وصاية الدولة الرومانية في ذلك الوقت، رغم أن الحكم الظاهري في فلسطين كان لليهود.

شخصٌ كهذا لديه من الفضول ما يدفعه للاقتراب من بركانٍ يثور لابد وأنه بحث في مِلَل الأقوام التي يزورها وعاداتهم وديانـاتهم. إن غالبية كتاباته لم تصل إلينا، وهو أمرٌ مثيرٌ للاهتمام والريبة في الوقت نفسه، معظم المؤرِّخين الذين كتبوا عن تلك الأزمان كانوا من الوثنيين أو اليهود، وبالتالي تنقصني الثقة بما نقلوه من أحداث عن فجر النصرانية.

لقد كان زمن ارتحال بليني إلى بلاد الشام هو ذاته زمن ظهور المسيح وصعوده إلى السماء، ولابد أنّه عايش هناك الصراع المحتدم بين الدين المسيحي واليهود في ذروته، ألا تلفت هذه الأحداث انتباه عالمٍ فضولي مثله؟

***

كان ابني عبد الله يشبه أخي ضياء كثيرًا، ولست أقصد التشابه بالشكل إنما التشابه في الروح والبراءة وطيبة القلب، والعصبية أيضًا.

في كلّ موقف كنت أواجهه مع عبدالله كنت أتذكر ضياء ومواقفه مع أمي، وما أكثر ما كان يقودني إلى الجنون بعصبيته وصراخه الذي ينساه بعد دقيقةٍ واحدة، تمامًا كما كان ضياء يفعل بأمي.

أما حميد فكان يشاركني اهتماماتي البحثية وهو أول من شرحت له نظريتي في تفسير سورة يس، وكنت أعهد إليه أحيانًا ببعض المهام كأن يَعُدَّ الحروف والكلمات في الآيات استعدادًا للبحث في حساب الجُمّل.

قلت له شارحةً الأمر: أولًا عليك أن تسجّل رقم الآية وعدد حروفها وعدد كلماتها، تأكد من العدد جيدًا، حرف الواو يُعدّ كلمة، وعدد الأحرف في الكلمة هو كما تراه مكتوبًا في المصحف بالرسم العثماني لا كما تلفظها، مثلًا يس كلمة واحدة من حرفين وليست ياسين. كنت أعيد

عدَّ الكلمات خلفه لأن لدي وسواسًا قهريًّا لا أستطيع التخلَّص منه في موضوع الأعداد بالذات.

على كلّ حال لقد حصلت في النهاية على قائمة من الآيات تبدأ من أول كلمة في السورة يس وصولًا إلى كلمة "خامدون" ودوَّنتُ مقابل كلّ آية عدد الكلمات والحروف التي تكوِّنت منها.

لماذا خامدون بالذات؟ لأنها توثِّق لحظةً زمنيةً فارقة قد تحتمل تأريخ لحظة دمار المدينة، هذا ما فكَّرت به.

ظللتُ أنظر إليها لعلِّها تُلهمني الخطوة التالية. أعدت قراءة الآيات ثانيةً فاستوقفتني آيةٌ جعلتني أشعر بقشعريرة شديدة.

"انَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ"

هل هذه رسالة من الله؟ هل هي أمرٌ بالبحث في هذا الصدد؟ أن نحصي الكلمات أو الأحرف أو الآيات في القرآن الكريم لتخبرنا شيئًا ما أخفاه الله عنّا إلى أن نصبح على استعداد كافٍ للفهم؟.

هل ذكر الله القصة الحقيقية لأهل القرية بين الأسرار الخفية في كلمات القرآن؟.

كنت أقول لنفسي أن أهل بومبيي كانوا مثالًا عظيمًا على الموتى الذين تركوا آثارًا بيّنة على ما لاقوه من عذاب، ثم أحيى الله ذكراهم بعد سبعة عشر قرنًا من دفنهم تحت الرماد. تابعت القراءة فوجدت الله يقول "واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون..."

هل كانوا مثلًا يُضرب على الآية السابقة؟.

***

طَرِيقُ الخَلاص

النّصِيحة الثالثة:

لا تُصَدِّقني

لا تُؤمِن بِما أقُول

خَذْ مُصحَفًا واجْمَع الأرقَامَ خَلْفِي،

فَجَلَّ مَن لا يُخْطِئ

***

واعلم بأن السُّبل الممتدة أمامك ليست مفروشةً بالورود، وأنه هناك على جانبي الطريق ينتظرك طرفي النقيض من البشر، بعضهم لا يرى الحياة إلا في ظل القيود التي ألقيتها خلفك مع رواسب التيه، والبعض الآخر يرفض نقاء الفطرة التي تحملها في خافقك، لا يحبّها، لا يريد أن يألفها. وكلاهما يرفض الاستماع إليك، كلاهما لا يريد لك مواصلة الطريق بلا ألم، وكلاهما يرفض مصاحبتك فيها كأنك لعنةٌ هَبَطَتْ عليه من العدم.

وحين تتيقّن أنهم لا يريدون لك الوصول، تصَبَّر قليلًا واهدأ بالًا ولا تبتئس، ثم أغمض عينيك عنهم واستمرّ في التقدم إلى حيث النجاة التي تنتظرك في الآفاق البعيدة. إنهم خَبَثٌ يا صديقي فلا يحزنك ما يفعلون.

***

-1-

فعززنا بثالث

بومبيي - 62 للميلاد

ينبع إصرار البشر على محاربة دين الحق من أمرين؛ المصالح الشخصية والكِبر. فالمصالح التي ترتكز على ضياع الأخلاق والفطرة البشرية السليمة لا تتفق مع الدين الذي يقوم في أساسه على رقيّ البشر والسموّ بأخلاقهم. أما الكبر، فإنه يصور لأصحابه أن لا حقَّ إلا ما يرونه حقًا وأن لا دين إلا ما يتبعون. فكيف إذا تبيّن لهم أن دين الله يدعوهم للمساواة بين السادة والعبيد؟.

وعلى هذه الحال اجتمع في قوم بومبيي الكبر مع الإضرار بمصالحهم القائمة على تجارة البغاء في أوسع صورة عرفتها الإمبراطورية الرومانية على الإطلاق. لقد كانوا محط ترحال النبلاء الرومان الباحثين عن المتعة بعدما حرّم الإمبراطور أغسطس الزنا بين الأحرار وأصدر قانونًا يجرِّمُه بعد خلافه الكبير مع يوليوس قيصر إثر علاقته بكليوباترا. وهكذا أصبح البغاء مقنَّنًا لكي يُتاح الزنا للنبلاء الرومان دون مخالفة القانون، وكان جلُّ العاملين في هذا المجال من العبيد.

كان أمر هذا الدين يُقلق سادة بومبيي بالفعل، ظهر هذا جليًّا في اجتماعاتهم المتكررة للبحث عن حلٍ لإيقاف بولس عن نشر الدعوة لدينٍ يحضُّ على الطهارة في الدولة الرومانية.

اجتمع بالِبيوس، وهو أحد الذين تزعَّموا هذه المؤامرات، مع بعض النبلاء في منزله الضخم، يذرع الصالة جيئةً وذهابًا بتوترٍ ملحوظ قبل أن يلتفت إليهم قائلًا:

لم يعد الأمر محتملًا يا سوريتشي، سبُّوا آلهتنا، سخروا من عقولنا، وتمادوا في انتقاد أخلاقنا، هذا يفوق الاحتمال بالفعل. إن تجارتنا تتراجع، زوّارنا يتناقصون ويهربون من بومبيي، أقاويلهم التي يدّعون أنها من عند الله تؤذيني، لا أستطيع أن أصم آذاني عنهم. فلنطردهم من المدينة يا رجل.

سوريتشي: لا يوجد في كلامهم أي جرم في قانوننا، وأظن أن أي فعلٍ نقوم به لمحاربتهم قد يُغضب الإمبراطور، لقد رأيت ما فعله بعد شجارنا مع أهل نيوسيريا على الألعاب.

بالِبيوس: لا أظن ذلك، نيرون سيتأذى منهم أيضًا إن سمعَ كلامهم، أنت لا تعرفه بعد، لدينا بوبيا أيضًا ، زوجتي صديقةٌ قديمة لها، تعرفها قبل أن تتزوج وتترك بومبيي إلى روما، أظنها تستطيع التأثير على نيرون وتقنعه بقتلهم أو طردهم من البلاد.

قاطعهم بروكولوس قائلًا: في كلّ الأحوال نحن لا نعلم متى يأتون أو كيف يدخلون المدينة، يظهرون بغتةً في النادي يحدّثون الناس بكلام جميل، ثم ألم تَرَ كيف أنهم استطاعوا شفاء كايوس فونا من آلام عظامه فقام يركض كما لو كان شابًا في العشرين؟.

بالِبيوس: هذا سحرٌ يا رجل، لا تُعظّم من أمرهم ودَعَك من هذا الهراء، الكثير من السحرة والأطباء يقدرون على أكثر من هذا. فونا فقيرٌ على

أي حال ولم يملك يومًا المال لكي ينفقه على العلاج، هذا كلّ ما في الأمر.

سوريتشي: قلبي يحدِّثني أن نتركهم وشأنهم يا بالِبيوس، نحن لا نأمن سحرهم.

شعر بالِبيوس بالدوار: ما هذا.. ما الذي يحدث.. أشعر باهتزاز في الأرض والجدران.. ماذا حدث..

سوريتشي: أي اهتزاز.. عم تتحدث؟.

بالِبيوس: ألم تشعروا بشيء، ربما.. لعلّي أفرطتُ في الشراب فقط.

***

"هذا الأمر يقتلني، هؤلاء الأوغاد، سكان روما القذرون.. لماذا يحبّونها إلى هذا الحد "

كانت بوبيا تحدِّث نفسها في حديقة القصر وقد زاد حنقها وكرهها لأوكتافيا بعد رؤية أهل روما يلقون أكاليل الزهور على تماثيلها في الساحات العامة..

كان نيرون قد أوفى بوعده لها وتزوّجها بعد أن طلق كلوديا أوكتافيا خلال وقتٍ قصير بعد عودته إلى روما. لقد أجزل العطايا لمجلس الشيوخ وقادة الجيش فأقنعهم باستحسان قتل أجريبينا التي كانت تتدخل في إدارة الإمبراطورية.

جلست تتطلع إلى السماء في شرود وتُحَدِّث نفسها عن الخطوات القادمة التي ستتَّبعها للتخلص من أوكتافيا.

سرحت بخيالها قليلًا تتذكّر كيف أغوَت نيرون فأجبر زوجها السابق القائد الروماني أوثو على تطليقها منه. وكيف أقنعته بالتخلّص من أمه

المعترضة على طلاقه من أوكتافيا وزواجه منها. كانت تتطلع منذ البداية إلى الحكم، سوف تعمل جاهدةً لكي يجلس ابنها على سدة الحكم في يوم ما كما فعلت أجربينا مع نيرون، أوثو المغفل لم يستوعب عظم أحلامها وخططها.

تذكّرت كيف أنها لم تفلح بإقناع وصيفات أوكتافيا لكي يشهدن زورًا على ارتكابها الرذيلة، كيف جعلتهم يحبونها إلى هذا الحد؟ أوكتافيا الحمقاء السخيفة.

لقد ظلت تعذّب الوصيفات، تضربهم وتسجنهم بلا فائدة، إلى أن عَلِم نيرون بأمرهم فأنقذهم منها. وكوسيلة لتخفيف غضبها قام بنفى أوكتافيا إلى خارج روما حيث أسطول أنيكيتوس.

آها.. أنيكيتوس، تبسّمت في سرِّها بعد أن تذكَّرت ذلك البغيض المرتشي قاتل أجربينا، هذا هو الحل إذًا.. أنيكيتوس.

***

رفع حاجبيه متعجبًا من المدينة التي تحكم العالم وتسيطر على البحر بأكمله، بل وجيوشها تملأُ كلّ المدن التي زارها في رحلته من الشرق إلى أن وصل إلى هنا.. روما.

روما التي تفرض الحكام والقوانين على مصر ويهوذا واليونان وبلاد الغال والجرمان، روما صاحبة الكلمة العليا في الحروب بين الشرق والغرب والشمال والجنوب.

كان قد زارها سابقًا في بدايات رحلته لنشر دين المسيح، لكنَّه جاء هذه المرة لكي يبحث عن سيمون، ذلك الخبيث الذي يدعي النبوة مستغلًا جهل الرومان بالدين، لماذا يفعل ذلك؟؟ ربّما كان يبحث عن الشهرة أو

المال والنفوذ، ولكنه في كلّ الأحوال يتسبب في نشر الهرطقات والسحر باسم الدين. لا يمكن لبطرس أن ينسى ذلك اليوم الذي عرض سيمون فيه عليهم المال لكي يعلِّموه "سحرهم "، ذلك الأحمق يظنهم سحرة يشاركون الشياطين طقوسهم.

كانت روما كبيرة جدًا، وهو لا يضمن أن سيمون ما زال فيها لم يغادرها إلى مدنٍ أخرى، كيف سيتقصّى أثره؟..

بولس أيضًا لا يعرف طريق سيمون كما فهم من رسالته الأخيرة، غير أن بعض الأصدقاء أخبروه أن هناك كاهنًا يدَّعي أنه مبعوث الله لنشر دعوة المسيح في روما ويطلب منهم المال لدعمه، لابد أنه هو، سيمون.

على كلّ حال عليه الرحيل إلى حيث يلتقي بولس ولوقا ليتباحثا ما جد من أمور دعوتهما هناك في الجنوب. سيمكث هنا أسبوعًا أو اثنين لعله يعثر على سيمون ثم ينتقل إلى جنوب نابولي حتى يتمكن من لقاء بولس ولوقا هناك.

***

-2-

طائركم معكم

بومبيي - 62 للميلاد

هذا المجتمع قائمٌ بالكامل على العبودية. والعبودية أنواع: فأولئك الذين يقبعون في الطبقة الدُنيا من العبودية حيث يتاجرون بهم وبأجسادهم وأرواحهم كانوا هم الأساس في كلّ الأعمال في المدن الرومانية، هم الزرّاع والصنّاع والجنود وأدوات المتعة. كلّ الأعمال القذرة يؤديها العبيد كغسيل الملابس بالبول، والبغاء بكل أنواعه، والعمل في الحمامات العامة. لقد كانت كل أعمال الخدمة والحراسة وظيفة العبيد ومهمتهم؛ إنهم أدوات ليحيا هذا المجتمع المرفَّه.

أما المحاربون في المصارعات الرومانية فكانوا طبقة غريبة ما بين العبيد والسادة، حياتهم كلها قائمة على عافيتهم وأجسادهم. البعض منهم كان من العبيد بالفعل، يعيشون حياةً غريبة خالية من الاستقرار وبناء العائلات، يسكنون في سكنٍ كبير بالقرب من الملاعب والمدرجات. ربّما كانت قوتهم وأجسادهم محط أنظار جميع النساء، لكن ما الفائدة من ذلك ما داموا مقيّدين إلى هذه المهنة طوال حياتهم، لا أمل في أسرةٍ جميلة وأطفال يؤنسون وحدتهم في الكِبَر بدلًا العيش كالمتسولين و المشردين ما بقي لهم من عمر.

هناك طبقةٌ أخرى تقبع بين ما سبق وبين طبقة السادة الأشراف، إنهم العبيد السابقون، أولئك الذين قضوا فترة من حياتهم كعبيد ثم رأى مالكوهم أنهم يستحقون الحرية مقابل ما قدّموه من خدمات فمنحوهم حريةً اسمية، حريةً مشروطة لا تجعلهم يصلون بالطبع إلى رتبة المواطنة الرومانية. الحقيقة أن تبعيّتهم المعنوية لسادتهم تظلّ طوقًا حول رقبتهم لا يخلعونه طوال حياتهم. بالطبع هم لا ينتخبون، لا يترشحون، ولا يُسمح لهم إلا بممارسة المهن التي يترفع السادة عن القيام بها، كمصانع النبيذ والأسماك المجففة وصلصة السمك أو إدارة الحانات ودور البغاء والمغاسل.

السادة لا يعملون طبعًا، لأنهم سادة ولا يليق العمل بهم، يديرون أعمالهم وتجارتهم وأملاكهم من أعلى الهرم عن طريق العبيد، فالعبيد هم عماد الحياة في هذه البقاع.

***

"إلى أين تأخذونها.. انتظروا.. اتركوها.. جوليا.. دعوها "

تلقى ضربةً على ظهره فسقط على الأرض وشعر بوخزةٍ حارّة في فخذه أقعدته عن الركض وراءهم وهم يختطفون زوجته الشابة، قادوها بعيدًا وقد ربطوها بالقيود وهي تنتحب وتصرخ بكلمات بلا معنى.

لم يستطع النهوض ثانيةً، وكانت الدماء تسيل بغزارة من جرحه الذي أصيب به للتو بسيف أحد الجنود.

هذا نوعٌ جديدٌ من العبودية، يكفي أن تؤمن بالمسيحية لكي يُستباح دمك وعرضك ومالك وتصبح متاحًا لأي قويٍّ يحاول تملّكك. لا يؤمن هنا إلا الضعاف والفقراء، ولذلك أصبحوا مستباحين للجميع.

"أين تأخذون السيدة.." قال لوقا الذي كان يمرُّ في هذه الأنحاء مصادفةً.
رد أحد الجنود بسخرية: ها قد جئت أيها الغريب.. ما شأنك بها.. تراكمت عليهم الديون وسنأخذها للعمل في اللوبانارا.. هل تعرف اللوبانارا أيها الغريب، يمكنك أن تزورها هناك.
واللوبانارا هذا لمن لا يعرفه هو أكبر دور البغاء في بومبيي، المركز الرئيس لمتعة النبلاء. كانوا يجبرون من يتّبع المسيحية من الضعفاء على العمل هناك.
قال لوقا برجاء: يمكنك أن تمهلهم بعض الوقت للسداد.
ضحك الجنود ساخرين قبل أن يقول قائدهم: أنت تعرف أن الأمر ليس بسبب الدَّيْن إنما هو حجّةٌ فقط. ألا تفهم، لقد أفسدتهم أيها الغريب، جعلتهم يتركون ديننا ويتكبرون علينا، انظر ماذا فعلت بهم.
- هذا ليس عدلًا اتقوا الله.
- من أنت لتحدثنا عن الله؟ ما أنت إلا رجلٌ غريبٌ جاء من بعيد ليفسد حياتنا.. ابتعد عن طريقي..
ترجّل عن فرسه متجهًا نحو الرجل الجريح الباكي على الأرض فطعنه في صدره متجاهلًا ملامح الصدمة على وجه لوقا والارتجافة التي سرت في أوصاله مع الصرخة التي أطلقتها السيدة المقيدة.
- اتقوا الله يا أهل بومبيي.. اتقوا الله.. قد يمهلكم الله على كفركم ولكنه أبدًا لا يمهلكم على ظلمكم.. بأي حقٍ تعتدون على الآمنين. بأي حق تسفكون الدماء وتنتهكون الأعراض.. اتقوا الله قبل أن يعجّل لكم بعذاب أليم..

كـان لوقـا يبكـي وهـو يتوعّـد سـكان بـومبيي بهـذه الكلمـات متجـوّلًا فـي الطرقات. لقد زادت اعتداءاتهم على المؤمنين في الآونة الأخيرة، ولم يكن بمقدور بولس أو لوقا الغريبين مساعدتهم إلا بالدعاء.

***

وقف نيرون ثملًا كالعادة يغني بصوته المزعج الذي يظنّه رائعًا ويدور فـي أنحـاء القاعـة راقصًـا مترنحًـا، بينمـا ترمقـه بوبيـا مـن بعيـد بعينـين ضيقتين وتنتظر اللحظة المناسبة.

- هلمي اليّ يا بوبيا، لماذا لا تشاركينني الشراب..

اقتربت منه في هدوء وهي تحاول أن تنتقي كلماتها جيدًا، لا أحد يخـاطر بإغضاب نيرون.

- أنا حزينةٌ يا سيدي، أسمع الكثير من الأقاويل وأخفيها عنك.

- عن أي شيء تتحدثين يا بوبيا؟.

- أحدهم يقول إنك مغتصبٌ للعرش، بعضـهم يجرؤ فيقول ذلك، يجهّز نفسه لعزلك معتبرًا نفسه صاحب العرش الحقيقي.

- أي هراء هذا يا بوبيا، كيف تتجرَّئين على قول هذا؟.

- يقول إنك دخيل على الملوك.

كان يبدو كالشيطان حين يغضب وكانت تعرف ذلك جيدًا. اقترب منها هائجًا وأمسك برقبتها حتى كاد يخنقها وهي تجاهد بشدّة لالتقاط أنفاسها..

- هذا ليس كلامـي يـا سيدي.. إنهـا.. إنهـا.. كلوديـا أوكتافيـا، انهـا أوكتافيـا التي.. التي تعدّك خا.. خائنا..

- كاذبة.. أنت تكذبين يا بوبيا..

- لا أكذب.. لقد أغرت أنيكيتوس للانقلاب عليك ... قدّمت لـه نفسـها علـى طبق من فضة.. وعدته بالزواج والعرش إن فعل..
- أنت تكذبين يا بوبيا.. هي لا تجرؤ... هذا كذب.. أنا الإمبراطور..
- توقعتُ أن تكون أكثر ذكاءً يا سيدي فتعرف أعداءك من مُحبِّيك.

كانت تسعل بشدة بعد أن أفلت رقبتها وهي تهنِّئ نفسها في داخلها على النجاة أولًا وعلى نجاح خطتها ثانيًا، لقد بدأ الشك يتسرب إلى قلب نيرون إلّا أن دخول الحاجب عليهما قطع الحديث الغاضب.

كان معه رجلٌ يلهث، سقط على ركبتيه وهو يحاول أن يقول كلماتٍ غير مفهومة، صرخ به نيرون مستفهمًا: من أنت.. ماذا كنت تقول؟.

قال الجندي لاهثًا:

سيدي.. إنها سفن الغلال.. لقد.. لقد ارتفع البحر في أمواج عملاقة.. لم أرَ شيئًا كهذا من قبل سيدي.. لقد غرقت السفن..

- عم تتحدث أيها الأحمق.
- سفن الحبوب القادمة من الاسكندرية.. لقد غرقت كلها في البحر.. مؤونة العام القادم يا سيدي.. غرقت.

كان أثر السُكْر قد ذهب من رأسه بعد حواره السابق مع بوبيا فاستوعب ما كان الرجل يتحدَّث عنه. نقل بصره بين الرجل والحاجب وبوبيا التي ما زالت تتحسس رقبتها في ركن القاعة.

رمقها ببرود قائلًا: سنؤجّل حديثنا الآن يا بوبيا سابينا.. تذكَّري أنني لا أسامح.. لا أغفر.. فلتتضرَّعي للآلهة كي أصدِّقك، لأن غضبي مريع.

خرج مسرعًا تسوقه مشاعر الغضب والتوتر والارتباك بينما علت ابتسامةٌ صغيرة وجه بوبيا النحيل وهي تقول في عقلها:

"ستصدّقني أيها الإمبراطور.. ستفعل بالتأكيد "

***

تجمهر الناس بهلعٍ شديد حول متاجر الحبوب في أنحاء روما كافة، كانوا يتشاجرون للحصول على أكبر كمية من المؤونة بعد شيوع نبأ غرق السفن المحملة بالحبوب في البحر. شبح المجاعة يطل بوجهه البشع على الرومان الذين لا يثقون حقيقةً في حكمة نيرون لإدارة مثل هذه الأزمات.

بدأ الشجار يأخذ طابعًا عنيفًا ومسلحًا بين الناس إلى أن أعلن نيرون فتح أبواب المخازن الخاصة بالدولة لعامة الناس ليتزودوا بحاجتهم من الحبوب.

كان هذا كفيلٌ بنزع فتيل الأزمة؛ اطمأنَّ السكّان لوجود ما يكفيهم من الغذاء في مخازن روما وتوقّفوا عن التدافع والشجار.

كانت الكارثة الأكبر قد حدثت في مكانٍ بعيد نسبيًّا عن روما، بل لقد كانت هي السبب المباشر في الموجات العملاقة التي أغرقت السفن.

هناك في اقليم نابولي كانت بومبيي المتنعمة بظل جبل فيزوفيس تتمايل مع الأرض التي تهتز وتتشقق مدمرةً المنازل والمباني فوق رؤوس أصحابها.

انتشر الخراب في كلّ مكان، الدمار يغطي كلّ شوارع بومبيي، ولولا الأنين المتصاعد بين فترة وأخرى من تحت الحجارة المكوّمة التي خلّفتها المباني المنهارة لساد الصمت المدينة مُضفيًا عليها هيبة المقابر.

رحل الجميع بسرعة ما بين قتيلٍ انتقل إلى العالم الآخر وناجٍ ترك بومبيي بما فيها ليحافظ على ما بقي له من أيام. أمّا أولئك الذين تركهم

سوء حظهم أحياء تحت الردم فما زالوا ينتظرون من يكتشف أنهم أحياء، ولربما اكتشفهم الموت فقبض أرواحهم قبل عودة الفارين من المدينة.

زلزالٌ مروّع ذلك الذي خسف بالمدينة الأرض فحوّلها إلى أطلال. هناك ما يقرب من ألفي قتيل ماتوا تحت الأنقاض في المدينة التي لا يزيد عدد سكّانها على عشرين ألفًا. لم ينتبه أحدٌ في روما للزلزال والكارثة التي حاقت بمدينة بومبيي، كانوا منشغلين بمواجهة كارثة غرق السفن وما تبعها من أحداث.

عندما عاد أهل المدينة لتفحص الأضرار وجدوا الأمر قد فاق التخيّل. لم يبقَ هناك ناجون بالطبع بعد ثلاثة أيام من الحادث، ولكن منازلهم كانت مدمّرة بالكامل.

كان السادة النبلاء يلقون اللوم على لوقا وبولس في غمرة هلعهم وحسرتهم على الدمار الذي استحالت له بومبيي.

- انهم شؤم، أولئك الغرباء القادمين من الشرق.. لن ندعهم يدخلون المدينة بعد اليوم.. فلنقتلهم.
- بل هو سحرهم الذي لا طاقة لنا به.. لا قدرة لنا على قتلهم، فلنتجنَّبهم.
- فلتحلُّ علينا لعنة الآلهة إن سمحنا لهم بالدخول ثانية.
- لقد تضرّر منزلي بالكامل..
- نحن محظوظون أننا خرجنا سالمين يا رجل..
- إنهم شؤم.. انهم شؤم.

كانت بومبيي في أسوأ حالٍ لها منذ إنشائها، اختفت معالم الشوارع وتناثرت الأحجار والصخور في كلّ مكان، البوابات، المعابد،

الحمامات، حتى الحوائط التي بقيت صامدة لم تنجُ من الصدوع. سيكون عليهم العمل ليل نهار حتى تعود بومبيي كما كانت.

على الجانب الآخر من جبل فيزوفيس كان بولس ولوقا في منزل يوسيفُيُس يتحدثان عن العقاب الإلهي الذي حل بمدينة بومبيي وما كان أهلها مدركين عِظَم هذا العقاب.

- إن هذا الذي هم فيه لهُو حق الضلال، كلّ ما فهموه أننا جلبنا عليهم الخراب، ولو علموا عِظَم ذنوبهم التي تزول منها الجبال لخافوا واتَّعظوا ولكنهم قوم مجرمون.
- هل سنرجع إلى هناك يا بولس؟.
- وهل لدينا خيار آخر، إنما هو قدرنا. ولكن دعنا نهجرهم قليلًا حتى تهدأ الحرب التي أعلنوها علينا. جلّ ما أخشاه أن ينال المؤمنين هناك عذابٌ عظيم. فليحفظهم الله.

***

-3-

أرقام

غزة - 24 تموز 2016 م

فيديريكا هي صديقةٌ لنا من إيطاليا، ترأس زوجي في العمل. كُنّا قد دعوناها لتناول طعام الغداء ذات يوم، وكانت تنظر إليّ بين الحين والآخر بينما نحن نجلس على طاولة الغداء، كأنها كانت تسبر أغواري لسبب ما لا أعرفه.

علمتُ من زوجي أنها مُلحدة، لا تؤمن بوجود الله. قال إنها جادلَتْه ذات مرة في خلق الله للكون، وتَعجَّبَتْ من إيمانه بأن الله قد خلق السماوات والأرض في ستّة أيام. قلت له وقتها: لماذا لم تسألها عن مفهوم اليوم؟. أليس اليوم عبارة عن دورة الجسم السماوي حول نفسه، وبالتالي يوم الأرض غير يوم الشمس غير يوم الكون، فما بالك بمقدار اليوم قبل خلق الكون؟.

كان رده أن المسألة لا تحتاج كلّ هذا الشرح فالله يقول في القرآن "وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ".

الحقيقة أن القرآن الكريم رغم بساطته الظاهرية، إلا أن القارئ له والمتدبّر لكلماته يكتشف كلّ يوم بعدًا آخر للكلمات والجمل التي تَنقل العقلَ إلى حدودٍ معرفيةٍ أخرى ربّما لم تخطر على بال القدماء للحظة، وهذه هي معجزة القرآن الكريم، أنت لن تعرف أبدًا ما يخبِّئه من أسرار،

لأنها ستظلّ مُختفيةً حتى يضع المستقبل لها تفسيرًا، وحتى هذا التفسير قد يختلف بعد مدةٍ زمنية مع تطوّر العلم لينتقل إلى مرحلةٍ أعلى.

لا أعرف لماذا أشعر بالحزن على أمثال فيديريكا، أعرف أنها طيّبة تقوم بالكثير من أعمال الخير، ولكنها ضائعة، شعرتُ بروحٍ مترددة تسكن في داخلها، ولا أظن اعتراضها وجدالها إلا من باب البحث عن طوق نجاة ينتشلها من هذا الضياع لكي تجد قيمةً ما لحياتها.

حَدث أن تحَاوَرْنا ذات مرة فقالت لي:

ما الفرق بيني وبينك؟ أعني أنني أقوم بعمل الخير لأشعر بإنسانيتي، وأنت تقومين بعمل الخير لأجل الله، في النهاية كلانا يقوم بالفعل نفسه ويقصد الخير، فما الفرق بيننا؟.

تملّكتني الحيرة قليلًا ثم قلت: ربّما يظهر الفرق عندما تضيق بي الدنيا فأرفع يديّ وأنادي يا الله وأسأله أن يساعدني، أفعل ذلك وكُلّي ثقةٌ في كونه يسمعني ويجيبني ويحميني.. هل لديك مثل هذا الشعور؟.

- للأسف ليس لدي هذا.
- حزينةٌ من أجلك، صدِّقيني، من المريح أن تعلمي أنك لست وحدك وأن هناك من يهتم بأمورك ويدبّر لك حياتك، شعورٌ بالأمان حين تفقدين كلّ معاني الأمان.
- هل تعرفين، عندما مات أبي تمنَّيت بصدق أن يكون لدي بعض الإيمان لكي أصدّق أنني سوف أرى أبي ثانيةً بعد الموت، أن أجد الثقة في كونه لا يذهب إلى العدم بل إلى مكان آخر ينتظرني فيه، لكنه أمرٌ صعب لا أجده في نفسي.

- أنا سعيدة الحظ إذًا، أعلم يقينًا أنني سألتقي بأبي وأخي وكل الراحلين في يومٍ ما. لذلك لا يبدو لي الموت مخيفًا، هو فقط نهاية رحلة وبداية أخرى.

كأنني لاحظت بعض الحزن في عينيها، إن في داخلها روحًا معذَّبة تحاول الوصول إلى طريق ما، وأنا أستشعر هذا بشدة.

يتساءل بعضهم لماذا أتعب نفسي بالتفكير والجدال معها، فلتؤمن بما شاءت لأنها لن تغني عنّا شيئًا، هكذا يقولون. أمّا أنا فأتساءل من أين يأتي هؤلاء بقسوة قلوبهم وتجاهلهم لعذابات الآخرين وحيرتهم. يمكنني أن أتجاهل ملحدًا غبيًّا أو متكبرًا يجادل على غير علم محاولًا الظهور بمظهرٍ المتمدن العصري، لكنني لا أستطيع بتاتًا تجاهل ذلك الذي يبحث عن الحقيقة ويحاول أن يفهم. لا تسألني كيف أعرفهم فأنت لا تؤمن بالتخاطر، ولن تصدقني إن قلت لك أنني ألمس أرواحهم وأفهمها، أحبهم ربما، والحب برأيي أن تحاول ما استطعت جذب أولئك الذين تلتقي مع أرواحهم إلى الجانب الذي تظنّ أنه الحق.

بعد شهر من هذه الزيارة كُنَّا نشاهد الأخبار تنقل صورًا لزلزال إيطاليا الأخير، لقد كان مدمِّرًا هذه المرّة. لاحظتُ أن الزلازل تعصف بإيطاليا منذ مدّة، لكنها ما زالت تحت السيطرة. كلَّمتُ فيديريكا التي كانت تقضي إجازتها عند أمها في ايطاليا، وكانت بخير.

أعادني هذا الحدث إلى زلزال بومبيي عام 62 للميلاد، ذلك الذي عصف بالمدن المحيطة ببركان فيزوف وكان تأثيره مدمّرًا فقتل ما يقرب من 10% من سكانها.

يقول علماء الآثار أن بعض المباني التي عثروا عليها في حفريات بومبيي كانت تحتوي شقوقًا وتظهر عليها آثار الترميمات التي قاموا بها لإصلاح الأضرار التي أحدثها الزلزال.

يقولون أيضًا أن السكّان اعتادوا على الزلازل والهزَّات الأرضية لمدّة ستة عشر عامًا لدرجة أنهم لم يهتمُّوا بتاتًا لتلك الاهتزازات التي سبقت ثورة بركان فيزوف عام 79 للميلاد. لم يعتقدوا للحظة واحدة أن هذه الاهتزازات قد تقودهم لحتفهم في النهاية وأن الأمر لم يكن بسيطًا أبدًا كما يظنّون.

***

أرقام.. أرقام.. أرقام

الكثير من الأرقام تدور في رأسي بحيث أصبحت أخطئ في الجمع والعدّ فأعود إلى بداية الآيات لأعدّ الكلمات والحروف من جديد.

كنت ضائعة، لا يوجد منهجيةٌ محدّدة بين يدي لكي أستند عليها في إيجاد الحل، أنا لم أبحث في كلمات القرآن من قبل، وهذه هي المرة الأولى التي أجرّب فيها البحث في الإعجاز العددي.

من أين أبدأ؟..

كنت أجمع الأرقام وأكتبها بشكل عشوائي على صفحات الكرّاسة الصغيرة التي وصلتْ إلى مرحلةٍ من الفوضى لم أعد أعرف فيها من أين جاءت هذه الأرقام أو تلك، وما الذي تمثله في الأساس. أزيح الأوراق عن ناظري بين فترة وأخرى وقد يئست من العثور على حلٍّ يثبت فرضيّتي. أجبرتُ نفسي على الاقتناع أنني لن أجد حلًا سريّا ولا رسالةً من الله أو لغزًا ينتظرني منذ أربعة عشر قرنًا لكي أحلّه. قد تكون

نظريتي صحيحة تاريخيًّا وقد تكون الآيات فعلًا تتحدث عن المدن الرومانية المدفونة، ولكن هذا لا يعني أن الله قد ذكر تاريخ ثورة البركان في القرآن كما ظننت، وليس شرطًا أن يكون حساب الجمَّل نظرية حقيقية تؤتي ثمارها في تفسير القرآن، ليس شرطًا أبدًا.

جولةٌ فاشلة في البحث تتلوها أخرى، وبعد كلّ جولة كنت أعود للآيات بلا وعي متناسيةً اليأس الذي ألمَّ بي قبلها.

أحد أسباب عودتي الدائمة لأوراقي وأرقامي كانت تلك الآيات التي تذكِّرني أن الله قد أحصى كلّ شيءٍ في إمام مبين ثم يتبع ذلك قوله تعالى "واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون"

من المفترض أن تكون قصة القرية مثلًا يُضرب على الإحصاء في القرآن الكريم، أليست هذه دعوة صريحة للبحث والاحصاء؟ هكذا كنت أظن، ولأجل هذا الظنّ كنت أعود إلى أوراقي وقوائم الآيات التي جهَّزتها وأعداد الكلمات والحروف التي انتثرت هنا وهناك.

في لحظة ما خطر لي أن أجمع تاريخ انفجار البركان، كما يفعل بسام جرار في حساب التواريخ، تلك التي قرأتها في أبحاثه عن زوال إسرائيل.

بدأ الانفجار كما تقول رسائل بليني الأصغر في منتصف نهار 24 أغسطس 79 للميلاد.

فلأجرب إذًا..

24/ 8 / 79 للميلاد

جمّل كلمة للميلاد = ل + ل + م + ي + ل + ا + د

144 = 4 +1 + 10+ 40 + 30 +30 =

يصبح لدينا حساب التاريخ كالتالي: 24 "اليوم" + 8 "الشهر" + 79 "السنة " + 144 "جمّل كلمة للميلاد" = 255

لحظة واحدة، هناك رقم 255 موجود بالفعل أمامي بين الأرقام المتناثرة على الصفحات، يبدو أنه نتج عن جمع الكلمات، هل حقًا سأجد حلًا حقيقيًّا للغز؟.

عدد الكلمات من نهاية القصة بعد كلمة خامدون الآية "29" إلى كلمة يخصمون في الآية رقم "49" يساوي 255.

لكن هذا لا يبدو منطقيًّا !

لو أنني أبحث عن تاريخ الصيحة فيجب حينها أن أبدأ عد الكلمات من بداية السورة حتى أتوقف عند كلمة خامدون، لأن القصة انتهت في هذه الكلمة، والعقاب انتهى وحل بالمجرمين عند نهاية الآية 29.

فلو أن الصيحة كانت بالفعل هي انفجار بركان فيزوف لوجب أن يتوافق التاريخ مع عدد الكلمات أو الحروف أو أي معادلة رياضية تنتهي بنهاية الآية 29.

عُدت للآيات من جديد وعكفت على عدّ الكلمات من بداية السورة إلى أن وصلتُ إلى لفظ خامدون، وجدت أن عدد الكلمات قريبٌ جدًا، 253 كلمة بفارق رقمين عن تاريخ انفجار فيزوف.

شعرت بالحماس بالفعل، رقمين فقط يفصلانني عن حل اللغز، ربّما لو كان الفارق أكبر من هذا لكنت توقّفت عن البحث واستسلمت لليأس، ولكن كَوْني قريبةً إلى هذا الحد من إيجاد اكتشافٍ جديد في الآيات جعل طاقتي تتجدّد.

عُدتُ للآيات مرةً ثانية، أعدتُ العدَّ من جديد بتركيز شديد، دققتُ في الرسم القرآني لعلِّي نسيت كلمةً ما أو حرفَ عطفٍ ربما، لكن النتيجة كانت دائمًا 253.

عددتُ الكلمات من نهاية الآية 29 إلى نهاية الآية 49 عند ذكر الصيحة الثانية فكانت 223، شرد ذهني للحظة وأنا أتساءل: ألم يكن عدد الكلمات قبل قليل 255 ؟ أعدتُ العدّ مرات عديدة وكان الناتج 223، وعلى فرض أنني أضفت إليها كلمات الآية رقم 50 فلن تصل أبدًا إلى 255.

كان ذلك مُربكًا، فمن أين أتى رقم 255 الذي عثرت عليه في خربشاتي قبل قليل؟.

بدأت أهذي وأعيد العدَّ مرة وأخرى وأخرى، وفي كلّ مرة أصل للنتيجة ذاتها:

عدد الكلمات من بداية السورة إلى الآية 29 يساوي 253، وعدد الكلمات من بعد الآية 29 إلى الآية 49 يساوي 223.

تنهدت بصوتٍ مرتفع مع هذا الصداع الذي اجتاح رأسي وقلت لنفسي: يا الله.. لقد بقي لدي رقمان لأصل إلى معادلة تاريخ الانفجار لكن رصيدي من الصبر وطول البال كان قد بدأ ينفد.

***

-4-

بل أنتم قومٌ مسرفون

بومبيي - 62 للميلاد

كانت بوبيا تنظر إلى نيرون بعينين حذرتين، جالسةً على أريكةٍ في ركنٍ بعيد من قاعة العرش دون أن تنبس ببنت شفة. كان يلزم الصمت غالبًا في حضورها منذ ألقت أمامه تلك الكلمات عن خيانة كلوديا أوكتافيا ومؤامرتها المزعومة للانقلاب عليه وسلبه الملك، يفكّر ويقلّب الأمر في رأسه رغم أن مشاكل السفن الغارقة أَلْهَتهُ عن البحث جديًّا في صحّة الأمر.

دخل الحاجب يستأذن نيرون لدخول أعيان مدينة بومبيي فأدخلهم وقد بدا عليهم الإعياء كما لو كانوا قادمين للتو من رحلتهم.

"سيدي الإمبراطور " انحنى بالِبيوس متحدّثًا بهذه الكلمات ثم أحنى رأسه ثانية لبوبيا سابينا التي اقتربت لتقف إلى جوار عرش نيرون.

- بالِبيوس.. يوليوس.. فونا، أهلا بكم.. أي رياحٍ طيّبة ألقت بكم إلينا.

- لقد جئنا نطلب العون من الإمبراطور.

- العون؟.

- تهدّمت مدينتنا يا سيدي، تهدّمت كما لو أن قبضه جوبيتر اعتصرتها وحوّلتها إلى حطام. اهتزَّت الأرض كريشة وسط الرياح ثم انهارت بيوتنا فوق رؤسنا.

- عم تتحدّث؟ لم يخبرنا أحدٌ بذلك!
- هذا ما حصل يا سيدي، لقد جئنا إليك نطلب عونك وإمداداتك لإعادة بناء المعابد والمباني، إن الأمر يفوق كلّ طاقاتنا.
- نحن أيضًا نمرّ بأزمةٍ شديدة يا بالِبيوس، ما بال المصائب تأتي مجتمعة.

اقتربت منه بوبيا وهي تهمس: يا سيدي الإمبراطور، تعلم أن روما قادرة على علاج هاتين المصيبتين معًا، لا يمكن أن تترك بومبيي الجميلة مدمرة مهدّمة كما لو أنها خرائب..

ضاقت عينا نيرون وهو ينظر إليها قائلًا: إن الأمر فوق طاقتنا يا بوبيا.

بوبيا: يمكن أن نطلب المدد في الغذاء من مصر، أو لعلّنا نجد بعض المساعدة من المدن الشمالية، ثم إنهم ليسوا متعجِّلين لإعادة البناء، أليس كذلك يا جايوس؟.

وافقها بالِبيوس قائلًا: بلى يا سيدتي، لسنا على عجلة من أمرنا، الدمار يعمُّ المدينة، لكنّنا سنقوم بإصلاح المدينة شيئًا فشيئًا قدر ما استطاعتنا.

بوبيا: سيدي الإمبراطور، أرجوك، إن بومبي تستحق.

نيرون: ربّما تظنين هذا لأنها مدينتك فقط..

بوبيا: بل لأنها الحقيقة يا سيدي.

تنهّد نيرون وقد لان موقفه قليلًا: فليكن يا جايوس، سأمدّكم بما أستطيع من المساعدات.

بالِبيوس: هناك شيءٌ آخر يا سيدي.

نيرون: شيءٌ آخر..

بـالِبيوس: أجـل يـا سـيدي، هنـاك مـن يكـدّر صـفو المدينـة منـذ مـدّة وقـد استعصـى علينـا أمـرهم. لقـد سـحروا المدينـة حتـى حـلّ بنـا هـذا العـذاب. يأتون إلى النادي يسبون الآلهة ويصلّون صلاةً غريبة بطقوسٍ غريبـة لا نعرفها، يُسفّهون آراءنا وأخلاقنا وينشرون التمرّد بين العبيد، كنّـا نتمنّـى أن تشور علينا بحلٍّ جيّد للتخلّص منهم.

نيرون: لكنهم لم يقترفوا ذنبًا يا جايوس، لا أجد فـي القـانون الرومـاني مـا يعاقب على ما تقول، إلا إذا كان لديك الدليل علـى أنهـم سـحرة؟؟ تجـاهلوا أمـرهم واهتمـوا بمـا هـو خيـرٌ لكـم، سـوف أكـون أنـا أول مـن يعـاقبهم إن تجاوزوا القانون.

كـتم بـالِبيوس غيظـه واسـتأذن منسـحبًا مـن القاعـة مـع بقيّـة الرجـال وقـد سحب منهم نيرون أي ذريعة لقتل بولس ولوقا أو طردهما.

كانـت بوبيـا تنـوي الخـروج خلفهم عنـدما ناداهـا نيـرون فتوقّفت مرتبكـة والتفتت إليه وهو يقول: لم نكمل حديثنا بعد يا بوبيا سـابينا، أريـد أن أعلـم مصدر معلوماتك.

- بخصوص بومبيي؟..

- هل تمزحين، تعرفين أنني أتحدّث عن أوكتافيا

- سيدي إن لي بعض الصديقات يخدم أزواجهم في الأسطول هناك..

- وهل شاع الأمر إلى حد أن تتناقله صديقاتك في أحاديث النسوة.

- قلت لك ما سمعته فقط، يمكنك أن تسأل يا سيدي.. يمكنك أن تحقّق.

كانت تعلم أنها اشترت ذمم الرجال فـي الأسطول وسيشـهدون معهـا بكل بساطة متّهمين كلوديا أوكتافيا بتدبير انقلاب على نيرون.

هذه المرة كانت الثقة تغمرها في كونها تمكنت من رقبه أوكتافيا. تذكرت كيف كانوا يلقون بأطواق الزهور على تماثيلها في شوارع روما فامتلأت غضبًا وثورةً وإصرارًا على تنفيذ خطتها حتى النهاية، لابد من موت أوكتافيا.

***

بوقارٍ مصطنع وقف سيمون ينتظر السماح له بالدخول إلى منزل بالِبيوس، السيد النبيل الذي بدأ نجمه يسطع في سماء بومبيي بعد الجهود الأسطورية التي بذلها لإعادة بناء المدينة المدمرّة. لقد وافق على استضافته خلال إقامته في المدينة بعد أن استعرض بعض قدراته السحرية وكلامه المنمق الذي يضاهي قوة كلام الأغراب القادمين من الشرق.

كان بالِبيوس يخشاهم كما يفعل الجميع، تمنّى لو أن أحدًا يوافقه على طردهم من المدينة، أو قتلهم ربما، لكن الجميع خائفٌ مثله، خصوصًا بعد الزلزال الذي دمّر بومبيي في العام السابق. شيءٌ ما في كلامهم يصيب أهل المدينة بالرعب ويمنعهم من التعرّض لهم، لكن سيمون هذا يختلف، كان يعرف جيدًا أنه كاذب ولكنه قادرٌ على إبعاد الناس عن بولس ولوقا المستمرين بدعوتهم رغم نفور أهل المدينة منهم. لقد لاقت دعوتهم بعض القبول من الفقراء والعبيد، لكن الغالبية العظمى من أهل المدينة يتجنّبون الحديث إليهم بل ويعتدون على أتباعهم من الضعفاء.

لا أحد يعرف من أين يأتيان ولا متى يخرجان من المدينة، هم فقط يكتشفون وجودهم فجأة في وسط ساحة المنتدى، يجلسون بجانب الرواق الشرقي يَتْلون الصلوات من الصُّحف التي يحملونها، وفي بعض

الأحيان يعالجان المرضى بألاعيب سحرية، لا أحد يفهم ما يفعلانه، لكن سيمون يدّعي أنه يعرف أسرارهم.

لقد عرض على بالِبيوس خدماته مقابل النقود، أقنعه أن باستطاعته إبعاد الناس عنهم، وهذا ما أعجب بالِبيوس، لا ضير من التجربة على أية حال.

خرج صوت سيمون واثقًا وهو يحيّي صاحب المنزل: سيدي الموقّر بالِبيوس.

- تفضّل ضيفنا الكريم، إنك على الرحب والسعة.
- كنت أتمنّى أن أحضر في وقت أفضل إذ أراك مشغولًا.
- لا عليك، ليس بالأمر المهم. كانت ابنتي الصغيرة جوليا مريضة ولقد تماثلت للشفاء الآن فلتحفظها الآلهة.

صمت قليلًا قبل أن يكمل بهدوء: أخبرتني أنك تعرف الغريبَيْن، لقد رأيتهم من قبل في مكان ما، أليس كذلك؟.

- أعرفهم يا سيدي، أعرفهم جيدًا. بولس الطرسوسي وصاحبه، طلبتُ أن تمنحني الفرصة لأحاربهم بما يعرفان من حيل وأعيدهم كما كانوا مشردين إلى السامرة.
- بالطبع بالطبع، ولك أن تطلب ما تريد لو فعلت هذا الذي تقوله.

التمعت عينا سيمون بجشع بعد أن بدا له أنه وجد ما يرقّع به سيرته الباهتة ويدعم أحلامه في الجاه والثروة، في بومبيي أولًا ومن بعدها روما.

***

ارتفع صوت ضحكات بلينيوس وهو يداعب ابن أخته الصغير جايوس ساسيليوس الذي لم يتجاوز عمره عامًا واحدًا. كان يصدر أصواتًا مضحكة بفمه مسجونًا داخل مهده في حديقة المنزل الكبير في كومو.
قال بلينيوس الذي كان يحب الأطفال رغم أن أعماله وتنقّلاته واهتماماته العلمية منعته من الزواج: سأكون معلمه في المستقبل، سيكون له شأنٌ عظيم، أرى ذلك في عينيه، وسوف آخذه ما أن يشتد عوده ليعيش معي..
ردت عليه أخته بلينيا مارسيلا معترضة: أفهم أنك مازلت مصرًا على عدم الزواج والإنجاب.

- أي تعيسة تلك التي ترضى بحياة كالتي أعيشها يا مارسيللا؟.. لا أستقر في مكان، يشغلني البحث طوال اليوم، وحياتي لا تصلح للزوجات.
- اترك لي الأمر وسأبحث لك عن عروسٍ مناسبة. عليك أن توافق فقط..
- دعك من هذا، لا أنوي الزواج، لديّ الكثير مما يشغل بالي.

صمت قليلًا ثم قال: هل سمعت عن الشغب الذي حدث أمس اعتراضًا على إعدام أوكتافيا..

- تلك المسكينة ضاع عمرها بين ظلم نيرون ونزواته وفسق بوبيا. لا أدري كيف صمدت كل هذا الوقت في زواجٍ كالجحيم ثم احتملت السجن والنفي الذي انتهى بإعدامها ظلمًا.
- لا أحد يهرب من العقاب، سيأتي ذلك اليوم الذي سيجد نيرون فيه نفسه وجهًا لوجه مع خطاياه.
- وتلك الحقيرة بوبيا.
- لا أحب سيرتها، لا تذكريها أمامي.

- سمعت أن الإمبراطور سيساعد أهل بومبيي على إصلاح آثار الزلزال، بالمناسبة هل سمعت عن الرجلين الغريبين اللذين ذاع صيتهما في محيط نابولي. يقولون إنهما يمارسان السحر.
- إن قصة هذين الرجلين غريبة بالفعل، حاولت أن أبحث عنهما أو أجد أي طريقٍ يقود إليهما فلم أفلح.
- وما شأنك بهم، لا توقع نفسك في المشاكل يا أخي. أنت تعرف أهل بومبيي.. كما أن نيرون أصبح في صفهم منذ أن تزوج بوبيا.
- أنت تعرفينني يا مارسيلا، لا أملك أن أشاهد تعذيب الضعفاء والفقراء دونما ذنب اقترفوه، لو أن لي قوةً بين القوم!
- يا أخي العزيز، هوّن عليك. ليس عليك أن تؤنّب نفسك.. استمتع بالحياة الهادئة التي رزقت بها ولا تشغل بالك بهم.

كانت الدعوة الجديدة التي سمع عن انتشارها على يد الرجلين القادمين من الشرق تشغل باله منذ مدة، الأخبار التي تتوارد إليه من بومبيي تداعب أفكاره وخيالاته، ولَكَم يتمنّى لو أنه يعرف شيئًا عن الإله الذي يتحدثان عنه، لكنه لا يعلم كيف يصل إليهما. لا أحد يعلم أين يسكنان ولا متى يدخلان بومبيي ولا أين يذهبان بعد خروجهما، يعيشان في تنقلٍ وترحالٍ دائم. حاول كثيرًا أن يلتقي أحدًا ممن اتبع دعوتهم إلا أن الجميع يخشى الكشف عن إيمانه، بعض هؤلاء الذين أظهروا إيمانهم على الملأ تعرضوا للاستعباد والإذلال والقتل. كان يكره الذهاب إلى بومبيي، يشعر بالقرف من حياتهم وغرقهم في الملذات والفواحش. تساءل في قلبه: هل كان الزلزال عقابًا لهم على ذنوبهم؟؟

***

انتصف الليل على الرجال المجتمعين في منزل لوسيوس جوكندوس الكاتب العقاري الثري وكان الغيظ يتملكهم بعد أن منعهم نيرون من التعرّض للدين الجديد وأتباعه.

قال سوريتشي هازئًا: هل تذكر حين أخبرتنا أن بإمكانك إقناعه يا بالِبيوس.

بالِبيوس: كنتُ مخطئًا تمامًا، لابد أن هناك ما يشغل فكر الإمبراطور ويمنعه من رؤية المخاطر التي يجرها علينا هذا الدين.

جوكندوس: والحل، أخبرنا ما الحل!

بالِبيوس: سنضعه أمام الأمر الواقع، سنريه أن آثامهم فوق الاحتمال وخطورتهم تفوق ما يتخيّل.

ظهر عدم الفهم على وجوه الرجال وتساءل جوكندوس: لم أفهم، أنت تعلم أن لا خطورة لهم إلا على أعمالنا وتجارتنا، لا نستطيع اتهامهم أنهم معتدون أو مجرمون، فكيف ستقنعه بذلك؟.

ابتسم بالِبيوس ابتسامة عريضة كأنما هو واثق من خطته وقال وهو يشير إلى ركن القاعة المعتم: سيخبركم سيمون.

التفت الجميع إلى ذلك النحيل الجالس في الركن المظلم وقد أخفى الظلام ملامحه عن الجالسين فتساءلوا باستغراب: من هذا الرجل يا بالِبيوس؟.

بالِبيوس: إنه سيمون، الرجل الذي لديه الحل، أخبرهم فكرتك يا سيمون.

اتسعت ابتسامة سيمون الباردة وهو يقول بهدوءٍ مستفزّ: سنحرق روما.

بهت الرجال واتسعت عيونهم في هلع قبل أن يهتف فونا: تحرق روما، هل جننت يا رجل؟ من أين أتيت بهذا الرجل يا بالِبيوس؟.

رد سيمون مقاطعًا: لست أنا من سيحرق روما، بل أتباع الدين الجديد. ستعلم كلّ الإمبراطورية الرومانية إجرام أولئك الرجال القادمين من الشرق، أولئك الذين لم يتورعوا عن حرق روما إرضاءً لربّهم، عندها سيكون ذنبهم عظيمًا جدًا ويستوجب قتلهم.

بدأت قلوبهم تستحسن الفكرة وتميل إليها برغم كلّ الشذوذ والبغي الذي تمثّله. ساد الصمت بينما هم يتخيّلون تفاصيل الأحداث التي سيجرّها عليهم وعلى الرومان حادثٌ كحريق روما، مقر الإمبراطور ومجلس الشيوخ، عاصمة الدولة الرومانية.

لانت وجوههم وبدا عليها القبول، قبل أن يقاطع بالِبيوس تخيلاتهم قائلًا: إذًا.. من معي؟.

ازدرد سوريتشي لعابه قبل أن يقول: ومن الذي سينفّذ هذا العمل الشنيع؟.

بالِبيوس: لن نلوّث أيدينا بشيء، سيمون سيتولّى أمر كل شيء، لديه معارفه في روما وكل ما علينا أن ندعمه بالمال. هل أنتم مستعدون لذلك؟.

نظرةٌ واحدة من بالِبيوس جالت وجوه الرجال فاطمأنّ إلى رضاهم، ليستريح في مقعده وقد وجد أن الأمر أصبح منتهيًا تمامًا الآن.

***

-5-

خطة الشيطان

روما -64 للميلاد

تلفّت حوله وهو يمرّ بين أزقّة الخرائب على أطراف روما في ليلةٍ مُعتمةٍ غاب عنها القمر، أحسّ بمن يجذبه بغلظة ليدخل كوخًا صغيرًا على جانب الزقاق.. كاد يصرخ لولا أن ذلك المجهول وضع يده على فمه وهمس في أذنه: اهدأ موريتينيوس.. إنه أنا

تلعثم موريتينيوس وهو يقول: لقد أخفتني يا سيّدي.. لماذا أرسلت للقائي هنا؟.

- دَعَكَ من الأسئلة.. أين ماركوس؟.

- تركته يحاول إلهاء أمي عن غيابي، لقد زاد مرضها جدًا في الآونة الأخيرة ولا يمكننا أن نتركها وحدها مع الأطفال.

زفر سيمون بنفاد صبر ثم قال: هناك مهمّةٌ يجب أن نؤديها إرضاءً للرب، كان عليه أن يأتي معك.

- سوف أحضره في المرة القادمة.

أحاط سيمون كتفي موريتينيوس بذراعه وهو يسير معه بين الخرائب ثم قال: إن الله غاضبٌ على نيرون، غاضبٌ بشدّة بسبب شروره وظلمه وسفكه للدماء، وقد كلّفني في المنام بعقابه.

اتّسعت عينا موريتينيوس قائلًا: الله؟. غاضبٌ من الإمبراطور!!

- سنحرق روما.

فاجأ الأمر موريتينيوس فتراجع إلى الخلف مرتبكًا وقال: لكن يا سيدي، روما.. روما هي أرضنا، لا يمكن أن نحرق أهلنا..

جذبه سيمون إليه بغضب وحدّجه بنظرةٍ نارية وهو يصرخ فيه: صه.. الله هو الذي قد قرّر عقاب نيرون، لماذا أرى الفزع في وجهك؟ هل أنت خائفٌ من الموت يا موريتينيوس؟ ها.. هل أنت خائفٌ من الموت؟. أولئك الذين يموتون في سبيل الله يذهبون للجنّة، إنهم شهداء يا موريتينيوس.. هل تعرف الجنّة؟ هل تكره الموت الذي سيذهب بك إلى هناك؟.

- يا سيدي.. أما من وسيلة أخرى لعقاب الإمبراطور سوى هذه؟ ربّما لو يقبض الله روحه؟ الله قادرٌ على كلّ شيء، ربّما يسلّط عليه مرضًا؟.

صاح سيمون بغضب: هل تعترض على قدر الله؟.. إن الله يفعل ما يشاء ونحن فقط ننفذ أوامره..

- ربّما أخطأت تفسير الرؤيا يا سيدي..

صاح سيمون وقد نفد صبره: موريتينيوس!! أنا لا أخطئ، توقف عن الجدال، هل أنت معي أو أبحث عن غيرك؟ إن الخيار لك، لكن تذكّر أنّ غضب الله سيطال الجميع، أنت تعلم هذا في داخلك.

استسلم موريتينيوس وصمت قليلًا يقلّب الأمر في رأسه قبل أن يقول: أنا رهن إشارتك ارضاءً للرب.

زفر سيمون بصوت مسموع ثم ربّت على كتفيه قائلًا: أنت شابٌ صالح يا موريتينيوس. اذهب الآن إلى المنزل وموعدنا غدًا بعد منتصف الليل، وأحضر معك ماركوس، لا تنسَ، سأكون في انتظاركم.

كان سيمون يستغل الكلمات التي تعلمها من فيليبس في السامرة لإقناع هذا الشاب المسكين بأنه يقاتل لإظهار الحق، وكانت روما هي الثمن ودم المؤمنين هو الهدف الرئيس من كلّ هذه المؤامرة.

***

هركيولانيُم - 64 للميلاد

ماركوس نونياس داما يفكر مليًّا بتزويج ابنه بروتُس من ليلي ابنة صديقه القديم يوسيفْيُس. يعرف يوسيفْيُس منذ زمنٍ طويل، ربّما قبل أن يُعتقه سيده ماركوس بيلبوس ويمنحه حريّته. تعرّف عليه في سوق السمك حيث كان يشتري منه الأسماك الطازجة للسيد بيلبوس قبل أن يترك يوسيفْيُس مهنة الصيد ويتفرغ للعناية بالبستان على حدود المدينة.

كان كلاهما قادمًا من شرق بحر الروم، لقد أُسِر داما في إحدى المعارك في تدمر بسورية، ثم سِيق إلى روما حيث اشتراه سيّده من سوق العبيد، بينما جاء يوسيفْيُس من السامرة على الساحل.

عاش داما يبذل قصارى جهده في خدمة سيده حتى كافأه وأعتقه من العبودية هو وأسرته الصغيرة التي كوّنها في هركيولانيُم. الحق أن السيد بيلبوس كان رجلًا كريمًا وطيبًا، حتى إنهم نصبوا له تمثالًا في ساحة النبلاء.

لم تنقطع صداقة داما مع يوسيفْيُس منذ تعارفا، لكن التغيّر الذي طرأ على يوسيفْيُس منذ ثلاثة أعوام يشغل باله كثيرًا. لا ينكر أن كلام ضيفيه بولس ولوقا مقنعٌ ومريح إلّا أن مخاطرةً كالتي يقوم بها يوسيفْيُس بإخفاء الرجلين في منزله ستجرّ عليه الكثير من المشاكل؛ لطالما كان يوسيفْيُس متهورًا.

"انتبه إلى الدكّان يا بروتُس.. لدي عملٌ مهم"
ترك بروتُس يتولى عمله، ونهض متكئًا على عصاه قاصدًا أطراف المدينة حيث بستان يوسيفيُس.
هركيولانيُم تقع على منحدر طبيعي نحو الساحل ولذلك يجد المرء صعوبة في الذهاب إلى شمال المدينة، إذ يكون عليه أن يسلك الطرق المنحدرة صعودًا بين التلال. ورغم جمال الحقول والبساتين التي يجدها في طريقه إلا أن الطريق ما زالت مُرهقة.
وصل إلى الساحة الصغيرة المعرّشة بكرم العنب فنادى "ليلي.. فيبيا.. هل من أحدٍ في المنزل "
لم يسمع أي إجابةٍ لندائه فظنّ أنهم في البستان، أكمل طريقه إلى البستان وقد تناهى إلى سمعه بعض التراتيل الجميلة، كان هذا صوت أحد الضيفين بالطبع. أكمل سيره بين شجيرات الزيتون حين لمح من بعيد بعض الأشخاص يجلسون في حلقةٍ حول بولس الذي كان يتلو عليهم تلك التراتيل التي سمعها.
لم يُرِد أن يُقاطعهم فجلس غير بعيدٍ عنهم يستمع معهم إلى التلاوة. شيءٌ ما في الكلمات يصادر قدرته على المقاومة، إنها المرة الثانية التي يستمع فيها إليه. كان يتمنى أنه في مكان آخر أكثر حرية حتى يستجيب حينها لدعوتهم إلى الإيمان، لكن الرومان قومٌ مجرمون، لقد رأى بعينيه كيف صلبوا أحد الفلاحين قبل أسبوع.
قاطع صوت بولس أفكاره وهو يقول: إلى متى يا داما؟.
ارتجف فجأة بعدما سمع اسمه ونظر إلى بولس مستفسرًا: لم أفهم؟.

أجابه بولس بهدوء: إلى متى ستظل خائفًا حائرًا بين الجنّة والنار، أسمع صوت الحق يتردّد في قلبك فمتى ستُقدِم على التسليم له والتوقّف عن المقاومة؟.

- وكيف تسمع قلبي؟.

- أسمعه، أرى عينيك الحائرتين الزائغتين، أسمع أنفاسك المرتجفة. لا أحد يهرب من قدره يا داما، الحمقى فقط من يختارون السلامة في الدنيا على السلامة في الآخرة، وأنت لست بأحمق، أعرف هذا.

- لدي ابنتان يا سيدي، لا أحتمل أن أراهما قد أجبرتا على الفاحشة، لدي شابٌ لا أتخيل أن يسيل دمه أمامي، أنت لا تعرف الرومان.

- أنا أعرف الرومان وجرائمهم، وأعرف الله، وغضبه وعقابه.

أطرق داما رأسه وهو حائرٌ في الإجابة التي ينبغي أن يجيب بها بولس إلا أن الأخير أراحه من الردّ قائلًا: سأدعو الله لك لعلّه يريح قلبك.

ردّد في أعماق قلبه قائلًا "نعم ادعُ الله لي لعلّه يريح قلبي "

***

لماذا تبدو روما معتمةً إلى هذا الحد رغم أن المشاعل تملأ الشوارع، كان هذا هو ما يدور في رأس ماركوس الذي يسير بين الأزقّة الضيّقة صاعدًا إلى سفح تلّة كَاليَان وهو يلهث خلف ظلَّي موريتينيوس وسيمون المُسرعين.

بُنيت مدينة روما فوق سبع تلال؛ لذلك انتشرت الدرجات الحجرية والمنحدرات بين الأزقّة الضيّقة وتجمّعات المنازل الخشبية.

كانت فكرة الحريق ماتزال تُؤرق ماركوس وموريتينيوس بشدّة، تذكَّر ماركوس كيف كانت صدمته لمّا أخبره شقيقه بخطّة سيمون: كيف يمكن أن نفعل ذلك يا أخي، هل ستتركه يفعل ذلك؟.

ردّ موريتينيوس في ارتباك: لست أدري يا ماركوس، ليس لدينا خيار، أنت تعرف ذلك. لقد قال إن الرب يعاقب نيرون على ظلمه. إنها أوامر الله.

قال ماركوس بهلع: نحن لا نعاقب نيرون، نحن نعاقب روما وأهل روما، ألا ترى هذا؟.

تنهّد موريتينيوس قائلًا: لا تُصعّب عليّ الأمر يا ماركوس، أنت ترى حالنا وتعلم أننا لا نجد المال الكافي لأمك المريضة وإخوتك.. ثم.. ثم.. أنا أرى بالفعل ظلم نيرون وحاشيته.. لا تفكّر في الأمر كثيرًا.. سيكون حريقًا صغيرًا في منطقةٍ مهجورة ولن يتأذّى أحد.

كانوا يصعدون إلى أعلى التل حيث مخبز أنطونيوس القديم، دخل سيمون إلى مخزن الحطب من بابٍ ضيّق يحمل في يده قنديلًا صدئًا وهو يقول: هيا.. بسرعة، فلنجمع بعض الحطب في منتصف الغرفة.. هيا يا ماركوس، ما بك.. تحرّك، أنت تبكي أيها الأحمق، لا أعلم من أين أتيت بكما، لماذا يلاحقني الحظ السيّء.. حسنًا، هذا يكفي.

قرّب سيمون الشعلة من الأخشاب التي جمعها الأخوان في وسط الغرفة ثم قال: علينا أن نخرج من هنا بسرعة ما إن تشتعل النار.. أكملا توزيع المشاعل في أكوام التبن في كلّ أنحاء السيرك وانتبها جيدًا كيلا يراكُم أحد، عندما تعودا إلى المنزل لا تتحدّثا مع أحد، لقد قضيتم ليلتكم في المنزل، هل فهمتما قَوْلِي هذا؟ كنتما نائمين.

أومأ موريتينيوس برأسه علامة على فهمه بينما كان وجه ماركوس ممتقعًا بشدة وهو ينظر إلى القنديل الذي كان يقترب بشعلته بإلحاح من كومة الحطب.

"اخرجا هيا" صاح بهما سيمون بعد أن اشتعلت الأخشاب فخرجا بسرعة يتعثّران أمام عيني سيمون الساخطتين. "حمقى " قال سيمون ثم انتظر قليلًا ليطمئن إلى اشتعال النيران بما يكفي لكي تمتد إلى باقي الحطب في مخزن المخبز. كان ينظر إلى النيران بجنون ولم يكن يعلم أن الرياح كانت تخبئ لروما حريقًا أعظم مما كان يتخيّل.

امتدّت النيران إلى باب المخزن الخشبي فسارع بالخروج مبتعدًا بين طرقات روما الضيقة قبل أن يلاحظ ظلًا لرجلٍ يركض نحوه صارخًا "أنت هناك.. توقف.. لقد أشعل النار في المخبز.."

تلفّت سيمون حوله بفزع وزاد من سرعته في الركض بين الأزقة فلم ينتبه للدرجات التي أمامه قبل أن يسقط ويتدحرج عنها ليصدم رأسه بحافة الجدار الحجري المقابل ويغيب عن الوعي.

عندما أفاق، لم يعرف كم من الوقت مرّ عليه فاقدًا للوعي، لكن المكان كان قد استحال جحيمًا، البيوت الخشبية التي امتدّت إليها النيران تحوّلت إلى كتلةٍ عظيمة من اللهب. تلفّت حوله وقد تذكّر ما حدث في الليلة السابقة فقال لنفسه في رعب "يا الهي.. علي الخروج من هنا.. أين الطريق؟. "

كانت روما تشتعل واللهب يرتفع إلى عنان السماء مختلطًا بصراخ سكّان المنازل وقد احتجزهم الحريق، رائحة الشواء تقشعر لها الأبدان، بينما سيمون يحاول العثور على مخرجٍ بين الأزقة الضيقة المشتعلة.

فجأة هوت عارضةٌ خشبيةٌ ضخمة تأكلها النيران فَسَدَّت عليه الطريق وأشعلت أطراف عباءته. لم تكن النيران هي ما يخيفه، بل ذلك الظل الضخم الذي كان يقترب منه بهدوء. يحفظ ملامحه منذ أن ضربه وطرده من مدينته التي عاش فيها عمره كله حتى اضطرته حاجته إلى التوسل للرومان كي يحيا بينهم ويعيد كرامته التي أهدرها في السامرة.

هل هو بطرس ذلك الذي يراه يقترب من بعيد، ليس طيفًا بالتأكيد، لماذا جاء خلفه إلى هنا؟.

الخوف سيطر على قلبه فتجمدت أقدامه ولم يعد قادرًا على الوقوف إلى أن وصلت النيران إلى جلده وبدأ يشعر بحرارتها على ساقيه.

كان عاجزًا عن التفكير بعد ساعاتٍ من البحث عن طريق النجاة بين الأزقة المشتعلة، لم يعد لديه ما يكفي من القوة للهرب. النيران تحيط به من كل جانب، وطيف بطرس يرمقه بعينيه الغاضبتين، هل هو حقيقة أم شبح؟.

حاول التخلص من عباءته لكنها التفّت حوله بشدة كما لو أنها قرّرت عقابه على إشعال الحريق. كان يصرخ ولكن أحدًا لم يكن يسمعه بين صراخ الآلاف من سكّان روما. مخطئٌ من ظن أنه ينجو من عقاب الإله، مخطئٌ تمامًا.

***

"استيقظ يا سيدي.. استيقظ " صاحت بوبيا وهي توقظ نيرون من نومه.

- ماذا هنالك يا بوبيا.. أخبرتك انني لا أحبّ أن يقاطع نومي أحد..

- سيدي روما تحترق منذ البارحة

- من يحترق؟.. ما هذا الهراء.. هل تحلمين؟.

- استيقظ يا سيدي، الكثير من سكان روما ماتوا حرقًا، لقد عجز الجميع عن إطفائها

نهض نيرون وهو يصرخ:

ما الذي يحدث في مملكتي، لماذا تَتَقصّدُني هذه الكوارث اللعينة.

تعثَّر في طرف ردائه وكاد يسقط على وجهه لولا أن استند على حافة السرير، فصرخ بمن حوله "أخبروا قائد الجيش أن يجهز الجنود لإطفاء النيران، أعدُّوا العربة حالًا، سأذهب إلى روما.."

كان نيرون في تلك اللحظات في أنتيوم خارج روما، ولم يكن يدري أن هذا الحريق قد وصل حدًا يفوق تخيّله، وأنه قد ذهب ضحيته الآلاف من البشر والمنازل، وأن السيطرة عليه الآن أصبحت عملًا خارقًا. ولم يكن يعلم أيضًا أنه وعلى مدى قرون تالية سيظلّ مُتهمًا بافتعال هذا الحريق لجنون ألمَّ به.

***

تعالت الضحكات القادمة بين مجموعةٍ من الشباب المجتمعين في خان المراكب على ساحل هركيولانيُم بينما هم يشوون السمك الذي اصطادوه في الليلة السابقة. كانوا قد اعتادوا على اللقاء من فترة لأخرى لصيد السمك والمرح على الساحل.

بروتُس داما، ذلك الطويل ذو الشعر البني والعينين العسليتين، أما الشاب الأشقر جعد الشعر ذو العينين الصغيرتين الذي يحاول عبثًا أن يشعل النار فكان فينيدياس آنياس، عبدٌ رقيق يردد دائمًا أنه سيصبح مواطنًا رومانيًّا حرًا ذات يوم. بقي لابيلوس تونياس ذلك الذي وقف على

أطراف الشاطئ يربط حبل القارب بوتدٍ ثبته جيّدًا قبل أن تسحبه أمواج الشاطئ، إنه صيادٌ بسيط يكسب عمله من الصيد وبيع السمك.

قال آنياس من بين ضحكاته: أضحكتني حقًا يا داما، لا أتخيلك تتزوج في هذا السن. سوف تكفّ حقًا عن الاستمتاع و المرح معنا وتنتبه للبيت والعمل والأولاد. لا أصدق، لعلك لم توافق على اقتراح والدك.

- الحقيقة أنني متلهّفٌ أكثر منه، سأتزوج في النهاية على كلّ حال، ووالدي عجوز يريد أن يطمئن على حالي، يعلم أن لي أصدقاءَ فاسدين مثلك.

- أيها الصغير المدلل، من تكون تلك الفتاة المحظوظة إذًا؟.

وصل لابيلوس بعد أن تأكّد من تثبيت القارب جيدًا وقال باستهجان: كلّ هذا الوقت ولم تنجح في إشعال النيران، ابتعد يا صغيري، واترك هذا الأمر لي، أنت لا تصلح لشيء.

ترك آنياس المهمة سعيدًا وأكمل حواره مع بروتُس: لم تخبرني، من تكون العروس؟.

بروتُس: يا لك من فضولي، لم يتحدث أبي في أمرها بعد، فلتنتظر حتى يفعل.

آنياس: وماذا سيحدث لو أخبرتني أيها الأحمق، تكتم عني أسرارك.. هيا هيا.. قل.

بروتُس: ليس الأمر هكذا.. إنّ أبي.. اسمع.. الأمر يتعلق بالدين الجديد..

قاطعه لابيلوس قائلًا: سمعتُ عنه، كنتُ في رحلة صيد بالقرب من ستابياي، كانوا يضربون رجلًا بالقرب من الشاطئ. مجموعةٌ من

الرجال قساةٌ جدًا في الحقيقة، وكان الرجل ينزف بشدة.. لا أنسى نظرته أبدًا.

آنياس: عم تتحدثان أيها الأحمقان؟ لقد كنا نتحدث في زواج هذا الفتى. أي دين؟ وأي رجل؟.

تردّد بروتُس قليلًا قبل أن يقول: الحقيقة أن الرجلين اللذين يدعوَان للدين الجديد.. سيبقى هذا الكلام سرًا بيننا.. أسمعتني فينيدياس؟.. الحقيقة أن الرجلين ينزلان ضيوفًا على والد العروس، ووالدي ما زال مترددًا وخائفًا لأن الرومان يحاربون أتباع المسيح بشدة، يخشى أن يعجّل بالزواج فنقع في المشكلات.

بدا الانتباه على وجه الشابين وتساءل لابيلوس: يبدو أنك تعرف الشيء الكثير عن هذا الدين، أخبرني عنه.

قاطعهم آنياس: عن ماذا يخبرك يا أحمق؟ ألم تقل للتو أنّهم يعذبونهم حتى الموت، هل التقيت بهما يا داما؟ تعرف مكانهما أليس كذلك؟.

بروتُس: ما الذي يهمك بمكانهما؟ وعدتني أن الكلام سيبقى سرًا

آنياس: نعم يا رجل.. سر.. ولكن يجب أن نحذر منهما، قد نقع في الكثير من المتاعب.

لابيلوس: دعك منه يا داما وأخبرني عن أتباع المسيح.. ما قصتهم؟.

بروتُس: يقولون إن الآلهة كذبة، جوبيتر كذبة، قصص لا أصل لها.. يقولون إنه إله واحدٌ فقط هو من خلق كلّ الكون، إله اليهود ذاته، وأنه يريد منا أن نكون أنقياء، رحماء، يريدنا أن نعبده ونحرر البشر من القيود التي وضعها الفاسدون. يقولون لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا

تكذب. هل أخبركم سرًا؟ قلبي يميل لهذا الدين، أصدقهم، لكنني لا أجرؤ أن أخبر أبي لأنه خائفٌ بشدة.

آنياس: استمع لأبيك يا صغيري، عليك أن تتوقف عن الإنصات لهذا الهراء، حتى لا نجدك مصلوبًا في منتصف ساحة المحاربين ذات يوم.

لابيلوس: لكنه يقول كلامًا جميلًا يا آنياس، ماذا لو كان الإله الذي يتحدّث عنه هو الحق فعلًا؟.

آنياس: توقّف أنت أيضًا عن هذا، لقد رأيتَ تعذيبهم، أنت أخبرتنا !!

لابيلوس: لكنني لم أخبرك عن إعجابي بصبر الرجل وتحمله، كان يموت وفي عينيه نظرة من التصميم والرضى لم أرها في حياتي.

وقف آنياس متجهّمًا ينفض تراب الشاطئ عن ملابسه: لقد أفسدتما النزهة بحديثكما، سأرحل قبل ان أجدني متورطًا في قصصكم، إلى اللقاء.

لحق به بروتُس يَعِدُه بالتوقف عن هذا الحديث تمامًا ما دام لا يعجبه، تردّد آنياس قليلًا ثم عاد إلى حيث النيران وجلسوا يتناولون غداءهم وكأن على رؤوسهم الطير، كانت النزهة قد فسدت بالفعل.

***

كان الدمار في روما هائلًا، أربعةٌ من أحياء روما الأربعة عشر هي التي نَجت من الحريق الذي استمر ستة أيامٍ كاملة، منتشرًا من السيرك وما يحيط به من المحال والمنازل والحدائق إلى أنحاء روما كافةً. دُمِّرت ثلاثة أحياء بالكامل بينما تضرّرت السبعة الباقية بشكل كبير. حتى قصر نيرون نفسه لم يفلت من الحريق، انتشرت النار بشكل

جنوني في الحقول حتى أصبحت السيطرة عليها مستحيلة، وعاد شبح التشرد والمجاعة يحوم حول روما من جديد مهددًا بالهلاك.

كان نيرون يتفقّد آثار الحريق بعد أن أمر بفتح قصوره الخاصة لإيواء الناجين الذين دُمِّرت منازلهم وأصبحوا بلا مأوى، كان يحاول أن يقوم بدوره كإمبراطور للدولة الرومانية على قدر ما يستطيع.

تلفّت حوله متحسّرًا وسأل قائد الجند الذي يرافقه: هل أحصيتم الخسائر؟ كيف حدثت هذه الكارثة؟.

أجابه القائد: كانت النيران تنتقل بسرعة في الحقول وأكوام القش المتناثرة في السيرك يا سيدي، الريح ساعدتها على ذلك بينما كان الناس نياماً.

- كيف بدأت؟.. أخبروني أين بدأت.. من المسؤول عن كل هذا؟؟.

- لا أحد يعلم بالتحديد، كان الأمر عصيًّا على الفهم يا سيدي.

صمت قليلًا وتردّد في الحديث ثم أردف قائلًا:

أحد المواطنين يدَّعي أنه طارد رجلًا في بداية اشتعال النيران، كان يخرج من مخزن الحطب في مخبز أنطونيوس حيث كانت النيران مشتعلة، لكنه لم يستطع اللحاق به، اختفي بين ألسنة اللهب.

تمشَّى نيرون بين بقايا المنازل المحترقة وقد أحسّ أن فترة حكمه كانت سيئةً للغاية، لم يكن يحلم بهذه المصائب التي تقتحم لحظات السعادة التي كان يقضيها في ملذاته واهتماماته، لكنه لا يستطيع التنصّل من كونه المسؤول عن البلاد، وأنه يجب عليه حماية الدولة من هذه المصائب شاء أم أبى.

- افتحوا المخازن للمواطنين، سيكون هناك الكثير من الجياع. انتظر.. انتظر.. أرسل أيضًا في طلب المهندسين.. هناك سيفروس.. ابعث في طلبه لنتحدث في إصلاح المدينة.. انتظر.. أعلِن رصد جائزة لمن يرشدنا إلى الفاعل، لن اتركه دون عقاب، من يتجرّأ على حرق روما العظيمة لابد أن يُعاقب.

بعد يومين، قبض الحرس على الأخوين ماركوس وموريتينيوس، لقد شهد أحد العاملين بالسيرك أنه رآهما يحملان المشاعل ويلقيانها على التبن والحقول.

المشكلة أن موريتينيوس وماركوس يعتقدان تمام الاعتقاد أن سيمون كان من رسل المسيح وأن تلك الطقوس التي تعلّماها منه هي جزء لا يتجزأ من الدين. ليس هذا فقط، لقد كانا يظنّان أنهما ينفِّذان أمر الله في حرق روما.

إن المؤامرة التي حاكها سيمون ما زالت في طريقها للنجاح رغم أنه قضى نحبه حرقًا خلالها، وسيكتب التاريخ أن حريق روما كان بداية تغوُّل الرومان واقترافهم المجازر في حق النصارى المؤمنين.

***

-6-

آب يعني أأب

غزة - 8 نيسان 2016 م

بعد انتهاء الحرب لاحظت شوقًا شديدًا لدى الناس - وأنا معهم - للعودة إلى ذكريات الماضي البعيد، لهفة غريبة للبحث عن أصدقاء الطفولة وقصص الأيام القديمة وذكريات المدرسة؛ لعله كان هروبًا من التفكير بالحاضر المؤلم والمستقبل المجهول.

في تلك الفترة طفقت أبحث عن أصدقائي القدامى على الفيسبوك، ولقد نجحت بالفعل في الوصول إلى الكثير منهم. ورغم أننا تغيّرنا كثيرًا ووصلنا إلى سن العقلاء كما يقولون، إلا أنني ما زلت ألمح الطفولة التي تعيش في قلوبهم كما قلبي، طفولة رزينة تقارِن بين ما كنّاه في الماضي من براءةٍ وأحلامٍ وأمل، وما نراه يُخيِّم علينا الآن من بؤس، وما ينتظر أطفالنا من مستقبل.

ذات مرة راودتني فكرة إرسال صورةٍ جماعيةٍ كانت تجمعنا في الصف الرابع الابتدائي إلى صفحة إحدى المجموعات التي ضمّت تلاميذ المدرسة القدامى. لم أستطع منع نفسي حقًا، كنت فقط أريد أن أخبرهم أنني أعرفهم جميعًا، أذكرهم بجميع تفاصيلهم وقصصهم، حتى ياسر الذي كنت أتشاجر معه على السياسة والأحزاب، وعبد الله الذي ضحك

يومًا من حجابي، أنا أذكرهم جميعاً، ولربما وددت العودة بشدّة إلى ذلك الزمن الذي لم نكن نفهم فيه هذه الحياة حقًا.

في ذاكرتي تقبع الكثير من القصص والحكايات، أهرب إليها كلّما ازدادت ضغوط الحياة وآلامها، كأن عمري فيها قد توقف عند سنِّ الثانية عشر لا يبارحه. أذكر في يوم من أيام الانتفاضة الأولى كان جنود الاحتلال يلاحقون شابًا صغير السن دخل المدرسة للهروب عبرها إلى الشوارع الخلفية، كان يومًا حافلاً بالنسبة لنا إذ لم نكن نشاهد الكثير من هذه الأحداث بأعيننا الصغيرة في مدرستنا. في ذلك الوقت حاول المدرسون إخراجه من بابٍ جانبي يطلّ على المسجد.

أذكر "أنطي صُبحية" المديرة التي كانت صارمةً جدًا، عابسة الوجه على الدوام، وكنَّا نخافها، ولكن خلف جدران هذه الصرامة كان هناك قلبٌ رقيقٌ تخفيه بنظرتها القوية. ذات مرة نادتني بينما كنت أسير في الممرّ المقابل لغرفة الإدارة وكانت تبتسم وهي تنبهني إلى إنحناءة ظهري، وتعلّمني كيف أعتدل في مشيتي وأرفع رأسي، إذ إنني لشدة ما كنت عليه في ذلك الوقت من الخجل والانطواء كنت أسير مطأطئةً رأسي محنيّة الظهر بشكل مُلفت وإن لم أكن أنتبه لذلك.

أذكر لما ظهرت اتفاقية أوسلو إلى الوجود وكنت حينها في الثالثة عشر من عمري، زارنا في الفصل صحفيٌّ ياباني، وكان يستفسر عن آرائنا في العودة المحتملة لياسر عرفات والسلطة الفلسطينية إلى غزة والضفة. أذكر يومها سؤاله عن عدد اللاجئين في الفصل، فوقفنا وكُنّا ثلاث فتيات. سألنا عن رأينا بالاتفاقية بوصفنا لاجئين، لم أكن أفهم قصة اللاجئين بالمناسبة، إذ لم أشعر يومًا أنني أختلف عن باقي الفتيات من

حولي، ولم أتخيّل أن للأمر أيّ أهميّة، ما هي إلا وسيلة لغرس التفرقة العنصرية والعصبية القبلية في قلوبنا منذ الصغر. في ذلك الوقت سجَّلت اعتراضي على الاتفاقية وسألته: ماذا عن عمّي المعتقل في سجن النقب؟. هل ستعيده أوسلو الى ابنته التي لم تتجاوز العامين؟.. لم يَبدُ لي منطقيًّا في ذلك الوقت أن جنود الاحتلال الذين يعتلون سطح البناية المقابلة لمدخل المدرسة، ونشاهدهم كل يومٍ من خلال النافذة الكبيرة في وسط الجدار الخلفي لفصلنا، قد يرحلون في يومٍ من الأيام. سألته: هل تصدّق أنهم سيرحلون؟؟

لم يُجبني حينها، لكنّهم رحلوا، رحلوا بالفعل مطمئنّين أنهم تركونا لأنفسنا لكي نقوم بأعمالهم القذرة. كانوا يعلمون أن أحدًا لن يستطيع ترويضنا كأنفسنا. لماذا يلوّثون أيديهم ويعرّضون أنفسهم للخطر ما داموا قادرين على انتداب من ينوب عنهم؟.

لم أدخل المدرسة منذ تركتها إلى الثانوية ولكنني في كل مرة يتصادف مروري من أمام بوّاباتها أتساءل: هل ما زالت المدرسة كما هي؟. تغيَّرت الألوان والمباني والمدرِّسون بعد مرور كل هذه السنوات، لكن رائحة الذكريات لا يخطئها القلب أبدًا مهما تغيَّرت الصور.

تذكَّرت كل ذلك وأنا أصادف خبرًا قديمًا يتحدَّث عن وفاة رهاف، صديقةٌ في المدرسة القديمة، وكان قد مرّ عامان على وفاتها.

رهاف، الفتاة الطويلة التي انتقلت إلى مدرستنا في آخر سنةٍ لي هناك، ماتت. لم تكمل الخامسة والثلاثين من عمرها، ولكنها ماتت هكذا دون سابق إنذار بعد انتهاء الحرب بثلاثة أشهر. لم تقبل طلب الصداقة الذي

أرسلته لها بعد الحرب، ولم تنتظر كثيرا لتتذكرّني أو تتذكرّ السنة الأخيرة التي قضيناها في المدرسة، لم يمهلها الموت لتفعل.

لماذا نشعر أن الموت صعبٌ وغريب ونحن الذين عايشناه مئات المرات لحظةً بلحظة في أيام الحرب. ضياء لم يكمل الرابعة والعشرين، ولكنّنا تعلّمنا أن الموت القادم من إسرائيل أجمل بكثير من الموت الذي يداهمنا بلا دماء.

***

اليوم إجازة، وأولادي يبذلون مجهودًا خرافيًّا لإغضابي كالعادة، حملت أوراقي وأقلامي وهاتفي وتربّعت على السرير وتركتهم يعبثون بالبيت كما يريدون.

ما زالت قصة الرقم 253 تُشعرني بالعجز، الأمر الذي قادني بعض الشيء للتسليم بعبثية ما أفعله. الرقم 253 - كما تعلم - هو عدد الكلمات من بداية السورة وصولًا إلى كلمة خامدون.

لقد اعتمدت كثيرًا على الصُدف التي لا أجد لها تفسيرًا غير أن الله يضعها في طريقي، أعرف أنك تُنكر عليّ ذلك وتستهجن البحث بلا منهجيةٍ علمية، ولكنني أحب أن أكون صريحة، لقد كانت كلها صُدَفًا.

عندما كنت أتصفّح الفيسبوك، ظهر أمامي مقالٌ قديم لمركز نون، بالصدفة أيضًا، وكان يتحدث فيه عن تاريخ انتهاء الحرب. كانوا قد حسبوا جمَّل هذا التاريخ ضمن محاولاتهم الربط بين الأحداث.

شيءٌ ما سطع في عقلي كما يلمع البرق فجأة ثم يختفي، هذا ما شعرت به وأنا ألاحظ الحسابات في المقال.

انتبهت فجأةً لأمرين مهمّين قلبوا كلّ حساباتي السابقة، الأمر الأول أن جُمّل كلمة للميلاد كانت 145، وأنا حسبتها في معادلتي 144بطريق الخطأ.

أعدت الحسبة ثانية:

ل+ ل+ م+ ي+ ل+ ا + د=30+30+40+10+30+1+4= 145!

خطأٌ حسابيٌ غبي لم أنتبه له من قبل، ترى كم من الأخطاء الأخرى قد ارتكبت في حساباتي؟.

الأمر الثاني الذي لفت انتباهي هو أن شهر أغسطس والذي عوَّضتُ عنه أنا في الحسبة برقم 8 الذي هو ترتيب الشهر كما اعتدنا عليه، هذا الشهر يمثّله شهر آب باللغة العربية.

أحد الصُدَف الغريبة التي حدثتك عنها أن يتشابه التاريخ الذي انتهت فيه الحرب مع التاريخ الذي انفجر فيه البركان. في المقال الذي أمامي عوَّض الباحثون عن قيمة شهر أغسطس آب بجمّل كلمة آب أو أأب وتساوي 1+1+2=4.

على هذا يكون حساب جمل تاريخ انفجار البركان هو:

24 "يوم بدأ الانفجار "+ 4 "جمّل كلمة آب "+79 "العام الذي وقع به الانفجار "+ 145 "جمّل كلمة للميلاد"

= 252.

توقَّفت للحظةٍ عن التفكير وأنا أراقب الرقم الذي أمامي.. إن المشكلة التي أواجهها حقًا هي أنني كلّما ازداد اقتراب الرقم الظاهر أمامي في الحسابات من مجموع الكلمات التي أحصيتها في سورة يس أتشبث بالبحث أكثر وأكثر.

رقمٌ واحدٌ فقط يفصلني عن النتيجة، وهذا محفِّزٌ ومُحبِط في الوقت نفسه، لا أعرف كيف أشرح هذا الشعور.

عدد الكلمات من بداية السورة حتى نهاية الآية 29 والتي تنتهي بلفظ "خامدون" يساوي 253 وحساب تاريخ الانفجار 24 آب 79 للميلاد يساوي 252 والفارق بينهما رقم واحد !

أخذت نفسًا عميقًا وأسندت ظهري المتعب لكثرة الانكفاء على الأوراق، كان عليّ أن أستريح لكي أستطيع التفكير.

نهضتُ إلى المطبخ لأعد بعض الشاي، أغسل الأواني التي تتراكم باستمرار وكأنها كائن حي يستمر بالنموّ بلا توقف. هل أخبرتك عن الوضعية المثلى التي تساعدني على التأمل؟ الحقيقة أن كلّ الأفكار التي تراودني تأتيني أثناء قيامي بتنظيف الأواني في المطبخ، صدّقني، كانت أجاثا كريستي تقول " كلّ حبكات رواياتي البوليسية أهتدي إليها وأنا أغسل الصحون، لأن هذا العمل الغبي يدفعك بشكل لا إرادي للتفكير في القتل." على الأقل أنا لا أفكّر بالقتل. هذا الصنبور بحاجة للإصلاح بالمناسبة.

لم يخطر ببالي سابقًا أن كلمة خامدون تعني انتهاء ثورة البركان واختفاء المدن تحت الرماد، لكنَّ تخيُّلي للأمر بهذه الصورة يبدو منطقيًّا أكثر. ما أذكره من الفيلم الوثائقي "اليوم الأخير في بومبيي" أن البركان بدأ ثورته في ظهيرة 24 أغسطس 79 للميلاد واستمر ما يقارب عشرين ساعة ليخفي بعدها ملامح المدينتين تحت الرماد.

إذا كان الأمر كذلك، فإن البركان انتهى من مهمته في إخماد الحياة بعد عشرين ساعة من ظهيرة يوم 24 أغسطس. وهذا ينقلنا إلى صباح اليوم التالي مباشرةً وهو 25 أغسطس آب 79 للميلاد.

هذا يعني أن حساب التاريخ يصبح كالتالي:

25 "اليوم"+4 "آب"+79 "السنة "+145 "للميلاد "

= 253 ويساوي أيضًا عدد الكلمات من بداية سورة يس إلى نهاية القصة الواقعة في الآية 29 مؤرخة بلفظ خامدون.

هل تصدق هذا؟؟

تركت بقية الأواني في المطبخ ورجعت إلى الحاسوب، جمعت كلّ الفيديوهات التي تتحدث عن بومبيي، كلّ المراجع، كلّ الرسائل والخرائط التي خزّنتها في ملفاتي، كنت أحاول أن أفهم ما الذي حدث في ذلك اليوم، ما هي تفاصيل الكارثة التي حلّت بهم. أنا أقترب بشدة من الحلّ وكل ما أحتاجه بعض الصبر والمثابرة.

من بين الوثائق التي عثرت عليها كان هناك فيلمًا صغيرًا يُظهر مباني مدينة بومبيي ويصوّر محاكاة حقيقية لمراحل انفجار البركان. يُطلق على هذا النوع من الثورات البركانية اسم الثورات البلينية نسبة إلى بليني الأصغر الذي كان أول من وصف مراحلها وصفًا دقيقًا في رسائله لـ تاسيتوس.

كان الفيديو يشرح ما حدث من تفاصيل الانفجار مع التوقيت الدقيق وتوثيق الدمار الذي حدث في مدينة بومبيي.

في الساعة الواحدة من ظهر يوم 24 أغسطس آب من عام 79 للميلاد بدأ البركان ينفث الدخان والمواد السامة والحجر الخفاف على شكل

عمودٍ ارتفع عاليًا في السماء وهو ما شاهده بليني الأصغر وأمه وخاله من مدينة ميسانو على الجانب الآخر من خليج نابولي. لقد تكفّلت الرياح بحمل عمود البركان نحو مدينة بومبيي وابعاده عن المدن الأخرى.

تظهر الآن مدينة بومبيي وقد أظلمت سماؤها بفعل الدخان الحارق تحت رحمة الهزات الأرضية المتتابعة، ثم بدأت أحجام الخفاف المتساقطة تكبر فتقتل المارين بالشوارع. أصبح السكّان حائرين ما بين محاولة الهروب من المدينة تحت أمطار الخفّاف القاتلة أو الاحتماء في منازلهم من الدخان والمخاطرة بالبقاء في المدينة التي لم تشهد حدثًا كهذا من قبل. كانت المقذوفات البركانية تزداد كثافةً وثقلًا مع الوقت، ويزداد بذلك تأثيرها المدمّر على المدينة.

في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، كانت الأصوات القادمة من انفجارات البركان مرعبة، وزن عمود الدخان المرتفع في السماء يزداد مع زيادة كثافة المواد البركانية، السماء مليئةٌ بالدخان الذي لا يظهر للعيون مع ظلام الليل.

ظل وزن العمود الدخاني يزداد إلى أن عَجَزَ الهواء في النهاية عن حمل المقذوفات فبدأ العمود بالانهيار على شكل سيول جارفة وموجات متتابعة بدرجة حرارة تصل ل 500 درجة مئوية أي ضعف درجة حرارة الفرن المنزلي وبسرعةٍ تصل ل 70 كيلو متر في الساعة.

في الساعة السادسة من 25 آب 79 للميلاد كانت هذه الموجات تدفن معها كلّ المناطق المحيطة بالبركان وأهمّها مدينتي بومبيي وهركيولانيُم.

شعور رائع بالاسترخاء بعد ثورة ذهنية عصفت بعقلي لأكثر من شهر في متاهة من الأرقام والحسابات والتحليلات.

هل تصدّق أن تلك الدراسة التي وجدتها على الإنترنت ودلتني على حل أخطائي في الحسابات اختفت؟ لم أعد أستطيع الوصول إليها كما لو كانت سرابًا أو حلمًا. بحثت عنها في كلّ مكان ولم أجدها، كانت صدفةً غريبة أدت دورها في حل الأحجية ثم اختفت، مجرد صدفة أخرى!

***

-7-

الرحيل

هركيولانيُم -64 للميلاد

"ليت أمي كانت معنا اليوم"

كانت هذه كلمات سيسيليا دامعة العينين وهي تساعد بروتُس وتعدل من ثنايا العباءة المنسدلة على كتفيه.

تأملها بروتُس مليًّا كما لو أنه يراها للمرة الأولى ببشرتها البيضاء المحمرة وعينيها الواسعتين السوداوين كلون شعرها الأسود الفاحم الذي تشكله في جمةٍ كبيرة أعلى رأسها، سيسيليا، أخته الكبرى التي كانت ترفض الزواج دائمًا.

مدّ يده ليمسح الدموع التي التمعت على وجنتيها كعادتها دائمًا كلّما أتت على ذكر والدتهم المتوفاة، فأشاحت بوجها عنه لتظهر لهم قوية كما جعلتهم يظنّون دائمًا.

- يجب أن نشكر الله صباح مساء أن رزقنا أختًا مثلك يا سيسيل.

أتاهم صوت والدهم من الخارج يحثهم على الإسراع إذ سيقيمون احتفالًا صغيرًا في منزل يوسيفيُس ابتهاجًا بزواج بروتُس ولِيلِي.

كان داما العجوز ينتظرهم على مقعده في الصالة الخارجية بينما كاميلا تتلفت حولها لتعدل ثوبها تارة وتصفيفة شعرها المزدانة بالزهور تارة أخرى ثم تعود لتُقيِّم شكلها في المرآة الصغيرة التي تحملها.

كاميلا ذات الأربعة عشر عامًا هي أصغر الأخوة، كانت في الثانية من عمرها عندما توفيت والدتهم بعد الحمّى التي أصابتها لعدة أيام دون أن يُجدي معها أيّ علاج. سيسيليا كانت في العاشرة من عمرها آنذاك بينما بروتُس كان يكبرها بعامٍ واحد فقط. كانت صغيرة لكنها استطاعت أن تدير المنزل بمهارة محاولةً بذلك أن تُبعد عن والدها فكرة الزواج مرة أخرى. الحقُّ أن داما لم يكن يفكّر بالأمر إلا ليُريحها من أعباء المنزل، لكنها كانت تُصرُّ دائمًا على أنها بخير ولا تريد الزواج أبدًا، وأنها لا تحتمل فراق أخوتها ووالدها العجوز.

"هيا بنا.. دعونا نذهب"

كان العثور على منزلٍ مناسب لبروتُس هو أكثر المعوِّقات التي اعترضت الزواج، من الصعب على داما توفير منزلٍ مناسب في المدينة المزدحمة حيث يكون بروتُس قريبًا من مكان عمله في دكان الحلاقة، ولذلك لم يستسغ عرض يوسيفْيُس بناء منزلٍ صغيرٍ في أطراف البستان، لأنه سوف يضطر لرحلةٍ يوميّة عبر الحقول خارج الأسوار إلى قلب المدينة، لكنه اضطر لقبول العرض في النهاية.

كان الحفل بسيطًا جدًا، اقتصر على العائلتين ولابيلوس الذي أصرّ على الحضور رغم أنف بروتُس.

كان كل شيءٍ على ما يرام، إلا أن شيئًا لم يكن في حسبان أحد كان يتم في الخفاء؛ فينيدياس آنياس المختبئ بين أشجار الزيتون يراقبهم بصمتٍ مريب كأنما يختزن في رأسه كلّ ما يراه لهدفٍ وغايةٍ تتشكل في داخل عقله. شيءٌ يعلم جيدًا أن فيه خيانةً لصديقه وأنه سيُفسد به حياتهم التي لم

تكن تعنيه في شيء، لكنّه في المقابل سيغيِّر حياته هو إلى الأبد، وهذا هو المهم.

***

تحوّلت الساحة الكبيرة للنادي في قلب مدينة بومبيي إلى ورشة بناء، أعمال ترميم المباني المهمّة والمعابد الكبيرة المتراصة في محيط النادي تسير على قدمٍ وساق، الجميع منهمكٌ في إعادة إعمار بومبيي. إنها مهمّة العبيد بلا شك، يصبّون الخرسانة، يجهِّزون الطوب، يقطعون الرخام، ينصبون الأعمدة والكثير من الأعمال الشاقة التي اعتادوا عليها منذ زمن.

بومبيي لم تتعافَ بعد من آثار الزلزال الذي دمّر معظم مبانيها ولكنّهم يحاولون جهدهم لإعادتها إلى ما كانت عليه من مكانة. غير أن أعمالهم في تجارة البغاء كانت قد تأثرت بشدّة بسبب الدين الجديد.

مكتب العمدة مغلقٌ على من فيه من نبلاء، من يراهم على هذه الحال يخمِّن أنه اجتماعٌ مهمٌّ يناقشون فيه أمرًا مصيريًّا.

في الداخل كان الرجال يتصايحون بعدما وصلتهم أخبارٌ جديدة عن حريق روما، ذلك الذي يعرفون تمامًا أنهم هم من كان خلفه.

قال بالِبيوس: لا أخبار عن سيمون، لم يأتِ لنفهم ما حدث.

فونا: من يدري، لعل الحرس الإمبراطوري قد أمسك به، ستكون مصيبةً لو فعلوا !

بالِبيوس: لا أظن.. لقد مضى شهرٌ على الحادث، وكل من أمسكوا بهم كانوا من أتباع الدين الجديد. أرى أن نُصعّد الهجوم عليهم ونُحمّلهم المسؤولية، إنها فرصتنا بلا شك.

بروكولوس: تعني أن ننشر الأخبار في المدن أنهم هم من كانوا وراء الحريق؟.

بالِبيوس: بالطبع.. ولنكن أول من يبدأ بتعذيبهم وقتلهم، إنها فرصتنا لنوقف هذا الدين عند حدّه.

فونا: ماذا عن سيمون؟.

بالِبيوس: ماذا عنه؟. فليذهب إلى الجحيم، المهم أن نصل إلى الطرسوسي ونقبض عليه.

***

الظلام، الأرضية الرطبة العَفِنة، صدى الصوت الذي يتردّد من بكاء ماركوس بين الحين والآخر، وجرذانٌ كبيرة تنتقل من زنزانةٍ إلى الأخرى بحثًا عن بقايا الطعام وربما بقايا البشر.. كان هذا هو كلّ ما يراه موريتينيوس الذي هتف في شقيقه بعصبية: توقف عن البكاء.

أجابه ماركوس دون أن يتوقف عن النحيب: لقد أضعتنا يا موريتينيوس، قلت لك أن الأمر لن ينجح، ثم أين هو السيد عليه اللعنة.

ماركوس: أووووه.. وماذا يُفيدك البكاء الآن.. لم أعد أحتمل أي صوت.. توقف.. أششششش

تناهى إلى سمعه صوت خطواتٍ قادمة، أحدهم يفتح القفل المعدني الثقيل بصريرٍ مزعج، قبل أن يظهر من فتحة الباب رجلٌ مهيبٌ ضخم الجثة بعباءةٍ داكنة اللون ولحيةٍ كثّة، أدخله الجنود وأقفلوا الباب خلفه. نظر حوله في صمت ثم دخل فجلس في ركن الزنزانة بعيدًا عنهم، أخرج من حزامه قرطاسًا ورقيًّا وجلس يرتّل ما فيه من كلام.

هدوءٌ غريب خيّم على الأخوين ماركوس وموريتينيوس وهما يستمعان للرجل الغريب، لم يعد ماركوس يبكي، وخُيِّل إليهم أن أحجار السجن تستمع معهم إلى التراتيل.

هل كانت موسيقى الكلمات هي التي شدّتهم؟ أم لعله الصدق الذي يخرج مع صوت الرجل كأنه ينتزع معه قطعةً من قلبه ويبثّها إليهم.

استمر الرجل بالتلاوة ساعة أو ساعتين دون أن ينبسا ببنت شفة، ثم توقف عن القراءة ولم يزل الصمت يخيِّم عليهم لا يجرؤون على قطعه.

رفع رأسه إليهما وقال: خائفان مني؟ أم أن الكلام قد مسّ قلبيكما في ظلام السجن وظلمه؟.

لم يجبه إلا الصمت فقال: أنا يوحنّا بطرس.. أخبراني عنكما.

اقترب منه موريتينيوس وجلس بجانبه بهدوء، ثم قال: ما هذا الذي كنت تقرأه منذ قليل؟.

ابتسم بطرس وقال: هذا كلام الله..

بان التأثر في عينيه لوهلة وساد الصمت، قال بطرس: أراك شابًا صالحًا، ما الذي يكدِّر قلبك؟.

- ضائعٌ يا سيدي، أظن أنني ضائعٌ وخائفٌ من العقاب.

- عقاب الله، أم عقاب البشر؟.

صمت موريتينيوس ولم يُجب فاستطرد بطرس قائلًا: اسمعني يا ولدي، إن الله أرحم بعباده مما نظنّ. هو خلقنا وأنعم علينا وذلّل أمامنا سبل الهداية، ثم أمهلنا لكي نعرف طريقه ونرجع إليه، أتراه يعاقب أحدًا إلا إذا استوفى كلّ سبل الصلاح ولم يعد من مجالٍ لإيقاف الظلم إلا بالعقاب؟ إن الله يفتح بابًا للتوبة لا يُغلق حتى تقوم الساعة، أتظن أنه

يُعذِّب بشرًا لو كان ثمة أملٍ بإصلاحهم؟. كلّ الصعاب التي نمرّ بها والأقدار التي قد نظنّها شرًا إنما هي ابتلاءات من الله لنرجع إليه ونعرف الحقّ الذي أرسله إلينا. لو ظننت يومًا أنك ظلمت نفسك ستجد طريق العودة إلى الله أمامك سهلًا مريحًا، إن شئت العودة إليه حقًا. ارجع إلى الله إنه هو الغفور الرحيم. ابكِ يا ولدي ولكن لا تقنط من روح الله، ابكِ ولا تخف من الموت، ما هو إلا نهاية رحلة وبداية أخرى، ومخطئٌ من يظن أن رحلته في الحياة الدنيا هي أهم من الرحلة التي سيسلكها بعد مماته. لا تخف من الله يا صغيري، إنه الله الذي يعرف عيوبنا وسواد قلوبنا ولكنه يتقبّل توبتنا في كلّ مرة نعود فيها إليه، فاهدأ بالًا، ولا تخف.

- من أنت يا سيدي.
- أنا بطرس، عبد الله، أكرمني بلقاء المسيح قبل أن يصعد إلى السماء فأرسلنا لنبلّغ رسالته للعالمين، ونبشِّر بعودته في آخر الزمان، هل أنت مؤمن بالله يا ولدي؟.
- كنت أظنّني كذلك قبل أن ألقاك لكنّني كنت واهمًا. هل تدلّني على الطريق.. أنا حقًا أحبّ الله..

***

لابد أنهم يبحثون عنه الآن، لقد خرج من المدينة دون أن يخبر أحدًا، وربما كانت السيدة تظنّه يبيت في أحضان بغيٍّ ما بعدما أسرف في الشراب.

كانت الخطة تترتّب في ذهنه شيئًا فشيئًا، سوف يتحرَّر من عبوديته وسوف يصبح ذا شأنٍ عظيم رغمًا عن الجميع.

يحلم بالأمر منذ سنين، وإن كان ثمّة أملٍ لديه في أن يتحرر يومًا فلن يكون أسهل من الوشاية بأصحاب الدين الجديد، الغرباء الذين رآهم في منزل يوسيفْيُس فوق التلّة.

لم يفهم أبدًا سر العداء الذي يشتعل في قلوب نبلاء بومبيي تجاه بعض الشيوخ المعتكفين للعبادة والدعوة، لكن هذا لا يهمّه في شيء، كلّ ما يشغل باله حقًا هو إعلانهم جائزةً لمن يدلّهم على بولس الطرسوسي، هكذا كان اسمه، وهو يعلم مكانه جيدًا.

منذ تلك اللحظة التي سمع فيها حكايتهم من بروتُس أصبح يتحيّن الفرص ليعلم مكانهم وتفاصيل رحلتهم، وكان زفاف بروتُس الذي علم عنه بالصدفة هو فرصته ليجمع المعلومات.

الشمس تشرق في وجهه المترقب الذي يخفي خلفه آلاف الانفعالات المتشابكة ما بين الخوف من الفشل والتوتر من عواقب خيانته لصديق طفولته والأمل في حياة جديد منعّمة في الثراء. ماذا لو كان دينهم على حق؟ لن يتركه الإله الذي يدعون إليه يفلت بفعلته.

نفض هذه المشاعر عن رأسه وتابع طريقه على حصانه البُنيّ في اتجاه الشمس التي تبدو كما لو أنها تخرج من قلب بومبيي مدينة الحياة، تفاءل خيرًا مع مشهدها واستمر في طريقه.

كان الحراس قد فتحوا بوّابة السور منذ مدة ليسمحوا للفلاحين وتجّار السمك بالدخول والخروج وممارسة أعمالهم اليومية. سار نحو البوّابة الحجرية مارًا بين الأضرحة التي تراصَّت على جانبي الطريق حيث لم يكن مسموحًا بدفن الموتى في داخل المدينة، فكانت مقابر السكّان وأضرحتهم تتجمّع خارج أسوار بومبيي بجانب البوّابات.

ما زال جانب البوّابة يحمل بعض الدمار الذي أصابها بعد الزلزال، لكنّها بشكلٍ ما كانت قادرة على حماية المدينة بمدخل العربات الواسع والعقد الدائري الذي يتوسط مدخلين صغيرين مسقوفين للمشاة.

يحفظ طريقه جيدًا إلى بيت باكيوس بروكولوس صاحب المخبز الكبير جنوبي ديلابوندانزا، لقد زاره سابقًا حين أوصل بعض الهدايا من السيدة أوريليا إلى زوجة الرجل.

السيدة أوريليا هي السيدة التي يقع آنياس ضمن ممتلكاتها، ورغم كلّ ما قدّمته له وأكرمته به تبقى سيدته والمالك المتحكم به، ولقد أكل الغيظ قلبه بسبب هذه العبودية ولم يعد يحتملها.

وقف أمام باب المنزل وقد بدأت المشاعر التي كان يخفيها خلف قناع وجهه الصارم بالتأثير عليه فارتجفت شفتاه وهو يُذكّر نفسه بالكلام الذي جهَّزه وحفظه وردَّده مرارًا وتكرارًا.

"أريد السيد "

ردّ آنياس على تساؤل عيني الخادم الصامت الذي ظهر له على عتبة الباب فأدخله إلى بهو المنزل بهدوء. خطا بقدميه فوق أرضية فسيفسائية تصور كلبًا أسود اللون ظنَّ المالك ربّما أنه يبعد عنهم الأرواح الشريرة، وتستمر الفسيفساء على كامل أرضية البهو الذي يتوسَّطه حوضٌ مربع الشكل تتجمّع فيه مياه الأمطار القادمة من فتحة المنور في سقف البهو ذو الحوائط الجصية الحمراء.

"من أنت؟. "

أتاه صوت السيد من بعيد قادمًا من الحديقة الداخلية وقد توشّح عباءةً قرمزية اللون فوق ثوبه الأبيض. كان رجلًا في نهاية الثلاثينات أسمر

الوجه ذا أنف ضخم وعينين صارمتين. تراجع آنياس خطوتين إلى الوراء وازدرد لعابه ثم قال: ليس المهم من أنا.. إنَّما المهم هو ماذا لديّ.

قال بروكولوس بتعجّب: هذا لا يعني أن أتحدّث معك قبل أن أعرف من أنت !!

أجابه آنياس المتوتر: أنا فينيدياس آنياس، من هركيولانيُم، أعمل لدى السيدة أوريليا.

قلب بروكولوس شفتيه ولم يبد عليه الاهتمام وهو يقول: تذكرتُك.. هل أرسلتك السيّدة لأمرٍ مهم؟.

- بل جئت بلا معرفتها لأجل أمر مهم يا سيدي.

صمت قليلًا وبان في عينيه التردّد قبل أن يكمل:

إنه الرجل الذي تبحثون عنه، أنا أعرف مكان بولس الطرسوسي.

بان الاهتمام في عيني الرجل ولكنه استمر في مشيه الوقور حول فينيدياس قبل أن ينظر بثبات في عينيه الخائفتين قائلًا: ومن هو بولس الطرسوسي؟.

ازدرد آنياس لعابه مرة أخرى إذ لم يكن يظنّ الأمر بهذه الصعوبة، ثم قال: الغريب يا سيدي.. صاحب الدين الجديد.. الغريبان اللذان تبحثان عنهما في كلّ مكان.

- آها.. جئت من أجل الجائزة إذًا !!"

- نعم، ولكنني أنا من سيحدد جائزتي..

لم يدرِ كيف هبطت عليه تلك القوة المفاجئة بعد جملة السيد الذي هزَّ رأسه مُعجبًا ومطَّ شفتيه وهو يقول: رجلٌ قوي.. وتبدو واثقًا من

معلوماتك. صمت قليلًا ثم قال: ما رأيك لو انتظرت للمساء حين يجتمع كُبراء بومبيي لسماع معلوماتك وتقرير أمرك؟.

أومأ آنياس برأسه موافقًا دون أن يتحدّث، فأشار السيد لخادمه كي يدلّه على غرف العبيد في مؤخرة المنزل لينتظر فيها ريثما يجتمع السادة.

وفي الطريق إلى هناك كانت رأس فينيدياس آنياس تمتلئ بآلاف التساؤلات عن السادة وماذا سيكون رأيهم فيما أتى لهم به.

يا ترى هل ارتاب أحدٌ ما في هركيولانيُم اختفاءه المفاجئ ؟.

***

"ماذا تفعل هنا أيها الأحمق، كيف دخلتَ إلى هنا "

صرخت بوبيا وانتفضت بشدة حين اكتشفت الرجل الذي اختبأ خلف ستائر مخدعها في انتظار مجيئها آخر النهار.

قال الرجل: اشتقت لك، قلتِ أنّك سوف تزورينني بين الوقت والآخر.. لكنّكِ تركتِني وحيدًا.

همست بوبيا: أنت مجنون، أنا الآن زوجة نيرون، ألا تعرف من هو نيرون؟ هل تدرك ما يمكن أن يفعله بي وبك إذا علم أننا اتفقنا على كلّ هذه الخدعة؟ تقرّبي منه وغوايتي له؟ هل تتخيّل مصيرنا حينها؟ لا يجب أن يرانا معًا أيها الأحمق أبدًا.. أبدًا.. هل تَعي ما أقول؟.

أجابها في حسرة: قلتِ سابقًا أن الأمر لن يطول، قلت أنك ستتدبرين الأمر..

غطّت فمه بيدها وهي تهمس "صه.. أغلق فمك أيها المعتوه.. أنت هنا في قصره، كيف دخلت إلى هنا؟". سحبته من يده وأجلسته على الأريكة كما لوكان طفلًا، ثم قالت له بهدوء: اسمعني يا أوثو، لقد كان الأمر

مخاطرةً مجنونةً منذ البداية، تضحيةً مني ومنك في سبيل أن نجلس يومًا على عرش روما، أنت تعرف أن أمل نيرون منعدمٌ في أن يكون له ابن، ولم يبق لديه الآن سواي.. ألا يستحقّ هذا الأمر أن تصبر قليلًا؟.

بدا البؤس على وجهه وهو يهز رأسه موافقًا، فأكملت: عُد إلى هسبانيا حيث كنت، لا أريد منك أن تعود لرؤيتي بتاتًا، لا تأتِ إلى هنا ما لم أرسل إليك، زيارة هذا القصر ليست نزهة، قد يكون ثمنها رأسي ورأسك، هل فهمت؟.. هيا عُد من حيث أتيت..

راقبت شقاءه الذي يُطلّ من عينيه جليًّا وهو يغادر إلى الشرفة ويتسلق الشجرة المجاورة نزولًا إلى الحديقة حيث ألقى عليها نظرةً بائسةً أخرى قابلتها بوجهٍ عابسٍ وهمهمةٍ غاضبة فاستدار واختفى في ظلام الحديقة. انتظرت حتى غاب عن ناظريها ثم تنفّست الصعداء بعد أن كاد قلبها يتوقّف مع مفاجأته.

"الأحمق.. لقد كاد يفسد صبر سنوات".

***

انشغل جميع الخدم والعبيد في إعداد وليمة العشاء التي دعا إليها السيد باكيوس بروكولوس. اجتمع نبلاء بومبيي وتجّارها في غرفة الطعام الكبيرة المطلّة على الحديقة الخلفية الواسعة، وفي الجانب الآخر من الحديقة كان فينيدياس آنياس ينتظر في غرفة تخزين النبيذ، يسترق السمع لأصوات السادة الصاخبة التي تأتيه من أقصى الحديقة..

تأمّل الحديقة الجميلة للحظات بأعمدتها الكورنثية، حوض المياه الذي يتوسطها فتلتمع على صفحته أضواء المصابيح التي أضاءت ليل الحديقة، وشجرة التين العجوز المحمَّلة بالثمار في زاويتها البعيدة التي

تجاور غرفة الطعام. في خياله أحلامٌ كثيرة احتلت تفكيره منذ زمنٍ فدفعته إلى القيام بهذه المغامرة في بومبيي إلى أن وجد نفسه سجينًا في غرفة تعتيق النبيذ لا يدري أتنجح خطّته أم تضيع مجهوداته أدراج الرياح.

"لماذا ظننتُ الأمر سهلًا إلى هذا الحد"، هكذا كان يفكّر حين سمع صوت الخطوات التي تقترب من الغرفة. أحدهم يزيح الستار الملوّن القديم الذي يغطى فتحة الباب ويناديه ليسير معه. استجمع ما تبقى من قواه التي شتّتها الانتظار ولحق بكبير الخدم دون أن ينبس ببنت شفة.

ما زالت الأصوات الصاخبة تصل إلى مسامعه، تتجادل فيما بينها تارة وتضحك تارة، بينما هو يتخبّط في أفكاره محاولًا ترتيب الكلمات التي سيقولها لهم.

توقّف الخادم وأشار إليه كي يدلف إلى الغرفة الكبيرة التي وصلا إليها، ثم تركه وقفل راجعًا.

كان بروكولوس يضحك بهستيرية عندما لمحه يدخل إلى الغرفة فقال من بين ضحكاته:

ها قد جئت.. أيها السادة، أقدِّم لكم، ما اسمك قلت لي؟

أجابه ببرود: فينيدياس آنياس

ضحك ثانية وقال: أجل.. فينيدياس آنياس.. الرجل الذي لديه السرّ.

التفت آنياس إلى الجمع الذي يحدق به، تسرّب بعض الأمل والقوّة إلى قلبه، لديه سرٌّ يهمُّ هؤلاء السادة حقًا، ولن يُضيّع الفرصة التي خاطر من أجلها.

قال بصوت حاول أن يجعله قويًّا وعاليًا: أنا أعرف مكان بولس الطرسوسي.. أعلم مكان الغرباء الذين تبحثون عنهم، أصحاب الدين الجديد، وأتيت أعرض معلوماتي عليكم.

صمت الجميع وبدا آنياس باردًا واثقًا رغم الأحداق التي تراقبه محاولةً الوصول إلى حقيقة ما يخفيه ومدى صدق ما يحمله من معلومات.

قال بالِبيوس: أكمل.. أَرِنا ما لديك.

- لم نتَّفق بعد.

- علام نتَّفق؟ لقد رصدنا جائزة ستأخذها ما إن نقبض على الغريب..

ابتسم آنياس بسخرية وقال: ماحاجتي للذهب وأنا عبدٌ رقيق، أريد حريتي أولًا.. ثم المال.

خيّم عليهم صمتٌ ثقيل قبل أن يقول بروكولوس: سأتكفَّل أنا بالسيدة أوريليا، هل هذا يكفيك؟.

آنياس: ماذا عن ضمانٍ مكتوب؟.

احمر وجه باكيوس بروكولوس وأحاط بيديه رقبة آنياس بقوةٍ أرعبت هذا الأخير: أنت تتحدّث مع أعيان بومبيي، أتطلب ضمانًا؟ ألديك ضمان أنني لن أقتلك الآن؟ ماذا لو كنت كاذبًا؟ ما ضمانك أنت؟.

ارتجف آنياس مع غضب السيد فقال متلعثمًا وقد ظنّ أنه خسر الصفقة كلّها: أعتذر يا سيدي، أثق بشرفكم.. اعذر جهلي وتسرّعي. قاطعه بالِبيوس وقد فقد صبره قائلًا: أين بولس؟.

عدل آنياس من وضع عباءته محاولًا استعادة رباطة جأشه ثم قال: في حقل من الحقول شمال هركيولانيُم، يعيش في بيت رجلٍ يدعى يوسيفُيُس، يجتمعون ويرتلون كلماتٍ غريبة، ويصلُّون لإلهٍ لم أره..

- أكمل.. كيف نصل إليه.
- سوف أدلّكم على الطريق بالطبع، سآخذكم إليه.

***

جلست سيسيليا واجمةً، تتأمَّل الفقاقيع التي كانت تتصاعد أثناء غليان حساء اللحم الذي تجهّزه للغداء. لقد نقصت العائلة الصغيرة فردًا جديدًا بعد رحيل بروتُس إلى أطراف المدينة حيث يسكن مع عروسه ليلي.

لم تعتدْ بعد على خُلوّ المنزل من صوته المازح وضجيجه المُحبّب. لماذا تشعر سيسيليا أنها امرأةٌ عجوز؟ هل هي المسؤولية التي رضيت أن تحملها على كتفيها قد طوّقتها وأحنت ظهرها، أتاها سعال أبيها من الغرفة المجاورة فخطر ببالها أنه أصبح عجوزًا جدًا ومريضًا جدًا، ماذا ستفعل لو أصابه مكروه؟.

أطلّت كاميلا من باب المطبخ قائلة: سيسيل.. هناك من يسأل عن أبي ويبدو عليه الانزعاج، إنه لابيلوس.

- ألم تخبريه أنه مريضٌ طريحُ الفراش..

هزت كاميلا كتفيها بلا اهتمام وهي تقول: لقد أخبرته لكنه مصرٌّ على لقائه.

تذمّرت سيسيليا قليلًا ثم خرجت إليه. كان يقف مضطربًا أمام مدخل المنزل بعد أن دعته كاميلا للدخول. في العادة كان الحب هو أول ما تلمحه في عينيه، ترتبك ويصيبها التوتر وتحاول تجنب اللقاء به. هذه المرّة بدا منزعجًا وقلقًا يتلفّت حوله كأنّ هناك من يطارده.

- ماذا هناك؟ لابيلوس.. ما بك؟.

- إنهم الجنود، جاءت بعض الفرق من روما، ومن بومبيي أيضًا ، كلَّموا العمدة وسيذهبون إلى بيت يوسيفْيُس. يريدون أن يقبضوا على الرجال هناك، لا أدري ماذا أفعل، كيف سنحذّر بروتُس؟.

سمعت أباها ينادي لابيلوس من غرفته، و يبدو أنه انتبه من نومه على وقع أصواتهم. أدخلته إلى الغرفة فقصّ الحكاية على داما العجوز الذي بدأ وجهه يتلوّن ويكفهرّ. نهض من مكانه وأخرج خنجرًا كان يخفيه بين الملابس في الصندوق المجاور للسرير، وضع عباءته على كتفيه بلا اهتمام والتفت إلى سيسيليا التي أمسكت بذراعه قائلة:

ماذا تفعل يا أبي.. إلى أين ستذهب؟.

أزاح يدها برفق وقال: لقد قُضي الأمر، لم يعد بإمكاني حمايتكم هنا، نحن مقبلون على خطرٍ داهم لا يعلمه إلا الله. خذي ما يلزمكم من الحاجيّات وأغلقي الدار جيدًا، ثم اذهبوا مع لابيلوس إلى منزل شقيقته، وسوف أذهب أنا لتحذير يوسيفْيُس وبروتُس.

***

كان آنياس يسير مزهوًّا بالإنجاز الذي أحرزه عائدًا من بومبيي إلى هركيولانيُم.

لقد أرسل بالِبيوس إلى الإمبراطور الروماني يطلب منه العون للقبض على المتسبّبين بحريق روما، فأمدَّهم بكتيبةٍ من الجنود سوف توافيهم أمام مكتب العمدة في هركيولانيُم، حيث كان باكيوس بروكولوس يتفق مع العمدة على تحرير آنياس مقابل أن يدلّهم على طريق بولس ومن معه.

تجمّعت الحامية الرومانية من روما مع حامية بومبيي خارج الأسوار بانتظار أمر العمدة بالمسير نحو الشمال، وكانت الشمس قد بدأت رحلتها لتختفي خلف التلال الغربية المحاذية للمدينة.

سار الحشد يتقدَّمهم آنياس وقد بدأ يتمنّى ألا يلاقي صاحبه بروتُس عندما يصلون إلى منزل يوسيفْيُس. كان يشعر أن كروم العنب التي يلتقيها في طريقه تتّهمه بالخيانة، قلبه مضطرب لكنه لم يَعُد يأبه لأمر أحد بعد الآن، سيكمل طريقه نحو الحرية حتى لو كان فناء روما كلها هو الثمن.

ظهر له بيت يوسيفْيُس من بعيد، وعلى مقربةٍ منه يقبع الكوخ الصغير الذي يسكنه بروتُس. توقف عن السير وأشار إلى المنزل منبّهًا الجنود الذين انقسموا إلى ثلاث مجموعات توجّهت لتطويق المنزل الذي اجتمع فيه ثلاثة رجال كبار السن وامرأةً وطفلة غافلين عما يُحَاك ضدّهم من مؤامرات.

"من أنتم؟"

جاءهم صوت بروتُس ليقطع عليهم تحرّكهم. "ماذا هناك، لماذا أنتم هنا؟ " تلفّت حوله مستغربًا وجود كلّ هؤلاء الجنود. عاجله أحد الجنود بضربةٍ على رأسه أفقدته الوعي وأسالت الدماء من جرحٍ في مؤخرة رأسه. صرخت ليلي التي كانت تُطلّ من النافذة القريبة، فخرج يوسيفْيُس من المنزل فزعًا حاملًا سيفه القصير وقد ظنّ أنهم يواجهون لصوصًا، إلا أن ضربةً من سيف أحد الجنود أصابت خاصرته ليسقط جريحًا قبل أن يفهم القصة. لم يَحتَج الأمر إلى كثيرٍ من العراك لكي يُساق بولس ولوقا ويوسيفْيُس الجريح مقيدين بالسلاسل نحو هركيولانيُم.

"فلنأخذ الفتيات"

قالها أحد الجنود المتبقين بعد رحيل ثُلثا الجيش إلى هركيولانيُم بصيدهم الثمين. التصقت فيبي بأمها وهى تصرخ بينما ليلي ما زالت على الأرض منتحبة تحاول إيقاف الدماء التي تسيل من رأس بروتُس.

"من يأبه.. إنهم مجموعة من الضالين.. سنأخذهم معنا إلى العمدة"، نزل عن فرسه وأمسك بليلي وقد أظلمت الدنيا أمامها بعد أن ذهبوا بأبيها جريحًا وزوجها يرقد أمامها قد فارق الحياة. بدا لها المستقبل أسودَ كلون الظلام الذي بدأ يحيط بها. أغمضت عينيها تحاول إقناع نفسها أن ما تراه ليس إلا حلمًا ثقيلًا.

فجأةً، هبط حجرٌ ضخمٌ على رأس الجندي الذاهل الذي يمسك بها فأسقطه أرضًا بجانب بروتُس. تلفّت الجنود حولهم باحثين عن الفاعل فلم يجدوا أحدًا، لكن الأحجار بدأت بالتساقط عليهم من اتجاهاتٍ عدة بين الأشجار. تراجعوا بشكلٍ عشوائي بعد أن حملوا زميلهم المصاب، وقد قرّروا العودة إلى هركيولانيُم لإحضار المزيد من الجنود للقبض على الجميع.

خرج لابيلوس من بين الأشجار مندفعًا يتفقد بروتُس الغائب عن الوعي ثم حمله على كتفيه بينما سيسيليا تهدّئ من روع ليلي الجَزِعة. كانت سيسيليا قد رفضت البقاء في منزل بولينا شقيقة لابيلوس وأصرّت على اللحاق بأبيها.

"لم يعد البقاء هنا ممكنًا، سنرحل إلى الكهوف.." هكذا قال داما المتّكئ على عصاه.

كان هذا هو ما يخشاه منذ البداية، زفر بتوتّر ثم أكمل قائلًا : لم تعد هذه المدينة آمنة للضعاف والنساء، سنرحل جميعًا.

قال لابيلوس وهو يعدل من وضع بروتُس على ظهره: غربًا يا سيدي.. دعنا نرحل غربًا، أعرف مكانًا على ساحل البحر غرب نابولي بالقرب من كومو.

قاطعتهم فيبي: وأبي.. ماذا عن أبي يا عم؟.

"سيجدوننا يا ابنتي لا تخافي، سيجدوننا حتما عندما يعودون". كان داما يهدئ من روعها، لكن الحقيقة أنه لم يكن يدري إذا ما كانوا سيعودون حقًا أم لا.

***

الكَهْف

النَّصِيحَة الرَّابِعَة:

لا تَخَفْ من المُغَامَرة

لا تَخَفْ من الاخْتِلاف

لا تَخَفْ

***

في قلب الصندوق المغلق الذي يخبّئه البشر في دواخلهم سنجد كلّ شيء، كلّ الكِذبات التي صدّقناها، كلّ الكِذبات التي لم نشأ أن نصدّقها، وكل الكِذبات التي كانت أصدق من أن نكذّبها ولكنها في النهاية كانت كِذبة.

وهناك في عتمة الصندوق وجب على كلٍّ منّا أن ينظف أوراقه كلّ حين. بعض هذه الأوراق قد تؤذيه ذات يوم حين ينظر إلى حصيلته من الأقاصيص التي أضاع فيها وقته هدرًا، أو الحكايات التي أوجعت قلبه بلا فائدة.

لا شيء يدوم إلى الأبد، ولا شيء يختبئ الى الأبد، هناك دائمًا نقطةٌ ترتفع فيها الغمامة عن عينيك فتعود بصيراً كما في فطرتك الأولى التي خلقك الله عليها.

صدّقني، الله وحده يفعل ذلك، الله فقط من يُعيد البصيرة لمن سأله الهداية. والله فقط يمكن أن ينجينا من الظلام الذي يمنعنا من رؤية الحقيقة.

***

-1-

كهف سابيلا

هركيولانيُم - 64 للميلاد

كان الظلام يلفّ الميناء في صباح ذلك اليوم على ساحل هركيولانيُم عندما خرج لابيلوس ومن معه خفيةً متوجِّهين إلى قاربه للهروب من المدينة، بعد أن كانوا قد قضوا ليلتهم في منزل بولينا شقيقته.

بدا الرعب على وجه سيسيليا عندما رأت حجم القارب الضئيل فقالت: كيف سيحملنا قاربك الصغير هذا يا لابيلوس؟ إنه بالكاد يتسع لأربعة أشخاص.

تلفَّت لابيلوس حوله في حيرة، نقل بصره بين داما العجوز وبروتُس المصاب وخمسة نساءٍ أصبح هو مسؤولًا عنهم فجأة. قد يعود الجنود للبحث عنهم في أية لحظة، والطريق البحري أسهل وأقرب بكثير من الدوران حول مدينة نابولي، حيث لا مجال لدخول المدينة المكتظة دون لفت الانتباه. عصفت الحيرة بعقله وعجز عن التفكير، إلى أن أنقذه صوت داما وهو يسأله: كم من الوقت تحتاج رحلتك إلى الكهف؟.

صمت لابيلوس لبضع لحظات يحسب الوقت ثم قال: سأصل هناك في الظهيرة.

- أي أنك ستعود إلى هنا قبيل المغرب، أليس كذلك؟.

بدا عليه عدم الفهم فأوضح داما: ستأخذ بروتُس وليلي وفيبي وأمها، أوصلهم للكهف ثم عُد إلينا بسرعة. سنبقى بانتظارك قرب تلك المغارة هناك.

الصمت مريبٌ في أوقات كهذه، والارتباك يسيطر على الجميع لأن الخوف من المجهول يُعجزهم عن التفكير. ركبوا القارب الصغير وبدأت رحلتهم في الابتعاد عن المجتمع الروماني بكل تعقيده وظلمه إلى حيث اقترح عليهم لابيلوس في لحظةٍ هداه الله فيها إلى مكان آمن كان يلهو به دون أن يعرف أنه سيكون ملجأه في يوم من الأيام.

بدأ القارب يبتعد ويصغر إلى أن اختفى عن عيونهم تمامًا. سيسيليا ليست خائفة بقدر ما كانت تفكر في المستقبل الذي ينتظرهم. قبل أيام كانت تظنّ حياتهم ستمضي بمللٍ شديد بعد زواج بروتُس. لم تكن تَهمُّها الحياة منذ أن أصبح قلبها عجوزًا، إلا أن جلَّ قلقها هو على مستقبل كاميلا الخائفة التي تحتضنها الآن لتخفِّف من رعبها، تذكرّت بروتُس المصاب الذي رحل في القارب فقالت لنفسها "هو بالكاد بدأ حياته يا الله.. فاحفظه لنا ".

نظرت إلى أبيها العجوز المنهك الخائف على أولاده، عاش كلّ حياته بقلبٍ مثقلٍ بالعبودية وسوف يضطر للهروب من شبحها من جديد مع عائلته بالكامل.

- أبي.. هل أنت بخير؟.

- أنا بخير يا ابنتي.. لا تخافي.. هل نامت كاميلا؟.

تبسَّمت رغمًا عنها عاجزةً عن فهم أختها المراهقة التي كانت تموت رعبًا قبل قليل وإذا بها تنام على كتفيها بكل وداعة.

عدَّلت من وضعها لتريحها في نومها وعادت تفكر في الحياة القادمة البعيدة كلّ البعد عن الرتابة التي توقّعتها.

بدأت الشمس في الاختفاء خلف التلال البعيدة، ولم يعد القارب بعد، فهل سيكون عليهم المبيت هنا على هذا الشاطئ بينما كلّ الحامية الرومانية تبحث عنهم في محيط هركيولانيُم؟.

"ها هو القارب قادم.." قالت كاميلا التي استيقظت قبل قليل.

للمرة الأولى تجد قلبها يرتجف وهي ترى لابيلوس، وللمرة الأولى أيضًا يراها تبتسم له. كان البحر هادئًا وديعًا لكن القارب ضيقٌ إلى حد ما. طمأنهم لابيلوس قائلًا: لن تكون الرحلة طويلة فلا تخافوا.. عندما نصل هناك سيكون علينا أن نقطع بعض المسافة بين الأشجار، فالكهف مختفٍ خلف الأحراش.

انطلق بهم القارب خارجًا من خليج نابولي ودار حول سواحل ميسانو وشبه الجزيرة ليعود ثانيةً إلى السواحل الرومانية بالقرب من كومو حيث الأحراش الممتدة الخالية من البشر.

عندما رسا القارب واستقر على رمال الشاطئ في منتصف الليل المظلم تنفست سيسليا الصعداء وجلست قليلًا على الشاطئ وقد توقّف عقلها عن التفكير فاستراحت من الهواجس التي تلاحقها منذ زمن. يبدو أن المغامرة هي كلّ ما كانت تحتاجه لكي تخرج من عزلتها التي فرضتها على نفسها.

"لا وقت لدينا للّعب سيسيل، هيا بنا.." أتاها صوت لابيلوس يحثّها على النهوض فسارت خلفه تساعد أباها على تسلّق المنحدر الرملي في طريقهم إلى كهف لابيلوس السري.

كان الظلام يمنعهم من رؤية الطريق بين الأشجار الكثيفة، تساءلت كيف يحفظ لابيلوس الطريق؟ لم تستطع أن تنكر في داخلها أن قلبها بدأ يدقّ بشكلٍ مختلف وهي تتابعه ببصرها كأنه الملاك المنقذ الذي يقودهم بعيدًا عن الهلاك. لكنها كانت توّنب نفسها بشدّة في كلّ مرّة تكتشف هذا التفكير وهو يتسلل إليها.

"ياااااه... إنه جميل جدًا" قالت كاميلا وهي منبهرة بشكل الكهف المنحوت بدقة بعد أن انعكس عليه ضوء القنديل الذي أشعله لابيلوس، مغارة واسعة لها مدخلٌ مضلع السقف يستحيل وجوده في الطبيعة، إنما يبدو أنه قد نُحِت على يد بشرٍ مرُّوا من هنا قبلهم.

"كيف عثرت عليه، لابيلوس.." تساءلت كاميلا.

أجابها لابيلوس وهو يقودهم عبر ممرٍّ صخري منحدر في طريقهم للكهف: في صغري، كنت ألعب هنا دائمًا عندما أُبحِر مع أبي، يتركني أبي على الشاطئ حين يبدأ بالصيد فآتي إلى هنا. ومازلت أهرب إليه كلما تعبتُ من الحياة..

ظهر لهم ضوءٌ يقترب من بعيد فقال لابيلوس وهو يقودهم إلى داخل الملجأ الجديد "إنها ليلي لا تخافوا "

سبقتهم كاميلا وهي تركض في اتجاه ليلي حاملة المصباح، بينما أسندت سيسيليا والدها الذي أنهكه السير بعد الرحلة البحرية التي لم يكن معتادًا على مثلها، بالإضافة إلى مرضه الذي لم يتعافَ منه بعد. كانت سيسيليا تفكر في حياتها الجديدة، يا ترى ما الذي تخبّئه لهم هذه المغارة الجميلة؟ وإلى متى سيتمكّنون من العيش فيها بعيدًا عن المدن وأهلها؟.

***

الظلام الذي اعتادته أعينهم في الأسفل جعل من أشعّة الشمس ضيفًا غير مرغوبٍ به، أغمضا عينيهما بألمٍ ما إن خرجا من الحبس الذي دام شهرين لا يعرفان فيه أحدًا سوى السجّان الذي يُطلُّ عليهم مرةً واحدةً بالنهار ليُلقي لهم بعض الطعام العفِن، يرافقهم بطرس الذي واساهم بتلاوته حتى أَلِفَهم وأَلِفُوه، وتلك الفئران الكبيرة التي تعبث بين الحين والآخر بأقدامهم تبحث عن بقايا الطعام فلما تفشل في العثور عليه تنتقم بقضم أصابعهم. جلودهم محمرَّةٌ مليئةٌ بالبثور بعد أن نَشَرت بها الرطوبة ما عرفوه من أمراض وما لم يعرفوه.

لماذا أخرجهم الجنود؟ لا أحد يعرف، ولكنهما أخفيا أعينهما بأيديهما خوف أشعة الشمس فقادهم أحد الجنود إلى عربةٍ مسيَّجةٍ مكشوفة يجرُّها حصانان. إلى أين يأخذونهما؟ لا أحد يعرف.

بعد مسيرةٍ دامت ساعات، خارجين من روما متجهين جنوبًا، لاحت لهم مدينةٌ بأسوارٍ ضخمة وبوّابة مُشرعة كوحشٍ رابضٍ ينتظر أن يبتلعهم. الشوارع جميلة، لكنّهم ليسوا في حالٍ يسمح لهم بتأمل جمال المدينة، استسلموا لذلك الرعب الذي يُسيطر عليهم بعد أن عجزوا عن معرفة مصيرهم الذي يسيرون إليه حثيثًا.

انتصب المدرَّج الروماني الضخم أمامهم، وقد توقّفت العربة على أبوابه، فسحب الجندي أغلالهم بشدّة حتى سقط ماركوس من العربة على وجهه وسط ضحكات الجنود. يسيرون وقد تجمّدت نظراتهم بلا أي تعبير، حتى ذلك الرعب الذي احتل كيانهم فشل في الظهور على ملامحهم مع ذلك الجبل الجليدي الذي سيطر عليهم. ساروا بالممرات

المسقوفة، وكان ماركوس يَعُدُّ الأقواس الحجرية التي تمرُّ في طريقهم.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. يبدو أنه فقد عقله في الطريق.

الآن هم في منتصف الساحة الضخمة يتلفتون حولهم ليشاهدوا الكثير الكثير من البشر الهائجين الصارخين. تساءل ماركوس" هل سنتعارك يا موريتينيوس، ألهذا أتوا بنا إلى هنا؟".

صمت موريتينيوس ولم يعرف بم سيجيب أخيه الصغير. أحدهم يرمي لهما بسيفين من مكان ما، نظر ماركوس للسيوف بهلع، ثم نقل بصره إلى أخيه قائلًا له "سنموت يا أخي، أليس كذلك ؟".

عانقه موريتينيوس في صمت.

صوت هياج الجمهور يصمّ آذانهم، لقد جاءوا لرؤية الدماء، الموت، العراك. ارتفعت الأصوات الصاخبة اللاعنة تملأ الفضاء؛ يبدو أن صبر الرومان على الأخوين قد نفد.

فُتحت بوّابةٌ حديدية بجانب الساحة ومن خلفها يعلو صوت الزئير المرعب الذي هلَّلت له الجماهير الهائجة المتعطّشة للدماء. التَفت الأخوين للبوابة في هلع، يبدو أن اليوم هو الموعد المقرّر لموتهم في جميع الأحوال.

***

حمل بلينيوس جزءًا من النبات الذي وجده في الحديقة بعطفٍ غريب ثم ناوله لأحد الخدم كي يأخذه إلى مكتبه حيث سيُملي ملاحظاته على سيسيليوس تلميذه الذي يرافقه دائمًا.

بالقرب منه، كانت شقيقته مارسيلا تراقب طفلها الصغير الذي يلاحق القطط في الحديقة، التفتت إلى بلينيوس قائلة: هل تعتقد حقًا أن المسيحيين هم من حرقوا روما، أتباع الدين الجديد أعني؟.

- مازلت تصدّقين كلّ ما تسمعينه يا عزيزتي، لماذا يحرقون روما؟ ماذا يستفيدون لو أنهم فعلوا؟.
- الجميع يقول ذلك، الجنود يبحثون عنهم ويقتلونهم، لابد أنهم فعلوا شيئًا.
- لقد كانوا يتربّصون بهم منذ البداية، فما الجديد في ذلك؟ على كلّ حال لم أعد أصدِّق شيئًا ما لم أره بأمّ عيني، أنت تعلمين مثلي تمامًا من هو نيرون وما الذي يمكن أن يفعله، انظري إلى ما فعله بسينيكا المسكين وهو الذي عاش دهرًا معلّمه المخلص فلمّا أصبح امبراطورًا حاكمه ونفاه وحبسه في داره، ثم ها هو يلفّق له تهمة التآمر عليه ويجبره على الانتحار. لا أصدق إلا ما تراه عيني، كلّ شيء عدا ذلك يقع في منتصف الطريق بين الحقيقة والكذب.

رفعت مارسيلا حاجبيها في استغراب قائلة: أنت كثير الشك يا أخي، تتوهم الكثير من الأشياء، تعترض على كلّ شيء في الإمبراطورية منذ تركت العمل معهم.

ضحك بلينيوس كثيرًا ثم قال: الشك هو الحقيقة الوحيدة في الحياة، لولا الشك لم نصل إلى اليقين، وأنت تصدقين كلّ شيء يا عزيزتي، ثم إنني تركت العمل معهم لكوني أعترض على كلّ شيء يفعلونه وليس العكس. لن أشارك في هدم البلاد، فليفعلوا ما يريدون دون أن ألوّث يدي أو لساني بجرائمهم.

نظـر إلـى الطفـل الـذي مـا زال يلاحـق القطـط دون أن يتعـب فابتسـم واستدار ليلحق بالخـادم إلـى مكتبـه حيـث يمضـي أكثـر أوقاتـه فـي جمـع موسوعة الطبيعة بلا سأم، العلم وحده من يمكنـه أن يـؤنس وحدتـه ويفهم تقلّباته وأفكاره.

***

كومو - 66 للميلاد

صمتٌ مهيبٌ لفّ الشاطئ وقت شروق الشمس لا يقطعه سوى التتابع الرتيب للموجات المتتالية وصوت التحامها بالرمال الصفراء على الشاطئ. بدت ميسانو بعيدةً عنهم حيث يرقد بها الأسطول الروماني في العادة ما لم يكن يجوب بحر الروم. قلَّما تقترب الطيور البحرية من هذا الشاطئ المهجور إذ تفضل الغنائم الدسمة على شواطئ ميسانو وهركيولانيُم.

كانت سيسيليا قد اعتادت على الاختلاء بنفسها على الشاطئ في الصباح الباكر فلا تكون مضطرةً للحديث مع أحد. مضى على وجودهم في المغارة التي تختفي بين الأشجار على شواطئ كومو عامٌ ونصف منذ قبض الرومان على بولس ورفيقيه لوقا ويوسيفْيُس. لا أحد يعرف ماذا حل بيوسيفْيُس وهل نجا من الطعنة التي أصابته أم لا.

ليلي أنجبت طفلاً جميلًا منذ شهرين أسماه والده بروسيوس. إنها المرّة الأولى التي تشاهد فيها سيسيليا ولادة طفل. وجودهم في هذه البقعة المنعزلة جعلهم يضطرّون للكثير من الأشياء التي لم تخطر ببالها يومًا، لكن الحياة هنا جميلة برغم كلّ شيء.

هناك بئرٌ في شمال مدخل المغارة، كانوا مضطرّين لتنظيفها عندما وصلوا للحصول على المياه. لقد بذل لابيلوس جهدًا كبيرًا ليجعل من إقامتهم هنا مريحة، كان عليه أن يذهب بالقارب كلّ أسبوع إلى ميناء هركيولانيُم ليستطلع الأخبار ويحضر لهم الخضراوات وكل ما يحتاجونه للحياة. أقنع أخته وزوجها بالانتقال إلى بيت يوسيفْيُس للعناية بالبستان وانتظار أيّة أخبار عن الرجال الغائبين، غير أن لا أخبار ظهرت منذ ذلك الحين. داما العجوز أصبح بصحةٍ جيدة؛ يبدو أن هذا المكان يلائم صحّته أكثر بكثير من ضوضاء المدينة وأسواقها، أو لعلها رائحة الحرية التي كانت دواءً لمرضه.

الحريّة.. لم تعرف سيسيليا معنى هذه الكلمة لأنها لم تشاطر أباها ذكرياته من قبل ولم تتخيل حجم هواجسه التي كان يحاول أن يحميهم منها. الحريّة، أيستحق الأمر كلّ هذه المخاطرات؟.

لم تنتبه لقدوم ليلي بقدميها الحافيتين تنثر بهما الرمال في طريقها إلا بعد أن جلست بجانبها وهي تقول: تأخّر لابيلوس هذه المرة، ربّما كان لديه بعض الأخبار عن أبي.

ساد صمتٌ ثقيلٌ على المكان قبل أن تقول سيسيليا: ألم يستيقظ بروسيوس الصغير؟.

ضحكت ليلي وقالت: لا الصغير ولا أبوه ولا جده.

ابتسمت سيسيليا وعادت تتطلّع للموجات الرتيبة المتتابعة و صوت التحامها مع الرمال وقد اعترفت لنفسها أن لابيلوس قد تأخّر هذه المرة بالفعل، هل تشتاق إليه حقًا؟.

***

لم يعد للوقت أيُّ تأثيرٍ عليهم في هذا المكان، ولولا حمل ليلي وولادتها ورؤيتهم للصغير يكبر أمامهم لظنُّوا أنهم ما أتوا إلى هنا إلا بالأمس القريب. هناك سحرٌ غريبٌ يسبغه البحر على من يجاورونه ويتوحّدون معه في مثل هذه الشواطئ التي تخلو من آثار البشرية. يُقال إن حوريات البحر لا يكبرن أبدًا، هل هناك حوريات للبحر حقًا؟ إن كان لا، فما هو ذلك الصوت الذي يناديهم كلما انتصف الليل فيشعرون معه بخدرٍ غريب، أيكون هذا هو صوت البحر حين تكفُّ ضوضاء البشر عن ملاحقة إيقاعه.

بدأت ملامح الخريف تشتد قسوةً معلنةً قرب دخول الشتاء؛ رياحٌ باردةٌ خفيفة تُعرّي الأشجار القابعة خلف كثبان الشاطئ في طريقها للمدن، تلك الأشجار التي ألِفُوا جِوارها وأَخْفَتهم عن أعين الغرباء والمتطفِّلين.

كان بروتُس يشعل النار في الأغصان والحطب الذي جمعه من أجل التدفئة للشتاء القادم، من يدري كم سيمكثون هنا. اقترب والده وجلس بجانبه ينعم بدفء النيران التي انتصرت أخيرًا على رياح البحر فتعالى لهيبها مُصدرًا صوتًا غريبًا ربّما بسبب رطوبة الحطب.

قال داما في قلق: لقد تأخر لابيلوس فعلًا، مضى أسبوعٌ على ذهابه، ولم يخبرنا أنه سيتغيب كلّ هذا الوقت.

أجابه بروتُس وهو يعدل من وضع الأخشاب في النار: لا تقلق يا أبي، لدينا ما يكفي من المؤن.

- أخشى أن تقبض عليه الحامية الرومانية، لست أتحدّث عن المؤن.

- ليس لديهم سبب ليفعلوا، لا تشغل بالك، سيكون بخير بإذن الله.

***

-2-

فيزوفيس

غزة - 20 مايو 2016

بعد أسبوعين من الآن سيدخل رمضان، لابد أنك مازلتَ تذكرُ كيف تمتلئ الشوارع بالزينة والفوانيس والأقمشة الملوّنة في هذا الوقت من السنة.

منذ انتهاء الحرب وأنا أرى الناس يبالغون في إظهار احتفالهم بقدوم رمضان؛ فانوسٌ ضخمٌ يزيّن زاوية الصالة مع حبلٍ يحمل مجموعة من النجوم والأهلّة المُضيئة يتدلّى على امتداد الحائط، مفرشٌ من قماش الخيامية الملوّن وبعض الوسائد من القماش نفسه ومَضْيَفةٌ جميلةٌ على شكل هلال فيها بعض الفواكه المجففة، يقف بجانبها صباب القهوة الذي تزيّن بجملة رمضان كريم.

كنت أستغرب كثرة المتسوّقين برغم ضيق الحال الذي يعصف بالمدينة، لكن سكّان هذه المدينة على ما يبدو مصرّون على الحياة، مصرّون على سرقة الفرح من قلبِ الأوجاع التي تفترسهم افتراسًا. كلّ هذه المبالغات في إظهار الاحتفال ما هي إلا علامات على المقاومة، مقاومة الموت تحت أنقاض غزة الجاثمة على قلوبهم.

ذات مرة حاولت أن أقلّدهم في التزيين والاحتفال، فإذا بابني حميد يقول لي: هذه بدع يا ماما، عن أي فانوس تتحدثين؟ هل كان الرسول يفعل ذلك..

الحقيقة أنه أَلْجَمَني بجوابه فلم أَدرِ هل كَبُرَ قبل أوانه فتجاوز سنوات عمره الثلاثة عشر أم أنني أزرعُ الكآبة في أولادي دون وعيٍ منّي، أو لعلّه كان يتهرّب من الذهاب لشراء حاجيّات الزينة فاخترع هذه الحُجّة.

كنّا قد استعجلنا على مناقشة مشاريع التخرّج لطالبات الفنون لكي نُنهي الفصل الدراسي قبل دخول رمضان. هذه الدفعة من الخرِّيجات بالذات تختلف عن أي دفعة، إنَّها دفعةَ الحرب، أولئك الذين استلموا نتائج الثانوية كخبرٍ عابر بين أخبار القصف والدمار.

اكتشفت في أول لقاء جمعني بهن أن أربعًا منهن أو خمسًا فَقَدن منازلهن خلال الحرب. كانت زينب إحداهن، هي لم تفقد منزلها فقط بل فقدت أمها واختها تحت أنقاض المنزل. كانت هادئةً قليلة الكلام في البداية، لكنها تغيّرت قليلًا الآن فأصبحت أكثر إقبالًا على الحياة واندمجت مع الأخريات. هذا لا ينفي أنها كبرت بالفعل قبل الأوان، تعرف ما أعنيه بالطبع، إن محنة الفقد هي قفزة زمنية مرعبة في عمر الفاقدين. أنا أيضًا أشعر أنني هَرِمت.

مشروع زينب كان استثنائيًّا؛ لقد أصرّت على تجسيد تجربتها في الحرب على قطعٍ نحتية من الجص. لم يكن الأمرُ مجرد مشروعٍ للتخرّج، لقد كان تفريغًا لكل الألم الذي يستقر في داخلها. كنت دائمًا أراقبها في صمت بينما تتحاور مع أ. مروان في تصميماتها. لم أكن أجرؤ إلا على الذوبان في اللون الأبيض للمنحوتات فأتراجع بذاكرتي

لعامين مضيا دون أن أتحرر من الجليد الذي سيطر عليّ آنذاك، ربّما لأجل ذلك اعترضت دون وعيٍ مني على تغيير اللون الأبيض للمشروع، كان يمثّل الجليد الذي يأسرني أنا أيضًا. كم كنت أود لو أجد الطريقة التي تحرّرني من هذا الجليد وتُخرج الحمم التي تثور في داخلي.

لدى زينب أختٌ صغيرة أصيبت في الحرب، رأيتها لمرةٍ واحدة في الرحلة الجميلة التي جمعتنا في مدينة النور، الحقيقة أنني أعجز عن وصف روعة ابتسامتها. كانت خجولةً جدًا، غير معتادة على نظرات الناس الفضولية التي تراقبها على مقعدها المتحرك. نحن العاجزون يا صغيرتي، عاجزون عن كلّ شيء بما في ذلك العجز عن الإحساس والشعور، نحاول ما استطعنا سرقة بعض الفرح دون جدوى.

***

أصبحتُ أتوجّس خيفةً في بداية كلّ رمضان، أضع يدي على قلبي وأدعو الله أن يمرّ بسلام. أشعر بالغصّة ذاتها منذ دخل علينا رمضان 2014 بحربٍ لم نعرف كيف بدأت ولا كيف انتهت. الحرب التي عددنا ثباتنا فيها نصراً مؤزرًا، فإذا بنا نعود بفضل السياسة والسياسيين بلا شيء تقريبًا، لا شيء، حصيلة صفرٍ من الإنجازات، وآلاف الشهداء والجرحى والمشردين.

ما زلتُ إلى هذه اللحظة أتساءل عن المكاسب المادية التي وعدنا بها السياسيون عندما كانوا يذيعون بيانات الانتصار، أنا لا أرى إلا فقراءَ يزدادون فقرًا، حصارًا يشتدُّ ضراوةً، معبرًا مغلقًا أمام المرضى والطلّاب العالقين كأنه بوّابة سجنٍ كبير، وبحرًا ملوّثًا مُنعنا من السباحة

فيه. الكهرباء منعدمة بالكاد تصلُ ساعات حضورها إلى ثماني ساعات، ومجموعة من الشركات الرأسمالية الاحتكارية تساومنا على الهاتف والانترنت والكهرباء.

نفضت ضوضاء المشاعر التي اجتاحتني في أول ليلة من ليالي رمضان ونهضت لإعداد السحور. كنت أجهّز إبريق الشاي وأملأه بالمياه عندما خطر لي انني أطلقت اسمًا خاطئًا على البركان. فيزوف هو اسم البركان المعرّب من الانجليزية أو اللاتينية فلماذا استخدم الاسم المعرب وليس الاسم الأصلي؟.

لو شئت أن أحسب الجمّل الصحيح لاسم البركان لاستخدمتُ اسمه الحقيقي كما يُلفظ عند سكان المنطقة من الرومان. جلست أستمع إلى لفظ الاسم كما ينطقه تطبيق جوجل للترجمة أحاول بذلك أن أصل إلى اللفظ الصحيح لأكتبه بالعربية، "فيزوفيُس" أو "فيزوفيوس".

فيزوفيوس : ف ي ز و ف ي و س =

80+10+7+6+80+10+6+60 ويساوي 259

فيزوفيُس: ف ي ز و ف ي س = 80+ 10 + 7+ 6+80 + 10+ 60 = 253

صُدمت هذه المرة من ظهور رقم 253 أمامي، هكذا بكل بساطة يكون جمّل اسم البركان 253؟ هل يعقل أن يكافئ جمل فيزوفيس عدد كلمات الآيات التي تتحدث عن قصة أهل القرية في سورة يس؟ فيزوفيس أيضا؟.

جلست أتابع تأمُّلاتي بعد صلاة الفجر وقد أثارني الوصول إلى هذا الاكتشاف الكبير. كتبت أسماء المدن في الأوراق أمامي وفي عقلي

تتصارع الأفكار. أصعب شيء في بحثي في سورة يس وقصة بومبيي هو تحويل الأسماء الرومانية إلى لفظٍ عربي وكتابة عربية لكي أحسب جمّلها، فيزوفيُس كان سهلًا وكذلك كلمة بومبيي سهلة ليس فيها احتمالات كثيرة:

ب + و +م+ب+ي+ي = 2+6+40+2+10+10= 70

لكن المدينة الأخرى تختلف: هركيولينيام أو هيركيولينيام أو هركيولينيوم وربما هركيولانيُم، أي هذه الأسماء يمكنني اعتمادها للحساب؟ الأمر مُحيّرٌ فعلًا. لذلك كنت أرجِّح لفظ الكلمات بناءً على اللفظ الصوتي لترجمة جوجل.

أنْصَتُّ جيدًا للكلمة واخترت لفظًا من الأربعة كبداية:

هركيولانيُم: هـ + ر+ ك +ي +و +ل+ ا+ن+ي+م

= 5 + 200 +20+ 10 + 6 +30 + 10+50+10 +1 +40= 372

أين يمكن أن أجد تأريخًا لأسماء المدن؟ لدي رقمان: 70 لـ بومبيي و372 لـ هركيولانيُم..

جلست أتأمل النتائج وأفكّر، لو أن الله أخبرنا بأسماء المدن في سورة يس فأين يمكن أن تكون؟ كانت وسيلتي الوحيدة في الحقيقة هي التخمين والتجربة.

إحدى التجارب الرياضية التي جربتها كانت جمع رقم سورة يس مع حساب الجمّل لكلمة يس اسم السورة وعدد آيات السورة فكان الناتج كالتالي:

36 " رقم السورة"+70 " جمّل يس" +83 " عدد الآيات" = 189

وإذا جمعنا جمل بومبيي مع جمل هركيولانيُم كان الناتج:
442=372+70
الرقم بعيد في الحقيقة عن ناتج المعادلة الأولى، ولكننا لو أضفنا عدد253 الذي يمثل عدد كلمات قصة القرية وتاريخ الانفجار وجمّل البركان إلى ناتج المعادلة الأولى لأصبحت كالتالي:
رقم السورة 36 وجمل اسم السورة 70وعدد آياتها 83 وعدد كلمات القصة 253
442=253+83+70+36=
لا أدري إذا كان الأمر قد أصابك بالصدمة كما فعل معي، لكنّ النتيجتين متطابقتان بالفعل!!
في الحقيقة لم أكن قد انتبهت أن جمَّل يس والذي يساوي 70 هو مكافئُ لجمل كلمة بومبيي، فاتني هذا الأمر في البداية.

***

هدوء تام غمر المكان بعد أن نزل الأطفال والشباب إلى بركة السباحة، بينما بقي عدد قليل منّا في الطابق العلوي من الاستراحة التي ارتَدْناها على الشاطئ الشمالي لمدينة غزة.
كنت أرى من شرفة الاستراحة شقتين جميلتين متشابهتين على الطرف الآخر من الشارع العام، كانتا متضرِّرتين بشدة بسبب الحرب، يقولون إن أصحاب المنزل تركوا الشقق وهاجروا إلى الخارج بعد انتهاء الحرب الأولى في 2009.
من بعيد كانت الشمس قد بدأت بالغياب في مشهدٍ طالما كان يأسرني كلمّا راقبته، لكن الأمر كان مختلفًا حين تُلقي الشمس بأشعتها الحمراء

وظلالها المتدرجة على مسجد الخالدي المنتصب فوق مرتفع صخري بجانب الاستراحة. الحقّ أنني لست من مؤيدي البذخ في بناء المساجد إلا أنه كان تحفةً معماريةً بحق، لا أستطيع أن أنكر ذلك.

كانت هذه الرحلة الجماعية كبيرةً إلى حد ما، وكنّا قد قرّرنا أن نختتم بها الإجازة الصيفية قبل العودة للمدارس. زوجة عمي تجلس في الزاوية منشغلةً بحياكة شيءٍ ما بالصنارة، وبجانبها ابنتها ألاء تداعب طفلها الصغير عبد الله، بينما بنان ابنة أخي التي لا أراها تكبر منذُ ولادتها ترقد نائمةً بجانبهم وقد هدأت أخيرًا وكفت عن البكاء.

لقد أصبح لدى أمي الكثير من الأحفاد، حتى إنهم يجعلون الأمر أشبه بروضة أطفال عندما يلتقون. ذلك الطفل هناك هو ضياء ابن أخي عوض، اعترضت كثيرًا عندما قام أخي بتغيير اسمه بعد استشهاد ضياء، لم استوعب الأمر ولم أتقبَّله، كنت أرفض في داخلي رفضًا تامًا أن أسمع الاسم يُنادى على أي أحدٍ آخر، لم أكن أرى أي ضياء غير أخي وكنت أشعر بغصةٍ في حلقي كلّما سمعتهم ينادون الطفل. بقيتُ لفترةٍ لا أجرؤ على مناداته باسمه فأقول "الولد"، "انتبه للولد" "الولد يبكي" أي شيءٍ قد يخطر ببالي دون أن أنطق باسمه، لا أدري إن كان أحدٌ قد انتبه عليّ أم أنّني كنت أبتلع الكلمات ما إن تصل إلى شفتيّ. لكنّ الأيام تمرّ في كل الأحوال ، والزمن قادرٌ على تغيير كلّ شيء.

ألاء هي ابنة عمي أبو محمود، تزوّجت منذ تسع سنوات ولكن الله قدّر لها بعض الصعوبات في الإنجاب حتى جاء هذا الصغير بعد العديد من المحاولات والعمليات والتجارب والتحليلات والأدوية والكثير الكثير من الصداع وتدخلات البشر ونصائحهم والكلّ يُفتي بطريقته.

أستغرب بالفعل قوتها وحديثها عن الأمر كأنه هيّن، ولكنني أصدق قولها المعتاد أن من يصبر يصبِّره الله.

عادت الضوضاء مع انتشار الظلام وإغلاق المسبح وصعود الجميع إلى الشرفة. جلسنا في انتظار مولد الكهرباء لكي ننهي عملية تبديل الملابس للأطفال الجياع، فتخيّل معي الضوضاء الناتجة عن هذا كله.

انشغل الأطفال عَنّا بالطعام وجلسوا في حلقةٍ حول تسنيم زوجة أخي تخبرهم قصة، بينما ذهبت أنا في عالم آخر من خيالاتي إلى أن انتبهت على صوت أحمد ابن أختي ينشد "بأكتب اسمك يا بلادي" ويردد الجميع النشيد معه. تذكّرت حينها أبي فابتسمت، عُدت بذاكرتي بعيدًا، بعيدًا جدًا، إلى حيث كنا أبسط وأهدأ بالًا.

لم أكن أراه إلا مبتسمًا، أقصد أبي، يَتَحيَّن اللحظات التي يقضيها معنا لكي يغني، يضحك، أو ينظر إلينا نظرةً حنونة ويصمت. كان يجيد العزف على العود والأرجن، وذلك الكمان القديم الذي ما زال يحتلّ صندوقه الأسود فوق خزانة أبي القديمة، ما زال كما تركه منذ سنين، نخشى أن نخرجه من الصندوق أو أن نأتمن عليه أحدًا.

الحلوة دي قامت تعجن من البدرية

والديك بينده كوكوكوكو في الفجرية

يلا بينا على باب الله يا صنايعية

يجعل صباحك صباح الخير ياسطى عطية

حفظتُ هذه الكلمات بلحنها منه وما زلت أغنّيها لأبنائي. استغربُت كثيرًا عندما وجدتنا جميعًا -أنا وأخوتي- نحتفظ بأذنٍ موسيقية وندندن بين الحين والأخرى بالأناشيد والألحان، نُنكر هذا علينا أحيانًا ونكتمُه في

نفوسنا مثل سِرٍّ أزليّ، ثم بكل بساطة نبتسمُ حين نضبط أنفسنا وقد جرفنا الحنين إلى أيامٍ مضت فسبقتنا ألسنتنا بالغناء. مؤخرًا اكتشفت أنني أقضي الكثير من الوقت أنشدُ بالمطبخ بمشاركة أطفالي، حميد يحلو له أن يصحح لي الأخطاء في الكلمات، عبد الرحمن يحب أن يغني جنّة جنّة جنّة، وحديثًا صار يطالب بأغنية إنسان لحمزة نمرة، أما شام فتحفظ حيّوا المآذن والقباب جيدًا. ما يهم في الأمر أننا يجب أن ننشد سويًّا ثم نتشاجر مع عبد الرحمن على اختيار الأغنية.

شعورٌ جميل أن تشاطر جَمعًا ما في الإنشاد، رابطٌ غريبٌ يجمع بين البشر إذا غنّوا معًا، تمامًا كما نشعر به في أصوات المرابطين على أبواب الأقصى حين ينشدون سوف نبقى هنا، الغناء يُحيل المشاركين إلى كائنٍ واحدٍ، يجمعهم شعورٌ واحدٌ وفكرةٌ واحدة، ألمٌ واحد أو سعادةٌ واحدة وأحلامٌ واحدة. كنتُ قديمًا أتخيّل عبد الله بن رواحة ينشد أقسمت يا نفس لتنزلنَّ بصوت أبو راتب حاملًا لواء مؤتة مندفعًا فوق الخيل إلى قلب المعركة، أحاول أن أشاطره شعوره وهو يُنشد عالمًا أن ما بينه وبين الموت ليس إلاّ خطواتٍ قليلة. الشعور ذاته الذي كان يُنشد به محمد النجار خلف القضبان كلمات غرباء لسيد قطب لدرجة أبكى فيها الحضور والمحامي الذي كان يدافع عنه.

قاطعت أختي تأمُّلاتي قائلة: أين ذهبتِ؟.

- معكم.. هنا معكم.. أين سأذهب!

- لأنكِ صامتة منذ مدّة.. أنتِ لا تجيدين الاستمتاع بالحياة. هل تذكرين قانون الجذب؟.

ضحكتُ وقلت: ومن يستطيع أن ينساه.

كان هذا مصطلح ضياء المفضّل، قانون الجذب. أنت من تجتذب إليك الحزن وأنت من تجتذب إليك الفرح، الخوف، أو التفاؤل. إنه أنت من يقرّر كيف يكون المستقبل وكيف تتعامل مع الظروف والأقدار، أنت وحدك سبب فشلك ونجاحك، وكل الطاقات الإيجابية أو السلبية تنبع من داخلك، فلا تلُم الحظ أو القدر.

تذكّرت حينها كيف بدأت أدرس الإعجاز العددي وكيف أنني توغّلت في شيءٍ لم أؤمن به من قبل ولا حاولت التعرّف عليه، لقد كان كلام ضياء هو وحده ما دفعني إلى البحث عن بسام جرار وأبحاثه.

- عُدتِ للسَّرَحان.

- ما سرحت.. كنت أفكّر بنفسي وبضياء وكيف وجدتني أدرس كلامه وأنا التي لم تستمع له يومًا إلى أن غرقت في تفاصيل وتفاصيل وتفاصيل لم أتخيّلها.

شرعتُ أحكي لهم عن سورة يس وما قادتني إليه من ربطٍ غريب مع بركان فيزوفيس وصولًا إلى المصادفات الغريبة في الأرقام والتواريخ وحساب الجمّل.

تساءل عماد زوج أختي: وهذا الكلام، ألم يدرسه أحد من قبل؟.

- لا أعرف صراحةً، أنا لم أقرأه في أي مكان، لقد كان عبارة عن مجموعةٍ من الأفكار تظهر فجأةً في رأسي، تجارب أحسبها بيدي، لم أبحث من قبل عن تفسيرٍ سابق للآيات يشبه ما أتحدّث عنه. ما زال العلماء حتى الآن يكتشفون أشياء جديدة عن بومبيي وهركيولانيُم.

- أليس هذا أفضل من السياسة التي شغلتِ نفسك بها.

تنهدت بعمق دون أن أجد ردًّا، من منّا يستطيع أن يتجاهل السياسة؟ كلّ حياتنا أصبحت مرتبطة بالسياسة رغمًا عنّا؛ الغذاء والدواء والعمل والتعليم وحتى السفر والنزهات، الحياة كلها مرهونة بما تجبرنا عليه السياسة، فكيف نتجاهلها؟.

***

-3-

عودة الغائبين

هركيولانيُم - 66 للميلاد

- هذا القارب صغيرٌ علينا يا لابيلوس.

- سيحملنا يا سيدي، ثِق بي، نحن أربعة ولقد جربّناه من قبل.

- أنا ثقيل الوزن يا ولدي، قد ينقلب بنا القارب.

ضحك لابيلوس قائلًا: أنا أيضًا ثقيل الوزن يا سيدي الطبيب، صدّقني.. سيحملنا.

كان لابيلوس يصطحب رجلين إلى القارب، أحدهما كان سمينًا بالفعل، والثاني يسند امرأةً شاحبة أحاطت بها عباءةٌ طويلة غطّتها بالكامل. كانت تبدو واهنة، بالكاد استطاعت الصعود إلى القارب قبل أن يلحق بهما الرجل الآخر ثم يدفع لابيلوس القارب إلى عمق البحر بعد أن حلّ عقدة الحبل التي كان يثبتها في وتدٍ مغروس بالأرض، ويسرع بالصعود إليه.

بدت المرأة شديدة الهزال، صامتةً باردة النظرات، يخيَّل لمن لم يرها تتحرك قبل قليل أنها جثةً قد تصلبت في وضع الجلوس. تبدو جميلة، أو أنها كانت كذلك في الماضي كما يظهر من عينيها الخضراوين بلون العشب في مطلع الربيع، تتلاعب الرياح بخصلات شعرها الأشقر المائل للحمرة والذي تظهر أطرافه من تحت العباءة.

- أما كان يجب أن نتركها عند بولينا لبعض الوقت؟.
- لا أظنّ المكان آمنًا هناك يا لابيلوس، أنت ترى ما يفعله الجنود بالنساء. ثم إنها لم تتكلّم حتى الآن لنعرف قصتها، أتظنها خرساء؟.

ساد الصمت بينهم فترةً من الوقت وقد بدأ القارب بالدوران حول شبه الجزيرة التي تحتلها ميسانو فظهر لهم مدخل الميناء العسكري يرسو فيه الأسطول الروماني.

كانت الشمس قد غربت حين ظهر لهم الشاطئ المقصود من بعيد. لاحت لهم النيران التي أشعلها بروتُس مع والده، وبدا كما لو أن شيئًا ما أصابهم بالهلع فعجَّلوا بإطفاء النيران والركض في اتجاه الأحراش التي تخفي كهفهم الآمن.

- ماذا يجري يا لابيلوس.. لماذا يركضان؟.
- لا أدري يا سيدي، أتمنّى أن أحدًا لم يُصَب بمكروه.. بروووتُس.. هيييي.. بروووتُس.. إنه أنا.. ماذا يحدث عندكم؟.

توقّف بروتُس عن الركض والتفت إلى المركب الذي كان بعيدًا عن الشاطئ. لم يفهم من هم الرجال الذين يتجهون نحوهم على متن القارب، ولعلّه ظنَّ أن الجنود قد قبضوا على لابيلوس وعرفوا مكانهم منه، غير أنه اطمأنَّ إلى حد ما عند سماعه صياح لابيلوس من بعيد.

قفز لابيلوس من المركب بعدما اقترب من المياه الضحلة، قذف بالحبل إلى بروتُس ودفع القارب بقوة حتى أوصله إلى رمال الشاطئ.

"تأخرت كثير يا لابيلوس، أين اختفت كلّ هذا الوقت" قال بروتُس وهو يعانق صديقه ثم يعاونه على جذب القارب بعيدًا عن المياه قدر الإمكان.

لم يكن قد انتبه بعد إلى أبيه الذي كان مشغولًا بمعانقة الرجلين القادمين على المركب وقد غلبه البكاء.

- الشكر للرب أن سلَّمكم، الحمد لله يا صديقي.. ستفرح ليلي كثيرًا بنجاتكم، أين هو بولس؟.

رد يوسيفْيُس: بخير.. هو بخير يا صديقي العجوز كلنا بخير.

نظر لوقا إلى المرأة التي ما زالت تجلس في مكانها بالمركب كأن الأمر لا يعنيها أو يشد انتباهها ثم قال: دعنا ننزل السيدة أولًا ونأخذها إلى حيث النساء.

انتبه بروتُس للأمر بعد أن أفلت من عناق يوسيفْيُس متسائلًا عن المرأة الصامتة التي كان لابيلوس يساعدها على مغادرة القارب.

"من هي المرأة؟."

لم يجبه أحد لكنهم بدأوا يتسلّقون الكثبان الرملية نحو الأحراش حيث ينتظرهم الكهف بمن فيه من بقية العائلة والتي لم تكن تعرف شيئًا بعد عن عودة يوسيفْيُس ولوقا.

***

رقدت السيدة الغريبة صهباء الشعر في ركنٍ صغيرٍ معتمٍ في قلب الكهف أعدَّته لها سيسيليا على عجل. لم يبدُ على وجهها أي انفعال وهي تضم ركبتيها إلى صدرها بهدوء غريب، لم تنظر إلى سيسيليا أو تشكرها وهي تُدثّرها بغطاءٍ صوفي أحاطت به كتفيها. كانت تبدو ذاهلةً عن العالم تمامًا كما كانت في القارب.

بالقرب منهم كان لابيلوس يتساءل "هل هي بخير؟."

"لا أعرف، لا تبدو بكامل وعيها"، ردّت سيسيليا بجفاء ثم صمتت قليلًا قبل أن تتابع: من هي؟.

هزّ لابيلوس كتفيه وعاد إلى حيث جلست العائلة الكبيرة التي ضمَّها هذا الكهف بعيدًا عن هركيولانيُم. كانت فيبي قد نامت بجانب والدها الذي كان يقص عليهم قصتهم منذ رحلوا مع الجنود إلى سجن روما وكيف استطاع بولس إقناع القاضي ببراءتهم من تهمة الحريق الذي اندلع في روما لأنهم لم يدخلوا روما منذ سبع سنوات، وكيف أن القاضي أخرجهم من السجن لأن احتجاز المواطنين الرومان دون دليل على ارتكابهم الذنب سوى ادعاءات لا أصل لها غير جائز في القانون، لكنه بالمقابل منعهم من مغادرة روما حتى وقت قريب.

تساءل داما: وأين بولس إذًا؟.

لوقا: التقينا بأخٍ لنا في روما فانطلقا معًا إلى نابولي على أن يلحقا بنا في أقرب وقت.

يوسيفُيُس: إن الخطر ما زال محدقًا بالجميع، نسمع عن تعذيب المؤمنين كلّ يوم، الكثير من الشهداء سقطوا صلبًا وذبحًا أو بين أنياب الحيوانات المفترسة في قلب حلبات المصارعة، إن الرومان ينقلبون إلى وحوشٍ ضارية تنهش لحوم الضعفاء عند أول فرصة تلوح لهم.

خيَّم الصمت على الجميع يتفكّرون بحالهم، وكيف أنهم قد يعيشون فترةً لا يعلمها إلا الله في هذا الكهف المنعزل في انتظار أن يتغيَّر العالم من حولهم فيأمنوا على أرواحهم.

"من هي تلك المرأة بالداخل يا أبي؟." قطعت ليلي الصمت بسؤالها الذي كان يدور في خلد الجميع منذ قدومهم مع لابيلوس الجالس في مدخل المغارة يعبث بعودٍ في يده ويحرك به التراب غير منصتٍ لما يقولون.

يوسيفيُس: لا نعرف، لا أحد بيننا يعرف حقيقتها، وجدناها في البيت عندما عُدنا إليه منذ أسبوع، كانت مع بولينا بعد أن وجدها لابيلوس مصابةً على الشاطئ. كانت قدماها تنزفان بشدة كأنها كانت تمشي حافية القدمين لمدةٍ طويلة، وهي كما ترون، صامتة منذ رأيناها، لا تأكل، بالكاد نُجبرها على شرب الماء كالأطفال. لا أظنّها ستكون بخير في هركيولانيُم. ربّما نستطيع مساعدتها هنا بشكلٍ أفضل هنا.

تمتمت سيسيليا ببضع كلماتٍ غير مفهومة قبل أن تنهض إلى داخل الكهف متظاهرةً بالرغبة في النّوم. كانت تشعر بالحنق منذ البداية غير أن عودتهم كانت حدثًا جميلًا لا ينبغي لها أن تعكّره بهذه السخافات.

هذا هو إذًا ما كان يشغل لابيلوس في هركيولانيُم. أحسَّت بالغيرة تنهش قلبها وهو شعور غريب لم تعرفه سابقًا بعد أن تخلّت عن كونها أنثى منذ زمن.

امرأةٌ جميلة، ينقذها لابيلوس من الموت ويتعهدها بالعناية عند أخته منذ أسبوع، لماذا قد يفعل ذلك؟.

كانت تعتقد أنها تفهم كيف يفكر الرجال جيدًا ، اعتادت تجاهل وجودهم في حياتها، لكنها تعجز عن فهم مشاعرها هذه المرّة. أغلقت عينيها محاولةً عدم التفكير في أمورٍ سبق واتّخذت قرارًا ألا تكون جزءًا من حياتها، غير أن أصواتهم في الخارج يناقشون أمر المرأة كانت تخترق سمعها فتعيدها مرة أخرى إلى الأفكار نفسها.

"لا نستطيع أن نجبرها على الطعام.."
"لكن الأمر مهمٌ لها.. ولطفلها "
فتحت سيسيليا عينيها لتستوعب ما سمعته جيدًا، طفلها، أي طفل؟ عاد إلى ذاكرتها شكل المرأة التي كانت تدثِّرها بالغطاء منذ ساعة، تذكَّرت كيف أنها استغربت امتلاء بطنها رغم نحافتها الشديدة.. إنها حبلى!

***

"يُحكى أن كهفًا كهذا كان مسكنًا لكاهنةٍ حكيمة عاشت لألف سنةٍ أو يزيد، كان اسمها سابيلا. بعضهم يقول إنها خدعت ملكًا حكم البلاد في قديم الزمان، عندما عرضت عليه الكتب التسعة لنبوءات الحكماء مقابل ثمنٍ كبيرٍ جدًا لم يقبله الملك، عندها قامت بحرق ثلاثة كتبٍ من التسعة، ثم عرضت عليه بقية الكتب مقابل الثمن ذاته فرفض ثانيةً، لم تهتمّ لرفضه وحرقت ثلاثة كتب أخرى، مما جعل الملك يُصاب بالذعر ويقبل بشراء الكتب الثلاثة الباقية بثمن التسعة.
آخرون يقولون إن سابيلا هذه لم تكن تعيش في الكهف بل قابلت فيه فارسًا رومانيًّا بذل مجهودًا أسطوريًّا للبحث عنها، كان اسمه آنياس، وكان لهذا الكهف مائة باب يطلُّ على البحر. كان آنياس يريد منها أن تدلّه على مدخل العالم السفلي في جبل النيران لكي يقابل والده في مملكة الأموات"
استمعت الفتيات ليوسيفُيُس وهو يحكي القصة الغريبة التي يحفظها عن الكهف وقد تسلق بروسيوس كتفيه بينما هم يجلسون على بعض الصخور في مدخل الكهف الغربي.

مضى عليهم أسبوعان منذ عودة لوقا ويوسيفُيس مع السيدة الغريبة. الأيام تمرُّ عليهم بسرعة في عزلتهم وقد اعتادوا على تفاصيل الحياة في الكهف كما لو أنهم فيه منذ الأزل.

قالت كاميلا: هل هي قصة حقيقية؟ أعني هل هذا الكهف الذي نسكنه هو كهف سابيلا؟.

يوسيفُيس: من يدري، يبدو لي كما لو أنه كان مسكونًا من البشر في السابق؛ ذلك البئر والأقواس والدرجات والمداخل، كلّ هذه الأشياء لا تظهر في الطبيعة وحدها.

فيبي: لكنه جميل يا أبي.. هل رأيت أشجار الكستناء في الأحراش قريبًا من هنا، سنذهب جميعًا لالتقاطها عندما تنضج.. هكذا قالت أمي، تريد أن تصنع منها دقيق الكستناء.

نهضت كاميلا قائلة: سنذهب للشاطئ، هل تذهب معنا للشاطئ يا عمي؟ هيا.. فيبيا.

انطلقت الفتاتان إلى الشاطئ دون انتظار أيّ ردٍ من يوسيفُيس الذي فضّل البقاء واللعب مع بروسيوس.

ما زالت السيدة الغريبة لا تتحدّث رغم تحسّنها المستمر، أصبحت تلتفت إليهم عندما يتحدّثون معها، تتناول الطعام الذي تُلحُّ عليها ليلي كي تأكله، وتراقب وجوهم خلال حواراتهم المستمرة بالقرب منها. قبل يومين تبسَّمت للمرة الأولى عندما شاهدت بروسيوس يعابث ليلي ويشدّ شعرها، لكنها ما زالت صامتةً حتى الآن لا تتحدث.

لابيلوس عاد إلى مهامه المعتادة في الصيد وزيارة أسواق هركيولانيُم لبيع السمك وشراء الحاجيات، ومن ثم يطمئن على أخته وعائلتها في بستان يوسيڤُيس.

كان جالسًا على شاطئ البحر ينظف شباكه من العوالق الملتصقة بها ويعيد نسج ما تقطَّع من خيوطها وإصلاحه. بالقرب منه تلعب فيبيا وكاميلا، تجمعان الأصداف، وتلهوان بمياه البحر بأقدامهما قريبًا من الشاطئ. غريبٌ أمر الفتيات، تمنى لو أنّه يفهم كيف تفكران، أو ما هي الوسيلة التي تجاوزتا بها كلّ التوتر والترّقب الذي يحيط بهم، فتمكنتا من الحياة واللعب بهذا البساطة والسلام.

سيسيليا لا تفعل هذا، لم يرها سعيدةً منذ تعرّف إليهم وإلى الآن، ودَّ لو يراها تبتسم ولو لمرةٍ واحدةٍ في حياته، نفض هذه الأفكار عن رأسه ليجد سيسيليا أمامه، لم يشعر بها حين أتت، كانت الشمس تلقي ظلها بعيدًا عن مجال رؤيته فلم يرها حتى جلست غير بعيدةٍ عنه. ارتبك قليلًا فتعقدت حبال الشبكة في يده وتظاهر بالانشغال في إصلاحها.

جلست سيسيليا على رمال الشاطئ غير بعيدٍ عنه تراقب البحر والفتيات.

قال لها قاطعًا الصمت الذي فرضه وجودها: هل هي بخير.. أعني السيدة بالداخل.

هزّت كتفيها وأسندت ذقنها على ركبتيها المضمومتين إلى صدرها ولم تجب تساؤله فاحمر وجهه لتجاهلها وساد الصمت برهةً قبل أن يقول:

لماذا تتجاهلينني؟ أعني ما الذي فعلته لألقى منك كلّ هذا الصد، أنت تعرفين أنني أتمنى فقط أن أراكِ سعيدة، ليس صعبًا أن تتقبّلي وجودي إلى هذا الحد.

أطرقت سيسيليا برأسها ولم تجب فتابع قائلًا: سيسيل أنت لم تعودي صغيرة، في كلّ مرةٍ أصارح فيها بروتُس برغبتي بالزواج منك يخبرني أنك ترفضين مجرد الحديث بالأمر، حججٌ كثيرة لم أفهم منها شيئًا، أدرك تمامًا أنك لست كما تدَّعين، هناك قلبٌ حتمًا خلف هذا القناع الحجري، فقط لو أنك تتحدثين.. اصرخي لو شئت ولكن دعيني أفهم سبب هروبك.

كانت تحاول أن ترتّب الكلمات في رأسها لتخرج قابلةً للتصديق: أنا لا أثق بأحد، لن أترك أبي لأكون مع أحدٍ غيره، لا أحد سيحبني كأبي، أجد الأمر مجحفًا أن أتركه عجوزًا وحيدًا وأرحل إلى أي رجلٍ آخر لن ينظر إلي إلا كجارية اشتراها من السوق.

امتقع وجهه قبل أن يقول بحدة: ماذا تقولين؟ أهكذا ترين الزواج؟ هل تعرفين شعور الجواري يا سيسيل؟ هل كانت أمك جارية؟.

- لا تذكر أمي.

أجبر نفسه على الهدوء ثم قال: هل تعرفين ما هو الحب يا سيسيل؟.

نظرت إليه بتحدٍ قبل أن تقول: الرجال لا يعرفون الحب، الحب الوحيد الذي أثق به هو حب أبي، لا رجل يملك ملامحه أو دفء قلبه أو يجرؤ أن يحبني كما يحبني، أنا أعرف جيدًا كيف يفكر الرجال.. تقول الحب.. ها.. هل تعرف أنت ما الحب؟.. الحب ليس مجرد كلمات تُقال في لحظات عشقٍ محمومة.. ليست فرحةً طاغية تنساب في وجدان أحدٍ ما ثم تتسرب منه بهدوء قبل أن تملأه كأنه إناء مثقوب حتى يتفاجأ بأنه ما عاد يملك قطرةً من تلك الفرحة. الحب.. الحب ليس حزنًا.. ليس دمعًا نذرفه على فقدٍ كان أو فقدٍ محتمل أو فقدٍ ظننّا أنه لن يكون ثم تفاجأنا أننا

نعيشه بالفعل بالتدريج دون أن ندري.. الحب ليس إلا كما أحبني أبي. ولأنني أعرف جيدًا كيف يفكّر الرجال فصدقني، سأبتعد عنكم قدر ما أستطيع."

كان يبدو ممتقع اللون ترتجف شفتاه في غضب. حاول أن يضبط نفسه كثيرًا ولكن الكلمات خرجت غاضبة رغمًا عنه

- وما أدراك كيف نفكر ها.. كيف تحكمين على الحب هكذا دون أن تختبريه، ردي يا سيسيل، أخبريني من تسبب لكِ بكل هذا الألم؟.

انتفضت من مكانها هاربةً باتجاه الكهف، كانت تتعثر في خطواتها تاركةً لابيلوس في حيرةٍ من أمره لا يدري إن كان قد حرّك المياه الراكدة أم أنه قد زاد الأمر سوءًا. عاد إلى شباكه فجمعها وألقاها في القارب دون اهتمام وقد قرّر العودة إلى هركيولانيُم. سمع من يناديه من بعيد فالتفت ليرى لوقا وداما قادمين باتجاهه، تساءل عما جدّ فجعلهما يلحقان به إلى الشاطئ.

لوقا: سأذهب معك يا لابيلوس.

لابيلوس: ماذا عن الرومان يا سيدي.

لوقا: ماذا عنهم؟ دع عنك هذا القلق، أريد أن أزور صديقًا قديمًا في نابولي، أنا لم آتِ إلى هذه البلاد كي أتخفى كالنساء، إنها الأمانة يا لابيلوس.

هز لابيلوس رأسه وساعد لوقا على الصعود للقارب قبل أن يدفع القارب للمياه ويصعد إليه ملوّحًا لداما: سأتغيَّب لبعض الوقت يا عمّاه، انتبهوا لأنفسكم.

***

كانا يسيران وسط الزحام الشديد في شوارع نابولي ظهيرة هذا اليوم، لا أحد يعرفهم هنا في نابولي. تابع لابيلوس السير مع لوقا الذي يبدو أنه يحفظ طريقه جيدًا إلى أن وصلا إلى مدخلٍ ضيقٍ بين المنازل الصغيرة فتوقّفا أمام بابٍ معدنيٍّ عتيق. طرق الباب، فسمع وقع أقدامٍ تقترب منه قبل أن يُفتح بصرير مزعج ويُطل من خلفه رأسٌ أصلع يتساءل عن هويّة الطارق الذي أزعجه وقت قيلولته، ابتسم وانفرجت أساريره ما إن طالع وجه لوقا أمام مدخل البيت.

- سيدي الطبيب، تفضّل، أي رياح طيبة حملتك إلينا، تفضّل يا سيدي.

دخل لوقا من فتحة الباب الضيّق ذو العتبة القصيرة، عانق الرجل العجوز الذي بدا لـ لابيلوس أحدب الظهر بالكاد يستطيع السير مستندًا على عصاه.

قال لوقا مبتسمًا: كيف أنت يا كايوس العزيز؟ مضى وقتٌ طويل لم أرَكَ فيه، كيف هو حفيدك جوناس الآن؟.

- بأفضل حال يا سيدي، هو بخير بفضل الله ثم بفضلك، ذهب للعمل في مزرعة أمّه شمال نابولي منذ أن تماثل للشفاء على يديك، بارك الله فيك.

سار بخطواته البطيئة إلى داخل المنزل وهو يكمل كلامه: سأقوم بتزويجه في أقرب وقت، لا أثق بحياة الشباب كما تعلم. تفضّل يا سيدي.. تفضل.

كان البيت معتمًا إلى حدٍ ما لولا بعض الفتحات الصغيرة التي توزّعت في سقف الصالة الضيقة التي دخلا إليها. استطرد كايوس وهو يقودهم إلى غرفةٍ جانبية على يمين المدخل:

- أصبحتُ أسكن الطابق الأرضي الآن، لم أعد أتمكّن من صعود الدرج، اييييه.. سأترك الطابق العلوي لجوناس عندما يتزوج لو رضي بالسكن معي.

جلس الجميع في الغرفة الخالية من النوافذ بها بعض الأرائك الحجرية البسيطة يعلوها فراشٌ أحمر اللون وبعض الوسائد، ولوحة فسيفسائية جميلة لبعض الزهور تزين الحائط المقابل للباب.

- سأخبر زوجتي أن تجهّز الغداء.
- انتظر يا صديقي، لا تذهب، كنت أتساءل إن كان بإمكاني المكوث هنا في منزلك لبعض الوقت؟.
- أهذا سؤال يا سيدي الطبيب أنت على الرحب والسعة دائمًا، لو أنك جئت هنا قبل أيام لكنت التقيت بالسيد بولس ورفيقه قبل أن يرحلا إلى كومو.
- هل كانوا هنا؟...

هز كايوس رأسه مؤكدًا: أجل، لقد مكثا لأيامٍ قبل أن يرحلا، لم يرغبا بالبقاء طويلًا هنا، رغم أنني أخبرتهم أن نابولي أكثر أمنًا من أي مدينةٍ أخرى.

- المهم أنهم بخير، فليحفظهم الله.

استأذن لابيلوس للرحيل فمنعه كايوس مصرًّا على استبقائه للغداء، إلا أنه اعتذر بلطف مستعجلاً الوصول إلى هركيولانيُم لأنه لا يملك الكثير من الوقت.

كان قد قرّر التغيب لفترةٍ عن الكهف كي يتوقف عن التفكير بما حدث صباحًا وما ألقاه عليه من ظلالٍ بائسة. خرج من المنزل متوجهًا إلى

الشاطئ حتى يبدأ رحلته نحو ميناء هركيولانيُم. توقّف عن السير فجأة عندما لاحظ مجموعة من الجنود يجرّون رجلًا قد قيّدوا يديه وقدميه. لاحظ تورّم وجهه والكدمة الزرقاء الكبيرة التي تحيط بعينه اليسرى، خطر بباله أنه أحد الذين كُشف أمر إيمانهم فساقوه للتعذيب.

لم يعد الأمان موجودًا في أي مدينةٍ رومانية لمن تجرّأ وأظهر إيمانه واتِّباعه دين المسيح، لا بومبيي ولا نابولي ولا روما ولا أيّ مكان، مضى يسير في ظلال المباني الحجرية الكئيبة، وكان قد نسي بعد حياته في العامين السابقين متنقلًا بين الكهف والبحر كم هي الحياة بالمدن رتيبة وتبعث على الكآبة.

***

تحسَّست بوبيا بطنها التي بدأت بالبروز وهي سعيدة أنها أخيرًا ستنجب ولي العهد الذي سيصبح إمبراطورًا. كانت قد يئست من إقناع مجلس الشيوخ بابنها رفريوس كرسبينُس كوريثٍ لعرش نيرون. لم تَدرِ لماذا يكون صعود كرسبينُس إلى الحكم بهذه الصعوبة رغم أن نيرون ذاته هو ابن بالتبني لكلاوديوس، ربّما لأنها لم تكن بسطوة أجربينا.

تشعر في قلبها بتوترٍ عجيب وخوفٍ مبهم من شيءٍ قادم في المستقبل؛ اليوم سيعود نيرون بعد غياب دام ثلاثة أشهر أمضاها يتنقّل في رحلاته الماجنة في مدن اليونان. ما زال الشعب في روما لا يتقبل هذا الهزل ممن يُفترض أنه يحمل اسم عظمة روما إلى العالم.

كانت تقف في الشرفة وقد بدأ التوتر ينعكس على ارتجافة شفتيها القرمزيتين، تحسّست بطنها ثانية وكأنها تطمئن إلى أنها ليست وحدها في استقبال نيرون.

دخل إلى الغرفة صامتًا وجلس على حافة السرير ناظرًا إلى الأرض دون أن ينبس ببنت شفة.

قالت بوبيا: أهلا بك يا سيدي، كيف كانت رحلتك؟.

طال صمته دون أن يجيبها فازداد توتّرها، نظر إليها ثم قال: بلغني أنك تنتظرين طفلًا؟.

ارتسمت ابتسامةٌ باهتة على شفتيها المرتجفتين وقالت: من ذا الذي سبقني بالبشرى، سيدي، أنت تنتظر ابنًا.

صمت قليلًا ثم قال: ومن أخبرك أنني أريد أطفالًا؟ أنت تعلمين أن ما تحميلنه في بطنك ليس ابني.

شحب وجه بوبيا وهي تقول: كيف تقول ذلك يا سيدي..

- شششش.. اصمتي وتحدثي بهدوء.

- كيف تتّهمني بشيء كهذا.

- إنه أنا يا بوبيا، نيرون، تعرفينني جيدًا كما أعرفك جيدًا جدًا، وتذكرين أوثو المغفّل بالتأكيد، فلا تظني لوهلة أنني قد أثق بك.

- سيدي..

صرخ نيرون بهستيريا: أنا.. لا أريد.. أطفالًا.. لا أريدهم منك أنت بالذات. هل تعرفين لِمَ أصبحتُ أقضي وقتي في أي مكان إلا معك، أنا أخاف منك يا بوبيا.. كلما نظرت إليك أرى وجه أجربينا.

تراجعت إلى الخلف في خوف بينما هو يقترب منها قائلًا: كلما اقتربت منك وجدت طيف أوكتافيا يقف بيننا.. أنت شيطان يا بوبيا.. كيف تتخيلين أن يربط بيننا طفل؟ هذا الطفل هو الذي سينتقم لهما.. تمامًا كما فعلت أنا مع أجريبينا.. لا أحد يهرب من جرائمه..

- سيدي.. اهدأ قليلًا.

قال نيرون بهدوء: سأهدأ بعد أن نتخلص من هذا الطفل يا بوبيا.. لا يهمّني أن أعرف من هو أبوه، ولن أسمح له أن يَولد لكي يكبر ويقتلني، سنتخلّص منه يا بوبيا، بهدوء.. أنا أسامحك يا عزيزتي..لا يهمّني كيف جئتِ به..

برقت عيناه وهو يعود للصراخ مكملًا حديثه: ولكنه لن يكون ابني.. لن أتركه يأتي للحياة.

كانت قد وصلت إلى الباب أثناء تراجعها فخرجت تركض في الردهة قبل أن يلحق بيها ويصفعها فتسقط على الأرض، كان في حالة غضبٍ شديد فطفق يركلها في بطنها قائلًا: لا أريد أطفالًا، أخرجيه.

اختبأت أدينا وصيفة بوبيا خلف أحد الأعمدة تراقب المشهد في رعب، كانت عاجزةً عن منع الإمبراطور من ضرب زوجته في بطنها لإفقادها الجنين بينما الدماء تلوث ثوبها الأبيض وقد توقّفت عن المقاومة.

هدأت حركة بوبيا وتحوّل لون فستانها إلى اللون الأحمر بسبب الدماء التي سالت منها فتركها نيرون وعدل ملابسه خارجًا من القاعة بهدوء.

هرعت أدينا إليها تحاول مساعدتها خائفةً من أن تنادي أحدًا قبل أن تتأكد من رحيل الإمبراطور، لكن بوبيا كانت شاحبةً جدًا بعينين شاخصتين. ظلّت تحاول أن تلتقط أنفاسها بصعوبة شديدة إلى أن توقفت عن الحركة تمامًا وفارقت الحياة بين يدي أدينا المرتعبة.

***

-4-

أطياف الذاكرة

كومو - 66 للميلاد

كانت تمشي في الفراغ، يحيط بها ضبابٌ كثيف.. يتردّد حولها صدى صوت لابيلوس وهو يسألها "من آذاك يا سيسيليا.. من آذاكِ إلى هذا الحد".. تؤذيها هذه الكلمات بشدة.. تدير رأسها في كلّ الاتجاهات لعلّها تتعرّف على أي شيء، أو ربّما تجد طريقًا يعود بها إلى منزلها، إلى أبيها، تغلق أذنيها لعلّ الأصوات تتوقف عن اختراقهما، أحدهم يضع يده على كتفها من الخلف فتلتفت إليه في فزع.

"هل أنت بخير؟"

فتحت سيسيليا عينيها لتخرج من الضباب الذي حاصرها في منامها وهي تستغرب الصوت الذي تسمعه لأول مرة دون أن يعطيها الظلام في الكهف أي فرصة لكي تستطلع ملامح محدثتها. انتبهت أنها مستيقظة وأن هناك من يشاركها المكان بالفعل فقالت في رعب: من؟ من أنتِ.. كيف دخلتِ إلى هنا؟.

قامت فزعة وأزاحت اليد التي كانت ما زالت مستقرة على كتفها وهي تحاول إشعال القنديل القريب بيدها المرتبكة.

- لا تخافي يا سيسيل.. هذه أنا.. ألم تعرفيني؟.
- من؟.. من أنتِ؟.

- أنام معك في هذا المكان منذ.. لا أدري منذ متى.. لم أعدُّ الأيام التي مرّت منذ جئتُ إلى هنا على قارب لابيلوس.. أنا المرأة الخرساء يا سيسيل.. لست خرساء.. ظننتك تعلمين هذا.. لا أعرف كيف توقفت الكلمات عن الخروج من فمي.

دققت سيسيليا بملامح المرأة التي بجانبها باستغراب وهي تردّد: يا إلهي، يا إلهي، أنت تتحدثين الآن، يا إلهي، لقد أفزعتني حقًا.

ساد الصمت لفترةٍ من الوقت وكلاهما مطرقتين، أو ربّما كانت كل منهما تنتظر من الأخرى أن تبدأ بالحديث، قالت سيسيليا: ما اسمك؟.

أسندت ظهرها للجدار وهي تقول: جوليا.. اسمي جوليا، أنا من بومبيي، لقد كنت ترتجفين وتبكين أثناء نومك.

- هل كنتُ كذلك؟ ربّما بتأثير الكابوس الذي كان يلاحقني.

صمتت قليلًا ثم قالت: أخبريني قصتك؟ لماذا لم تكوني قادرة على الكلام قبلًا؟.

- قصتي، يا صغيرتي قصتي لا تُحكى، أو لعلّ من الأفضل أن أرويها لك في وقت آخر.. عودي للنوم الآن.

- أي نومٍ هذا، قد كنتُ في قصة وأصبحتُ في قصةٍ أخرى مع استيقاظي على صوتك.

- كنت تطلبين من لابيلوس التوّقف عن الكلام، أقصد في كابوسك، لا أظنّه قادرٌ على أذيّتك يا عزيزتي، فلماذا تراودك الكوابيس بشأنه؟.

صمتت سيسيليا وهي تتساءل عن مقدار ما باحت بها في منامها. شعرت أن صندوق الأسرار الذي تغلقه على نفسها قد بات مفتوحًا ويمكن لأيّ كان أن يطَّلع عليه، بالأمس لابيلوس والآن جوليا، يحاولان اقتحام

قوقعتها التي أغلقتها على نفسها منذ أحد عشر عامًا، هل باتت هشةً إلى هذا الحد.

- لست أتطفّل عليك يا سيسيل ولكنني سأخبرك شيئًا قبل أن أذهب إلى النوم، لابيلوس شابٌ طيب، طيبٌ جدًا.

- هل كنت تعلمين أن هناك طفلًا في أحشائك؟.

ابتسمت جوليا وهي تهزّ رأسها وتلتحف بطانيتها بينما تقول:

من أجل هذا الطفل قاومت وقرّرت النجاة، كنت ميتةً على كلّ حال.. أراك في الصباح يا عزيزتي.

راقبتها سيسيليا وهي تعود للنوم بينما طار كلّ أثرٍ للنعاس من عينيها.

كانت أضواء الفجر الأولى على وشك أن تلوح في الأفق، وما زال الصمت يلفّ المكان. نهضت من مكانها ودثّرت كتفيها بغطاءٍ صوفي وخرجت حافية القدمين تحاول أن لا تتسبَّب بأي صوت قد يوقظ النائمين، نظرت إلى أبيها الذي يرقد بالقرب من فتحة الكهف، تمعَّنت في تجاعيد وجهه المتغضن التي رسمت سنوات عمره المرهقة والتي قضاها محاولًا أن يجعل لهم وطنًا آمنًا بينما تسكن كلّ أنواع الخوف في قلبه. الآن وبعيدًا عن هركيولانيُم في هذا الكهف الموحش وجد الأمان الذي كان يفتقده في المدينة.

"لقد وجدتَ الأمان يا أبتي.. وأنا وجدتُ الحقيقة ترتسم أمامي كاشفةً عن كلّ المخاوف التي سكنتني ".

أكملتْ طريقها للخارج وصعدت الدرجات التي تقود إلى المنصّة المرتفعة التي تخفي وراءها فتحة الكهف. جلست على الحافة تشدّ على كتفيها الغطاء لتخفِّف من برودة نسمات الصباح. تنهَّدت بعمق وهي

تتخيّل أنّ في أعماق كلٍّ منهم كهفًا سريًّا يُخفي فيه كلّ مخاوفه وأحلامه وآلامه، وعلى مرّ السنوات تتراكم هذه المخاوف والآلام حتى لا يعود هناك مجال للتنفّس.

مضت سنواتٌ لم تعد تتذكّر فيها ذلك الحدث الذي جعلها تكره الرجال جميعًا، تتذرّع بالحجج الغريبة لكي ترفض كلّ الذين طرقوا بابها طلبًا للزواج. لا يوجد رجلٌ على سطح الأرض يستحقّ أن تُسلمه نفسها أو تترك أباها من أجله، كان هو السد المنيع الذي يحميهم طوال الوقت.

تذكرَّت كيف أن داما كان مُلزمًا بالولاء لسيده نونياس بيلبوس حتى بعد أن حرَّره من العبودية، هكذا كان القانون، حرية العبد كانت دائمًا مشروطةً بالولاء للسادة السابقين والاستقرار في الطبقات الدنيا من الشعب.

كانت برفقته حين ذهب إلى سيده السابق ليحلق شعره ولحيته. وقفت مبهورةً بجمال الفسيفساء الملوّنة التي تزين الجدران وكانت المرة الأولى التي تدخل فيها منزل نونياس، الأعمدة الرخامية والأثاث الخشبي الرائع المحلى بالمعادن الثمينة. ارتجف قلبها حين تذكرت نباح الكلاب السوداء القادمة من الحديقة الداخلية، كانت تخاف الكلاب، ولكن ما أخافها أكثر هو ذلك الشاب قاسي العينين الذي كانت الكلاب ترقد عند قدميه.

كانت تقف وحدها في بهو المدخل تراقب حوض الماء الرخامي المزدان برسومات الأسماك في منتصف البهو تعلوه فتحةٌ سماويةٌ جميلة. ارتجفت ثانيةً بعدما تذكرت مشهد الشاب الضخم ذو الشعر الأحمر الخشن وهو يقف في المدخل المؤدي للحديقة ويقف بجانبه كلبٌ

أسودٌ ضخم ألقت رؤيته الرعب في قلبها الصغير ذي الثمانية سنوات، تسمَّرت في مكانها تتساءل في داخلها عن مكان أبيها، لم تكن تدري من هو هذا الشاب ولماذا ينظر إليها بهذه الطريقة، رأته يسير نحوها ببطء وما زالت نظراته تخترقها كالرماح، مد يده يتحسس شعرها المنسدل على كتفيها دون أن تجرؤ على التلفُّظ بأي كلمة متمنِّيةً لو أن أباها ينتهي من عمله سريعًا قبل أن يقتلها الرعب.

انتفضت سيسيل وهي تزيح تلك الذكريات عن تفكيرها، تحسّست الدثار الصوفي على كتفيها وشدّته إليها لتوقف تلك الرجفة التي اعترتها لا تدري هل هي بسبب نسمات الصباح أم برودة تلك التفاصيل التي غزت تفكيرها. تذكّرت كيف كان أبوها يتوسّل للسيد أن يتركهم يذهبون، كيف كان يبكي كالأطفال ذليلًا وهو يحتضنها ويدثِّرها بعباءته ويلملم ما تمزق من ثوبها، تذكّرت كيف أنها لم تفهم شيئًا غير أنها كانت تصرخ في رعب، لم تفهم شيئًا سوى أنها أصبحت تكره الرجال، وتكره هذه البيوت الجميلة والبهو السماوي والحوض المُزدان بالأسماك الفسيفسائية الملونة. "لقد جعلوا أبي يبكي "..

فهمتْ الآن لماذا كان هذا الكهف جميلًا بعيدًا عن صخب المدن وذلِّها، فهمتْ كيف أن هواء الحرية الذي يتنشقه أبوها كان دواءً لمرضه وشيخوخته، إن الحرية تستحق.

كم هو ثقيل أن تختزن في قلبك كلّ تلك الذكريات دون حتى أن تراها أو تعترف بها. ها هي الآن تضعها أمام عينيها في مجموعةٍ من الصور لتراها مرةً أخرى بشكلٍ جديد فتعترف بها لنفسها بعد أن عاشت كل هذه السنين مخبّأة في صندوق ذاكرتها المغلق لا تجرؤ على النظر إليها.

كـان مـن المفتـرض أن تسـتريح مـن هـذا العـبء بعـد الاعتـراف، لمـاذا تتساقط هذه الدموع إذًا، ولماذا تشعر بكل هذا الألم؟.

***

بولينا لا تحب شراء الخبز من المدينة، تُفضّل دائمًا أن تصنعه في فرنها الطيني الصغير الذي أقامه لها زوجها في الفناء الخلفي لمنزل يوسيفْيُس بعـد أن أحضـرهم لابيلـوس للاعتنـاء بـالمنزل والبسـتان أثنـاء غيـاب أصحابه.

كانت سمينة بعض الشيء لها وجهٌ طفولي مستدير، وشعر أسود مجعد تربطه بمنديل صغير. تقول إنها تكره الذهاب إلى المدينة التي امتلأت بالجنود والمحاربين في الفترة الأخيرة، لم تعد تشعر بالأمان هناك، الكل متحفّز للشجار ويحتاج الأمر إلى كثيرٍ من الحظ كي يتجنّب الوقوع بالمشاكل والتي كان أصعبها الاتهام بأنك قد اتَّبعتَ الدين الجديد، لا رحمةَ تطالك حينئذٍ.

تصاعد دخان الفرن المحمل برائحة الخبز الطازج الذي كانت تُعدّه للغداء بينما كان لابيلوس يجلس بالقرب منها تحت شجرة الزيتون العجوز. كان صامتًا يتظاهر بالإنصات لثرثرة أخته عن الأحداث التي مرّت بهم في أثناء غيابه خلف البحر، كيف أن الصغيرين أصبحا مزعجين جدًا في الآونة الأخيرة، تحدّثه عن نيرون، وقتله لزوجته في روما.

- كنت أعرف أنها ستموت ميتة بشعة، تلك الشيطانة.

- لم أعرفك بهذه القسوة.

- ليس للقسوة شأن بهذا، إنها العدالة الالهية. تذكَّر كم من مظلومٍ مات بسببها.
- بل كانت امرأةً ضعيفة في النهاية، تظنّ أنها تصنع لنفسها مجدًا وتدافع عنه.
- وإن يكن، لقد كانت أحد المتآمرين علينا، عليكم، كانت هي وقومها من حرَّض الإمبراطور المجنون الذي يلاحق المؤمنين في كلّ البلاد.

صمتت قليلًا ثم قالت: تخيَّل أنه قتل ابنها ذا السبعة عشر عامًا في رحلة الصيد قبل شهر. المهم.. دعنا منها، ألا تلاحظ أنها المرة الأولى التي تمكث عندنا طويلًا، لقد مرّ أسبوعان منذ جئت ويبدو أنك لست سعيدًا بقرارك العودة إلى الكهف، هل هناك ما تخفيه عني؟.

- لا شيء يا عزيزتي، تعبت قليلًا من الصيد وأصابني الملل، انتبهي للخبز.

قالت بولينا دون اكتراث: أنا منتبهة، لا تتهرب من الحديث، أخبرتك أنك بحاجةٍ إلى زوجة وأنت لا تستمع للنصائح، تزّوج المرأة الغريبة التي آويناها هنا، جميلةٌ ومسكينةٌ ولا أهل لها، ما أخبارها بالمناسبة؟.

- بخير، ما زالت كما هي، ولا أظنّني أحبذ فكرتك، ولا أظنّها في حالةٍ تسمح لها بالزواج أساسًا، لكن ابحثي لي عن عروس أخرى.

تركها تسعل من الدخان المتصاعد الذي خرج من الفرن بعد أن نسيت رغيفًا بداخله ونهض قبل أن يدخل في نقاشٍ جديد حول زواجه، كانت تلحّ عليه فيأمر الزواج منذ سنوات، بينما هو يتهرب منها بحجة الظروف الصعبة والكوخ المتهالك الذي يعيش فيه بالقرب من الميناء. كان متأكدًا أنها تفهم حقيقة هروبه من الموضوع ولكنّها تحترم حريته،

وكانت بولينا تتركه إلى أن يفهم تمامًا أن حبه ميؤوس منه، وكل تلك الثرثرة التي تضلّله بها إنما لإيهامه أن أحدًا لا يرى ذلك الوله في عينيه حين يكون في صحبة داما وعائلته.

سار بين شجيرات الزيتون منحدرًا عن التل في طريقه لمدينة هركيولانيُم. رأى منزل بروتس الصغير على أطراف البستان حيث دارت المعركة التي ألجأتهم للهروب إلى الكهف، اختفوا خلف تلك الشجيرات وبدأوا بإلقاء الحجارة على الجنود، وهنا في هذه البقعة كان بروتس يرقد مصابًا بين يدي ليلي، ومن هذا الطريق سار الجنود ببولس ولوقا ويوسيفُيُس، إنه الطريق ذاته الذي يقوده الآن إلى هركيولانيُم.

لم يكن يرى المدينة بهذه الظلمة من قبل، لماذا يشعر بالعتمة والبرودة في شوارعها وهو الذي عاش فيها ردحًا من الزمن يظنّها موطنه الأول والأخير، الآن لم يعد يرى له وطنًا سوى البحر، ذلك الذي أنجَدَهم عندما ضاقت عليه المدينة على سعتها فهربوا من كلّ حضارة الرومان بحثًا عن الحياة.

توقّف للحظات وقد لفت نظره شابٌ أتى من بعيد يبدو عليه الثراء وخلفه يسير أحد العبيد كبار السن وهو يلهث حاملًا معه سلة ثقيلة من الفواكه.

دُهش لابيلوس عند مرآه وناداه: هييي.. آنياس، هذا أنت يا رجل.. أنا لا أصدق عينيّ.

لوهلةٍ ظنّ أنه يرى الارتباك في عيني آنياس كمَن فاجأه وجود لابيلوس بالمدينة، لكنّه عاد إلى ثباته بسرعة، اعتدل في مشيته وأطلق ضحكةً عالية قبل أن يعانق لابيلوس عناقًا فاترًا.

- لابيلوس الشقي، مازلت تصطاد السمك يا صغيري. أين اختفيت طوال السنتين السابقتين؟ أخبرني عن أحوالك يا صديقي..
- أحوالي كما هي، لكن أحوالك هي ما تدعو للعجب. هل ورثت السيدة أوريليا؟ لم أظن أنها قد تترك لك إرثًا في الحقيقة.
- بالطبع لا، لكنها أعطتني حريتي. أنا الآن رجلٌ حرٌّ يا صديقي، لدي أعمالي وأملاكي ولا فضل لأحدٍ عليّ في ذلك.

تعجّب لابيلوس ثانيةً غير أن آنياس راوغه في الكلام واعتذر له مبتعدًا متحججًا بأشغاله الكثيرة، على وعدٍ منه بأن يلتقيه ثانية إن بقي في المدينة.

كانت قصة آنياس تشغل تفكيره طوال طريقه إلى الميناء حيث ترك قاربه الصغير، لكنه أرجأ التفكير في الأمر حتى يلتقي بروتُس في الكهف. تفقّد القارب وتأكّد من صلاحيته للإبحار بعد غروب شمس اليوم، سوف يذهب إلى الكهف في زيارةٍ صغيرة ثم يعود إلى نابولي حيث ترك لوقا هناك ليطمئن على الأخبار أو يعيده معه إلى الكهف. تفقَّد شباكه فوجد فيها بعض التمزقات، جلس يصلحها قبل أن يعود إلى المنزل أعلى التَّلة مارًّا في طريقه بالسوق ليحضر بعض الحاجيات لأخته وللرفاق في الكهف.

***

تسابقت كاميلا و فيبي إلى أعلى المنحدر الذي يُخفي الكهف أسفله، انطلقتا باتجاه الأحراش الكثيفة التي اعتادتا على اللهو فيها لمراقبة حبّات الكستناء في أعالي الشجر بانتظار أن تتساقط على الأرض كي يجمعوا منها ما يصلح لصناعة الخبز.

منذ أسبوع بدأت الحبات البنية المتساقطة تغطي الأرض الخضراء هناك، من الجيد أن هذه الأرض الواسعة على هذا الساحل خالية من السكان. حمل بروتُس بعض الحقائب القماشية وخلفه بدا يوسيفْيُس متعبًا من السير صعودًا على المنحدر ومتكئًا على العصا التي أصبح يستخدمها منذ أصيب قبل عامين، وإلى جانبه ليلي تحمل بروسيوس الذي اقترب من إكمال عامه الثاني.

كانت مهمَّة لطيفة لجمع حبات الكستناء المتساقطة أسفل الأشجار لصناعة الدقيق اللازم للخبز. يبدأ الأمر بشيّ الكستناء بعد شقها بالسكين تجنبًا لانفجارها، ثم تُجفف جيدًا ليوم أو يومين قبل طحنها في إناء صخري ضخم ببعض الصخور الثقيلة. كان عليهم تدبر الأمر لأن لابيلوس لم يستطع إحضار المطحنة الكبيرة إلى هذا المكان، ربّما كان الدقيق خشنًا إلى حد ما ولكنه يفي بالغرض.

على الجانب الآخر من المنحدر، كانت جوليا وسيسيليا تسيران على الشاطئ تكملان حديثهما الذي انقطع قبل أيام، وقد علم الجميع أن جوليا ليست خرساء. الكثير من الأسئلة الفضولية حول قصتها كانت تحاصر عقولهم إلا أنهم لم يثقلوا عليها بالسؤال، فلكلٍ منهم قصةٌ على أية حال.

- كنت أعيش في بومبيي، تزوّجت في بيتٍ فقير ولكنني كنت سعيدة، زوجي كان شابًا لطيفًا وأنا أعمل معه في صناعة القماش، في ذلك الوقت تعرَّفنا على بولس، وصدقناه، عرفنا أن في دعوته الخير الكثير، لكننا لم نكن نعرف ما يخفيه لنا القدر.

تنهّدت قليلًا ثم قالت: قبل أربعة أعوام، في الأيام التي سبقت الزلزال العظيم، اقتحم بيتنا مجموعة من الجنود الرومان، اقتادوني بغلظة خارج المنزل.. ثم.. ثم..

صمتت قليلًا وبدا التأثر على وجهها كأنها تسترجع ذكرى سيئة. استجمعت قواها وعادت للحديث فقالت: عندما حاول زوجي انقاذي قتلوه، كنت في ذلك الوقت أحمل جنينًا في أحشائي ولكنه مات أيضًا بعد أن ضربوني بغلظة. مكثت بعدها شهرين في زنزانةٍ صغيرة لا أرى ضوء الشمس حتى تعفّنت جراحي.

سألتها سيسيليا في ضيق: لماذا يفعلون ذلك.. لماذا يؤذونكم؟.

- لم نكن وحدنا من تأذينا.. الكثيرون تعرّضوا للأذى بسبب إيمانهم، وكلّنا كنا فقراء لا حول لنا أو قوة.

صمتت سيسيليا لتعطيها الفرصة لإكمال القصّة، فلما طال صمتها وهي تتطلّع إلى مياه البحر في وجوم عادت لتسألها: ثم ماذا؟.

ضحكت جوليا ضحكةً مريرةً قصيرة قبل أن تقول: ثم بدأ فصلٌ آخر من العذاب. لقد اقتادوني إلى اللوبينارا.. لا أظنّك سمعت عنه. هو بيت بغاء كبير في منتصف المدينة، بيت بغاء يرتاده علية القوم، وكنت أنا وغيري من النساء السلعة التي يعرضها هذا المكان. في المرة الأولى كنت في حالةٍ من الصدمة منعتني من التفكير، شعرت بالقرف، بالقذارة التي لا يمحوها طهر كلّ أنهار العالم، كلّ صرخاتي كانت تتحوّل إلى سياط يلهبون بها ظهري، قصُّوا لي شعري عشرات المرات، منعوا عني الطعام حتى تحولت إلى كومة من العظام.. ثم إنهم ألقوني إلى مكان آخر أكثر قذارةٍ ووضاعة، يُديره بشرٌ أكثر قسوة. كنت أحسب

أنني متُّ وصعدت إلى الجحيم، فصرت أتساءل في داخلي. لماذا يحدث لي كلّ هذا؟ ما الذي فعلته لأُلقى في الجحيم.

كانت تبكي بينما كلماتها تقطر مرارةً وألمًا وهي تتساءل عن السبب الذي يفقد فيه الانسان كرامته وقيمته وحياته من أجل عقيدة اختارها لنفسه، وكيف في لحظةٍ من عمر الزمن يصبح عبدًا لمجموعة من الطغاة وسلعةً رخيصةً يتداولونها بينهم.

طال الصمت هذه المرّة بين دموع جوليا وسيسيل التي تذكّرت طفولتها واحساس أبيها بالدونية والذي لم يتركه حتى بعد تحرّره.

- كيف هربتِ إذًا؟.

- في اللحظة التي اكتشفتُ فيها أنني حبلى صُدمت، هذا ابن زنا، وددت لو أنني قتلته، لكن شيئًا ما أرشدني أن فيه خلاصي، وأنه ليس ذنب الطفل. هذا ابني أنا، لقد حُرمت من عائلتي، زوجي وطفلي الذي لم يكتمل، ولم يبق لي سوى هذا الجنين. أدركتُ أن الهرب هو سبيلي الوحيد للنجاة، فإن أنا مت ففي ذلك راحتي، وإن نجوت، نجوت بعائلتي. لا تسأليني كيف هربت، أنا لا أعرف، لا أذكر إلا أنني ألقيتُ نفسي في مياه البحر لأهرب ممن يلاحقني. ثم صحوتُ في ذلك المنزل أعلى التلة بين أشجار الزيتون. كان لابيلوس قد وجدني في الماء وأخذني إلى حيث اختبه، لكنّني لا أذكر أيّة تفاصيل لأن ذهني كان مشوَّشًا. لابيلوس شابٌ جيّد يا صغيرتي.

- وما شأني أنا؟.

- أنا أكره الرجال، لم أعد أطيق النظر في وجوههم، لا أدري إذا كان هناك من يجد عذري مقبولًا أم لا، ولكن ما قاسيته في هذه الحياة كان

كافياً ليجعلني أكره الحياة ذاتها. لكن لابيلوس مختلف، وأنت تضمرين له الكثير من المشاعر التي تنكرينها.

- كُفّي عن هذا بالله عليك، أنا أيضًا أكره الرجال..

- وأنا أخبركِ أنّه مختلف، لا تضيِّعي عمركِ بلا طائل يا صغيرتي، الحبُّ قد يأتي مرةً واحدة، والرجال في هذه البلاد قلّة، أقصد الحقيقي من الرجال.

- دعينا من هذا الأمر، ليس هذا هو الوقت المناسب للتفكير فيه، نحن نعيش في معزلٍ عن البشر، من يدري ماذا سيحلُّ بن غدًا.

- ربما كانت هذه العزلة في هذا الكهف هي ما أنقذَتْ أرواحنا، وما أدراكِ؟.

***

-5-

مسيرات العودة

غزة - 1إبريل 2018 م

لم يعد البحر كما كان سابقاً، لم أعد أحتمل رائحته التي هي مزيج من الزفر والملوحة ورائحة الصّرف الصحّي الذي لوَّث شواطئ غزة بالكامل. ما زال هو المُتَنفَّس الوحيد لسكان غزة، وما زال غروب الشمس في الأفق البعيد يرسم لوحةً مهدِّئة لكلَّ ما يعصف في نفوسنا.

كانت المساحة الزرقاء المرتجفة تمتد أمام ناظري تشوبها بعض المساحات البنية بين منطقة و أخرى، الأمواج الثقيلة لفرط ما تحمله من نفايات تجاهد نفسها لتطهير البحر مما اجتاحه من انتهاكات، الطبيعة تقاوم على الرغم من كل شيء، ولو أننا كففنا أيدينا فقط عن أذيتها فلسوف تعود إلى طهارتها البكر التي خلقها الله عليها، المشكلة أننا لا نكفّ عن الأذيّة.

يوجد على شاطئ بحر خانيونس الذي لحق بركب التلوث حديثًا متنزَّهٌ بسيط أقامته البلدية ببعض الأراجيح والمقاعد القديمة، بسيطٌ هو كبساطة أهل غزة الذين يحاولون الفرح بأي شيء يُقام لهم. استغربت نظافة المكان ولكنني اكتشفت مع الوقت أنك حين تمنح الناس مكاناً وتشعرهم بامتلاكه فإنهم سوف يعتنون به جيدًا لكي يستمروا بالقدوم إليه والتمتّع به. هذا هو السر في كوننا لا نعتني بالوطن، فبالرغم من كل شيء نحن

نشعر أننا لا نمتلكه ، الوطن ملكٌ لآخرين يتنفَّذون بكل صغيرةٍ وكبيرة من تفاصيله، نحن أيضا أصبحنا تحت تصرفهم ضمن مكونات الوطن المستباحة.

على كل حال، كنت أحب أن أحضر أطفالي إلى هنا، وهم أيضاً يفرحون بهذه النزهة البسيطة ويطلبونها. بائع البطاطا المشوية الذي يحتل الركن الشرقي من المنتزه بالقرب من السور يبدو منهكًا ولكنه سعيدٌ بهذا العدد من الزوار الذين ملأوا المكان، عبد الرحمن يطالب بركوب السيارة الصغيرة التي يجرُّها شابٌ صغير السن جعل من دفع السيارة التي كانت تعمل بالكهرباء ذات يوم مهنةً يطلب بها الرزق فزيَّنها بمصابيح صغيرة ومكبّرًا للصوت يذيع اناشيد الأطفال.

وبينما تنتشر العتمة بعد غروب الشمس جلست أستغلّ حزمة الانترنت قبل انتهاء فترة تفعيلها بمناقشة بعض المواضيع مع أحمد، أحد أصدقائي الذين تعرَّفتُهم من الفيسبوك.

دخلنا في نقاشٍ طويل حول قصة زواج الرسول عليه الصلاة والسلام من عائشة رضي الله عنها إلى أن انتهى رصيد الانترنت بالكامل. أقفلت الهاتف لأنتبه بعدها أنني الآن عاجزةٌ عن طلب سيارة الأجرة !!

انتهى رصيد الهاتف، وبطاريته فرغت من الشحن أيضًا وعلينا الآن أن نبحث عن طريقة لكي نعود إلى المنزل.

***

كنت منشغلةً بحساباتي وأبحاثي، وكان آخرون منشغلين بالإعداد لمسيرة العودة الكبرى، تلك التي لم أقتنع بها أبدًا منذ بدء الإعلان عنها. الإعداد الكبير، والتعبئة النفسيّة واستنفار نخوة الشباب والكهول والمثقفين

والأميّين وجميع طوائف الشعب، كلّ هذا الحشد كان يذكّرني بأحداث انتفاضة النفق وانتفاضة الأقصى، غير أنّني في ذلك الوقت قبل خمسة عشر عامًا كنت واحدةً من المدافعين عن المظاهرات.

أنا اليوم أعارض بشدّة تعريض الشباب والأطفال للقتل والإصابة في سبيل لا شيء حقيقي على أرض الواقع، ولا أرى هذه المسيرات إلا استعراضًا إعلاميًّا كان يمكن أن يُقام في أي مكان. لقد أصبح يسكنني يقينٌ تام أن مثل هذه التحرّكات ليست سوى وسيلةٍ لاستغلال تضحية ودماء الناس لتحريك القضايا السياسية.

في يوم الأرض حدث ما توقَّعته بالفعل، بعضهم ذهب ليلعب الكرة ويلتقط الصور ويغنّي على أنغام الدِّحْيّة، وبعضهم ذهب ليبحث عن بطولةٍ عاش عمره يحلم بها ولم يجد سوى حدود غزة ليحقِّق أحلامه على أعتابها، آخرون ذهبوا يبحثون عن الموت الذي سيريحهم من أعباء الحياة التي أثقلت كواهلهم فقرّروا أن الشهادة هي أفضل الطرق. وبين هؤلاء وهؤلاء كان هناك دائمًا من يذهب لكي يبحث عن لقمة عيشه، يبيع المشروبات والحلوى للمشاركين، يبيع الأعلام والبالونات، أو لعله يستعرض بالقرب من جنود العدو بمقلاعٍ وطائرةٍ ورقية لكيّ يصبح هدفًا ويلتقط بعض الرصاص طمعًا في أن تُدرَّ عليه إصابته بعض الأموال، وقد يسعده الحظُّ فيدرج اسمه ضمن الحاصلين على رواتب الجرحى. هذا ما يظنُّه في البداية، لكنَّه يكتشف بعد عودته إلى أمِّه مبتور القدمين أن الرزق لا يأتي بهذه الطريقة، وأن الراتب الذي كان يحلم به والذي لم يحصل عليه بالمناسبة لا يساوي أبدا الحياة بلا قدمين لمدى الحياة.

ظللتُ أجادل الكثير من الأصدقاء، لكنَّهم كانوا يمتلكون عنادًا كعنادي السابق عندما كنت في مثل سنِّهم، عندما كنت أردِّد أنّ البلاد لا تتحرر إلا بالتضحية والدماء، وأننا إذا لم نقبل سَيَلان دمائنا في سبيل الإبقاء على بوصلة الوعي مُوجّهةً نحو القدس فنحن لا نستحق أجر الرباط على هذه الأرض.

ولكنني وأنا على أعتاب التاسعة والثلاثين لم أعد رهينةً للأفكار والموازين السابقة، تغيَّرت جُلّ أفكاري عندما عشتُ قهر ذوي الشهداء وصحوتُ على وقع آلامهم، تغيّرتْ كلّ موازيني بعدما شاهدتُ الرقص على أنغام النصر يملأ شاشات الفضائيات بينما دماء الشهداء ما زالت رطبةً لم تجف، تبلِّل التراب الذي غصَّ بالدمار والتشرُّد واليأس.

وفي كلّ جدالٍ ونقاشٍ جديد كنت أضعف وأفقد الأمل، أتراجع وأنطفئ، ثم إنني في ذروة لحظات الضعف تلك، عندما كنت أهمُّ بالتوقّف والرضوخ، في تلك اللحظات اليائسة، كنت أستقبل الرسائل التي تأتيني من الله لتقول لي "اثبَتي، أنتِ لست وحدك".

فهمتُ منها أن الله يحفظ قلبي، يسند ظهري ويشدد من أزري ولو بكلمةٍ من شهيدٍ راحل. هكذا كنت أرى منشورات ضياء القديمة على الفيسبوك، تلك الذكريات التي كانت تعود للظهور في وقتها المناسب دائمًا. كانت كلماته رسائلًا من الله عادت لتسندني في يأسي لكي أكتشف أنّني لم أكن أعرف أخي الصغير حقًا.

"أحيانا لا يكتشف الناس الحق إلا بعد مرور سنواتٍ طويلة على صاحب الرأي المنفرد"

"ليس من الضرورة أن تكون أنت على خطأ والمجتمع كله هو الصح"

أقرأ كلمات منشوراته، ثم أبكي، ثم أصدّق رسائل الله.

***

غدًا هو الرابع عشر من مايو

إنها ذكرى النكبة.. ونحن قومٌ نحب الاحتفال بنكباتنا واجترارها، لدينا في كلّ تاريخٍ حدث وفي كلّ تاريخٍ مناسبة للاحتفال، نكبة، نكسة، حرب، مذبحة، أي شيء يصلح لأن نقيم لأجله مهرجانًا فنتلو بعض الآيات وبعض القصائد وبعض الكلمات لبعض القيادات والمثقفين لكي نصدِّق أن قضيتنا ما زالت حيةً تتنفس أو كما يقول ناجي العلي على لسان قيادات الأحزاب "الله يخلي القضية إلنا ولولادنا".

غدًا هو ذكرى النكبة، وهذه المرة سيكون الاحتفال في مسيرات العودة شيئًا مختلفًا يجعلني أضع يدي على قلبي المنقبض خوفًا كما لو كان يشعر بمذبحةٍ قادمة.

انتابني طوال يوم الأمس إحساسٌ مزعجٌ بالضيق غير المُبرّر، أهاتف أمي لأطمئن على نِيَّة أخوتي الذهاب إلى الحدود. "لا تتركيهم يذهبون هناك، ليس ضروريًّا.. لا تذهب يا مهند.. قلبي يحدّثني أن شيئًا سيحدث". ليس الخوف من الموت ما كان صدري يضيق به، بل غضبي من ذهاب دماء الشباب هدرًا بلا أي نتيجة.

أشرقت شمس يوم الاثنين وبدأ الجليد يلفّ قلبي من جديد، انعدمت الرغبة في فعل أي شيء بالبيت فجلست طوال النهار أتابع الأخبار على هاتفي بردود فعلٍ باردة. بدأت أخبار الشهداء كالعادة، وكان الأمر متوقَّعًا من الأساس، ثم كانت محادثة مهند على الواتساب.

- هبة

توجست خيفةً وكأنني أنتظر خبرًا:

- قل يا مهند

- شاهر استشهد

- لا.. لا تقل ذلك..

فجأة عُدت بذاكرتي لمكالمة عوض في منتصف الليل يخبرني فيها عن ضياء، وتذكَّرت قبلها كيف نقل لي زوجي خبر موت أبي، تبًا، من أخبرهم أنني بهذه القوّة لأتحمّل طريقتهم الصادمة في نقل الأخبار؟.

- ألاء لم تعرف للآن، قالوا لها أنه أصيب إصابة خطيرة وعمي يبحث عنه في المستشفيات.

- كانت عندي قبل أسبوع.. حسبنا الله ونعم الوكيل.. حسبنا الله ونعم الوكيل.

كنت أتحدّث من بين دموعي وكل القهر الذي تراكم على قلبي منذ نهاية الحرب يطفو على السطح ويكتم أنفاسي من جديد. تذكَّرت قبل أسبوع عندما جاءت ألاء لزيارتي مع طفلها وقضينا يومًا جميلًا.. تقول إن شاهر ألحَّ عليها أن تأتي لقضاء اليوم معي، تحدثنا كثيرًا في ذلك اليوم عن كلّ شيء تقريبًا ؛ ديوان الشعر والقصة وضياء وعبدالله.. وشاهر.

لا حزن يوازي حزن الفاقدين، لا تصدق أولئك البكَّائين في كلّ مأتم، فلو أنهم عاشوا حزنًا حقيقيًّا لحرَّموا على أنفسهم دخول دور العزاء. هذه الدموع التي كانت تُغرقني لم تكن حزنًا بقدر ما كانت غضبًا وقهرًا من الجميع وعلى الجميع.

تخيّلت كلام السياسيين المتفاخرين بالدماء الطاهرة الزكية التي سالت، تهافُت المصورين والإعلاميين على دور الشهداء لاقتناص القصص والأخبار، تخيّلت الدماء وهي تضيع هدرًا في مهاترات الأحزاب ومناكفاتهم، تخيّلت يُتمَ الطفل الذي جاء بعد تسعة أعوام والذي يُكمل عامه الأول اليوم باستشهاد أبيه.

لا حزن يوازي حزن الفاقدين، لو أنك نظرت فقط لصورة عمي وزوجته المنهارَين ستفهم ما أقول. عندما رأيت الصورة التي انتشرت كالنار في الهشيم دعوت من كلّ قلبي على كلِّ الإعلاميين والمصورين وتجّار الحروب، اتركوا بعض المساحة للألم، دعوهم يعيشون حزنهم ببعض الصمت والعزلة، احترموا الدماء للحظاتٍ فقط. عرفت حينها أننا انقسمنا في هذه البلاد إلى فريقين، أحدهما يموت في سبيل قضيته والآخر يعيش على دمائه وحكاياته وينتفع منها.

لا أمل.. لم يعد هناك في قلبي أمل.

عندما دخلت شقة ألاء التي دخلتها قبل أربع سنوات في وداع ضياء ومن قبله أبي، تملَّكني البرود والثبات ذاته بعد أن استنفدتُ كلّ الدموع في منزلي. كانت ألاء هي الأخرى محاطة بجبل الجليد الخاص بها.

قلت لها: تذكرين جبل الجليد يا ألاء.. فقالت: والله تذكَّرتُك وتذكَّرته. لا يشعر بالألم غير صاحبه. من يصبر يصبِّره الله، ومن يتثبت يثبِّته الله.

نعم والله، من يصبر يصبِّره الله فعلًا.

***

رمضان يأتي مرةً أخرى وبغصّةٍ أخرى..
كم من أسرةٍ ستجلس للإفطار تتفقَّد غائبًا كان يملأ البيت ضجيجًا في العام السابق، وكم من قلبٍ سيراه الآخرون قويًّا صابرًا وهو يتمزَّق في الصدر. أقوياءٌ بالفعل بفضل الله ولكن الله وحده يعلم الحال عندما يَجنُّ عليهم اللَّيل وينام الجميع فتصحو الجروح وتجالس الفاقدين بصمت.
تقول إن عبد الله لم يعتَد النوم في غياب والده فصار يحتضن هاتفه ويحفظ نغمة المنبه التي كانت توقظهم لصلاة الفجر.
تقول: أعرف أن أحدًا لا يصدقني، والله أشعر أنه حولي ولم يذهب بعيدًا، أكلمه كلّ يوم أثناء نومي.
عبد الله الصغير استبدل والده بعد بكاءٍ طويل بصورةٍ ضخمة عُلِّقت على الجدار، يشير إليها بفخر قائلًا بابا ثم يحتضنها ويمنع الجميع من الاقتراب منها، هذا الصغير قادرٌ على غرس السكِّين في قلوب الحاضرين بسهولة. لقد كبر بسرعة، كلنا نكبر بسرعة عندما نفقد أحبابنا، لكنه لم يعش ما يكفي لكي يكبر هكذا.
كنت أظنّ أن مسيرة العودة سوف تتوقّف عند هذا الحد بعد رحيل ستين شهيدًا من أفضل الشباب في يوم النكبة، ولكن هذا لم يحدث. ما زالت مكبرات الصوت تنادي الجماهير قبل كلّ يوم جمعة وتحشدهم للخروج في الفعاليات.
يقال إن مسيرات العودة ساهمت في جلب الدعم للعديد من المؤسسات التي توقفت مشاريعها بسبب الحصار، لكنني لا أتقبل فكرة أن يُضحِّي الشباب بدمائهم لأجل أن يحيا آخرون على دعمٍ أعرف أنه مؤقّت كتلك

المشـاريع التـي رَاجَـت بعـد الحـرب الأخيـرة ثـم مـا لبثـت أن اختفـت وتلاشت.

ما زال كلّ شيء كما هو، لكنني أنا من تعب من الكلام. خسرتُ الكثير مـن الأصـدقاء الـذين كـانوا يـدافعون عـن المسـيرات وكـأنَّ لـديهم ثـأرًا شخصـيًّا معـي، لكننـي فـي المقابـل فهمـت أننـي لا أسـتطيع تغييـر أحـد، وحدها الحياة تُعلّم البشر، وما أنا إلا أحد التلاميذ.

تعبتُ من الحديث ولم أعُد أحتمل نقاش أحد، أجلس صامتةً بين الحضـور في أغلب الأوقات، توقفت حتـى عن الاستماع لحواراتهم لكيلا أُستدرج إلى الجدال. لا أمل في تغيير أحد، فمن لم يَصحُ مـع سيل كلّ هذه الدماء لا أظنّـه يصـحو أبـدًا. ومـن لا يـرى ضـيق المعيشـة والظلـم والمحسـوبية وفقـدان الهويـة والهـدف كيـف يمكننـي مواصـلة الحـوار معـه بعقلانيـة؟ أخشى أن هذا ليس ابتلاءً للتمحيص يـا صـديقي، قد يكـون عقابًـا لنـا ليس إلّا.

***

-6-

بولس الشهيد

نابولي - 67 للميلاد

لوقا..

لوقا..

أيها الطبيب الحبيب

كان يسمع صوتًا مألوفًا محبّبًا ينادي عليه، الظلام يحيط به من كلّ جانب، يشعر بجسده ولكنه لا يراه، وصوت بولس رفيقه ما زال ينادي عليه.

هتف لوقا: أين أنت يا صديقي.. قد أطلت الغياب..

- لقد حان وقت خلاصي يا صديقي، ستكمل الطريق وحدك.

- إلى أين تتركني وحدي في الظلام.. يا بولس، أين تذهب؟.

بدأ الظلام يتراجع قليلًا بينما بعض النور يظهر في نهايةٍ بعيدة لنفقٍ في السماء حيث يقف على عتبته بولس وبطرس إلى جوار المسيح. رفع رأسه إليهم وهتف: إلى أين تذهبون يا رفاق.. سيكون دربي صعبًا دونكم يا صديقي.

- لقد كنتَ قويًّا دائمًا أيها العزيز، لا تضعف، إن الله معك. أما نحن، فقد حان وقت خلاصنا.

- أشار بولس بيده إلى الأرض حيث لاحت صورته مصلوبًا قبل أن يتحرك سيف ما في الهواء فيقطع رأسه ويتدحرج إلى جوار صليبٍ آخر يمتد عاليًا ويحمل جسد بطرس المصلوب رأسًا على عقب.

عاد بولس يقول بصوته الهادئ: حان وقت خلاصنا يا صديقي، كن قويًّا واثبت على الحق.

بدأ الظلام يعود ثانيةً وقد عقد الحزن لسان لوقا فلم يستطع أن يتكلم في منامه الذي بدأ يخرج منه تدريجيًّا حتى فتح عينيه ليجد نفسه في بيت كايوس بنابولي، حيث كان قد لجأ إليه منذ أشهر بانتظار أية أخبار عن رفاقه.

تسلّلت بعض الدموع إلى عينيه المحدِّقتين في سقف الغرفة وهو يتمتم لنفسه "أصبحتَ وحدك الآن يا لوقا، ستكمل الطريق وحدك بين كلّ هؤلاء الطغاة. يا إلهي ساعدني على تحمّل مشقّة الطريق.."

نهض إلى قراطيسه يقرأ منها ليُثبّت قلبه وقد بدأ الفجر يلوح في الأفق ويلقي ظلاله من فتحات السقف الصغيرة في الصالة المقابلة. هو يعرف أن هذه الرؤيا هي رسالة من الله ليكمل الطريق وأن عليه الآن أن يعود للترحال والدعوة مرّة أخرى، لكن رحلته هذه المرّة ستكون بلا رفيقه الشجاع الذي رافقه كلّ ذلك الوقت في بلاد الرومان.

الحياة لا تتوقف لأجل أحد، ودين الحق لا يموت بموت أحد، والله غالبٌ على أمره مهما ظهر للناس أن الطغاة قد ملأوا الأرض جورًا.

سيعود إلى الكهف في أقرب فرصة، ولعلّه سيتخذ يوسيفْيُس رفيقًا جديدًا في رحلاته القادمة.

الآن بات لوقا يرنو إلى خلاصه هو الآخر، فمتى ينتهي هذا الاختبار يا إلهي.

***

بدأ قارب لابيلوس يتمايل مع الرياح التي كانت تعصف وتثير الأمواج وقد دخل عليهم الشتاء قبل أن يرجعوا إلى الكهف. كان لابيلوس يزور القوم وحده مرةً في كلّ أسبوع، يوصل حاجياتهم ويعود أدراجه بسرعة إلى هركيولانيُم مارًا بنابولي حيث لوقا يمكث هناك منذ زمن، إلى أن قرّر هذا الأخير العودة إلى الكهف.

السماء غائمة ويجب أن يصلوا بسرعة قبل أن يبدأ المطر بإعاقتهم فيعرّضهم لخطر الغرق على الرغم أن المسافة ليست بعيدة.

يبدو الشاطئ فارغًا ومهجورًا بعد أن آوى الجميع إلى الكهف تحسُّبًا للعاصفة القادمة. حاول لابيلوس أن يتيقَّن من ربط القارب جيدًا بعد أن أخرجه إلى الرمال بمساعدة لوقا خوفًا من المدِّ الذي قد يسحبه ثانيةً إلى البحر فيفقدون وسيلتهم الوحيدة للاتصال بالعالم.

تسلَّقا المنحدر الرملي في طريقهم للكهف وقد بدأ البرد يتسرّب إلى أجسادهم عبر ثيابهم المبتلّة، سيحتاجان إلى بعض الدفء من تلك النيران التي تبدو لهما مشتعلةً في مدخل الكهف، يرقد حولها بعض الظلال المبهمة التي بدأت تتضح مع اقترابهما فتحوَّلت إلى داما العجوز وبروتُس ويوسيفْيُس.

نهض الجميع مُرحِّبًا بهما فأفسحوا لهما مكانًا بالقرب من النيران بينما نهض بروتُس لإحضار بعض الأغطية الصوفية من الداخل.

في الداخل كان الصغير يدور في الكهف تلاحقه ليلي المثقلة بحملها الجديد محاولةً إقناعه بالنوم تحت الأغطية. فيبي نائمةٌ بجانب أمها وكاميلا ما زالت تحاول أن تفعل، سيسيليا تعبث بالقنديل بجانب فراشها في توتُّر، ترفع فتيلته تارة وتخفضها تارة، بينما جوليا تجلس قبالتها تراقبها وعلى شفتيها شبح ابتسامة.

"كيف هي أخبار المدينة.؟." سأل داما.

قال لوقا بهدوء: هركيولانيُم هادئة، أما بومبيي فلم يبق فيها مؤمنٌ واحد؛ قُتِل من قُتل وسُجِن من سُجن وهَرب البقية. قبل أشهر من الآن قتل نيرون زوجته ركلًا في روما ثم أغرق ابنها ذو السبعة عشر عامًا في البحر فقتله ومنذ ذلك الحين والجنون يستبدّ به والقلاقل تعبث بروما وكأن تحتها بركان.

صمت لوقا لبعض الوقت قبل أن يكمل في حزن: ويبدو أنه سيقتل بولس وبطرس قريبًا.. أو أنه قتلهما.

بهت الجميع وبدا الوجوم على ملامحهم دون أن يجرؤ أحدٌ منهم على سؤاله عن مصدر الخبر ومدى دقته، تابع لوقا قائلًا: ولذلك لن انتظرهم بعد الآن، سأكمل مهمَّتي في الدعوة إلى الله وحدي، أو قد ترافقني يا يوسيفْيُس، ما رأيك؟.

- وهل أرفض مثل هذه الصحبة المباركة؟ بالطبع أنا معك أينما ذهبت.

هزّ لوقا رأسه بامتنان وجلس صامتًا. منذ تلك الرؤيا وهو مُقِلٌّ في كلامه يفضّل الصمت في أغلب الأحيان. لابيلوس أيضًا صامتٌ منذ وصلوا إلى الكهف لا يتحدث إلا للضرورة. اقترح عليهم يوسيفْيُس النهوض للنوم قبل أن تبدأ العاصفة فأطفأوا النيران ونهض كلٌّ منهم إلى مكانه في

حجرات الكهف، أغلقوا فتحة المدخل بستارٍ خشبي كانوا قد صنعوه من أغصان الشجر تخفيفًا لتأثير الرياح التي تعصف في الخارج والتي بدأت تقذف الأمطار على المنصّة حيث كانوا يجلسون منذ قليل.

تساءل لابيلوس في نفسه هل ستحميهم الدرجات التي أقاموها أمام الكهف من السيول التي قد تتسبَّب بها الأمطار؟ حدث أن أغرقتهم مثل هذه السيول في العام الفائت فاضطرّوا لبناء درجاتٍ ساترة وسورٍ صغير يمنع المياه المنحدرة من الوصول إلى الكهف حيث يبيتون لياليهم.

أغلق عينيه متدثرًا بالغطاء الصوفي السميك ثم تذكّر حديثه مع سيسيل في آخر مرة رآها على الشاطئ، ما زال لا يفهم سبب ذلك الكره والبرود التي تبديه نحوه.

جال بخاطره ذكرى المرّة الأولى التي رآها بها عندما كانت في السادسة من عمرها تأتي مع أمها للسوق حيث كان يجلس مع والده دائمًا يتعلم منه أسرار صنعته في الصيد وبيع السمك. لا زال يذكر تفاصيل وجهها المستدير الذي يحيط به شعرها الأسود المسترسل وعينيها اللوزيتين الواسعتين، تسير خلف أمها تمسك بطرف ردائها وتتشبث بقطعة قماشية لَفَّتها على شكل دمية، تنظر له باستغراب من خلف ثوب أمِّها أو تحاول أن تلمس السمكات في الصندوق الخشبي أمامهم فتنهرها أمُّها.

كان في العاشرة من عمره وقتها، يخرج مع أبيه للصيد ليعولان أُمّه المريضة وشقيقته الصغيرة. ماتت أمه بعد هذا بعامين. لقد بقيت طريحة الفراش فترةً من الزمن حتى أهلكها الهزال. كانت المسكينة تتعذَّب، فلم يصلح لها دواء ولا غذاء حتى أراحها الموت من عذابها، كثيرًا ما يكون

الموت راحة لصاحب البلاء. تذكَّر كيف أنه لم يَرَ وجه سيسيليا منذ أكثر من شهرين، يتهرب هو من رؤيتها وتختفي هي في الكهف حالمًا يصل إليه. هل آذاها بكلامه في ذلك اليوم؟ لعلّه فعل دون أن يدري. أغلق عينيه وحاول جاهدًا أن ينام، وفي الخارج يسمع أصوات الأمطار وهي تتساقط على الطرق الصخرية محدثةً صوتًا خلابًا.

انها أولى ليالي الشتاء وعلى ما يبدو سيمكث هنا فترةً قبل الإبحار ثانية في مركبه الصغير.

***

-7-

تراتيل الحرب

صديقي العزيز بلينيوس

بدأ الأمر يخرج عن السيطرة هنا في أورشليم، الكثير من المتآمرين ينشرون كلامهم المسموم بين الرعيّة اليهود، وقد بدأوا يُنظّمون العصابات التي تعتدي وتقتل الرومان.

لا أعرف كيف أصف الأمر، لكننا على ما يبدو نسير نحو أيامٍ صعبة وقد يكون على جيشنا الروماني أن يخوض حربًا لإخماد ثورة اليهود.

غير أن الأوضاع في روما غير مطمئنةٍ أيضًا، أعلم أنك تعتزل العمل تمامًا مع الحكومة لكنك حتمًا تعلم بالمعضلات التي يواجهها الإمبراطور، وترى أن الكثيرين يُعِدّون العُدّة للانقلاب عليه، بعدما بدا من تصرفاته غير المسؤولة واستباحته للدماء منذ أول يومٍ صعد فيه إلى العرش. علمنا منذ مدة أنه تسبب في قتل زوجته وجنينها وابنها، بعد أن كان قد قتل أمه وزوجته أوكتافيا ومعلمه سينيكا وغيرهم الكثير، وأظنُّني لا أبالغ حين أتنبّأ أن الثورة عليه باتت قريبةً جدًا، والأطماع في حكم روما تتأجَّج في كلّ المقاطعات.

ولأن الوضع محيّرٌ ومخيف، فأنا لا أعرف كيف سيُكمل أبي تجميع الجيوش في الشرق للقضاء على الثورة التي تنتشر نيرانها في أورشليم وما يحيط بها من المدن.

أطمئنكم أنه لازال يحظى بدعم تيبيريوس حاكم مصر وموكيانوس حاكم سوريا، ولعلّ هذا الدعم هو ما يثبّتنا ويقوي جانبنا إلى الآن.

صديقك المخلص

تيتوس

***

روما - 68 للميلاد

تنهد نيرون بألم وهو يتمتم "يا لهذا الفنان الذي يموت في داخلي، كيف وصلت إلى هذه الحال"

صوت خطواته المرتبكة المتسارعة كان يبعث الرجفة والحيرة في قلوب تابعيه المخلصين الأربعة الذين قَدِموا معه إلى هذا البيت المنعزل على بعد أميال من روما.

نيرون الخائف، فقد الثقة بالجميع، كلّهم تَخَّلوا عنه، أصدقاؤه، مجلس الشيوخ، والحرس الإمبراطوري، لم يبقَ معه سوى هذه القلّة من التابعين الذين رافقوه إلى هنا.

بدأ الأمر منذ ثورة فيندكس حاكم بلاد الغال على الضرائب التي يفرضها عليهم نيرون، وانتهت الأحداث بظهور جالبا حاكم هسبانيا على الساحة مطالبًا بحكم الإمبراطورية الرومانية ومدعومًا من العديد من المقاطعات، بل ومن الحرس الإمبراطوري ذاته، ثم ها هو الآن مجلس الشيوخ يتخلى عن نيرون بإعلانه عدوًّا للشعب ويطالب بمحاكمته وإعدامه ضربًا حتى الموت في منتدى روما.

قال يحدث نفسه "أنت وحدك الآن يا نيرون، لقد ذهبوا جميعًا"

رفع رأسه إلى تابعيه وقال لأحدهم: فون.. فون.. أخبرني كيف أقتل نفسي، أرني الطريقة.. أنا لا أعرف كيف، هيا.. اقتل نفسك لأعرف كيف أفعل.

تراجع فون برعب بينما نيرون يواصل توسلاته: نيوفيتوس.. أرني كيف أقتل نفسي.. ابرافروديتوس.. سبوروس.. أنا لا أعرف كيف أقتل نفسي أيها الحمقى.. أيها الحمقى.

تراخى جسده وجلس على الأرض متمتمًا "أنا لا أعرف كيف.. "

بدا له من بعيد كما لو أن طيفًا أبيض يحلق عبر نافذة الغرفة، ثم تناهى إلى مسامعه صوت حوافر الخيل القادمة من بعيد، لم يعد أمامه الكثير من الوقت. نهض واقفًا وأمسك بالسيف المُلقى على الأرض وقدَّمه لأبرافروديتوس آمرًا "اقتلني.. أنا آمرك الآن بقتلي يا أبرافروديتوس.. لم يعد هناك وقت "

أمسك أبرافروديتوس السيف مرتجفًا، لم يكن قادرًا على تنفيذ هذا الأمر الصعب، كان قتل الإمبراطور في الأحوال العادية خيانةً عظمى جزاؤها الإعدام، لكنه مضطرٌ لفعل ذلك الآن.

بدأت الدماء تسيل من نيرون الراقد على الأرض ينظر إلى نهاية القاعة حيث كان الظلُّ الأبيض الذي عبر النافذة يتشكل في ملامح أنثى يعرفها جيدًا، خُيَّل إليه أنه يرى كلوديا أوكتافيا تبتسم في تشفٍ وهي تنظر إليه والدماء تغرقه وتسيل على الأرضية الرخامية اللامعة، لقد كان قدرًا أن يموت في الذكرى السنوية لقتل أوكتافيا.

بدأ الظلام يتسرّب إلى عقله وعينيه لكثرة الدماء التي سالت فلم يدرِ إذا كان فعلًا يرى ذلك القادم الذي سمع صوت خطوات فرسه قبل قليل وهو

يحاول إيقاف نزيف الدماء الذي لا يتوقّف، ابتسم هازئًا وتمتم في ضعف "هذا الإخلاص متأخّرٌ جدًا.. هذا الإخلاص منك.. متأخّرٌ جدًا ".

***

صديقي العزيز تيتوس

ننتظر بشوق عودة القائد فِسباسيان لعدل ميزان الأمور التي تتهاوى في روما؛ لقد أصبحت كالفريسة يتشاجر عليها الضباع من كلّ جانب. الخوف يعمّ المدينة والحروب تشتعل في كلّ مقاطعة، وكل رجلٍ يبحث له عن قطيع يألفه فيحميه من الآخرين.

أخبرْتَني أن المقاطعات الشرقية وشمال أفريقيا تقف في صف فِسباسيان في محاولته رأب الصدع وتوحيد الإمبراطورية، ورغم أن الطريق شاقة ومليئة بالأشواك إلا أن الغاية النبيلة التي يحملها في قلبه ستمكّنه من النجاح.

لقد سمعنا عن نبوءةٍ عجيبة لعرّافٍ يهودي انتشرت في مقاطعات الشرق عندكم، يتحدّثون فيها عن الإمبراطور القادم الذي سيحكم روما. يقولون إنه سيخرج من يهوذا ليصل إلى كرسي الحكم، كأنني أراهم يشيرون إلى العزيز فِسباسيان. ننتظر بغاية الشوق أن نراه على أعتاب روما وفي قصر الإمبراطور.

صديقك المخلص

بلينيوس

***

صديقي العزيز بلينيوس

برغم الصعاب والحروب والدماء التي تمرّ بها روما، إلا أن كلّ ذلك لا يُقارن بما أراه من فظائع في أورشليم.

أنا وحدي هنا أقاتل مع الجيوش، بينما يحاول أبي النجاة بالإمبراطورية، وهو فعلا يُصدّق أنه المعنيّ بالنبوءة التي ألهمَتْه أن يقاتل في سبيل تحقيقها.

اضطرتنا الظروف إلى محاصرة المتآمرين والمتمرّدين في مدينة أورشليم، يفصل بيننا وبينهم خندقٌ عظيمٌ لكي يكفُّوا شرورهم عن بقيّة البلاد.

غير أنك لا تتخيّل عِظَم المُصاب الذي حل بالمدينة، لقد حوَّلهم الجوع والخوف إلى وحوشٍ آدمية تأبى علينا نفوسنا أن نتذاكر الفظائع التي نراها عليهم. مضت ستة أشهر وما زالوا يقتلون ويسرقون ويعذّبون أهل أورشليم وقد اتَّخذوهم رهائن لينجحوا في مخططهم. لا يمرّ علينا يومٌ على حدود المدينة دون أن نراهم يهاجمون الأهالي، لا يتركون بيتًا إلا وقد نزعوا منهم غذاءهم وتركوهم للجوع ينهشهم إن لم يقتلوهم في سبيل ذلك. في كلّ يوم ننظر إلى الخندق الذي امتلأ بالجثث التي دأبوا على إلقائها فيه حتى تَكَوّن تلٌّ من اللحوم المتعفنة تقشعرّ لرائحتها الأبدان. لا أجرؤ على وصف ما نراه هنا يا صديقي.

يشهد الله أننا لم نكن سببًا لهذا الجحيم، فليغفر لنا عجزنا.

صديقك المخلص

تيتوس

***

كومو - 69 للميلاد

"الآن نعود"

قالها نونياس داما بحزم ما إن وصله نبأ الهدوء الذي ساد روما بعد مرور أكثر من عام على انتحار نيرون.

دخلت الإمبراطورية بعد نيرون في صراعٍ عجيبٍ على الملك، حيث كانت الدولة الرومانية مُعرّضة للانهيار أكثر من أي وقتٍ مضى. أربعة أباطرة تعاقبوا على روما في عام واحد سُمِّي عام الأباطرة الأربعة وانتهى بتنصيب الإمبراطور فِسباسيان حسن السمعة القادم من مصر.

هنا اطمأن قلب داما إلى قدرتهم على الحياة وسط الرومان ثانية ومقاومة عدائهم لهم.

لم يكن لوقا ويوسيفُيُس قد عادا من جولتهم بعد، لكنّهم سيعرفون حتمًا من لابيلوس عن عودتهم إلى هركيولانيُم.

كان للقرار وقعٌ غريبٌ على مسامع سيسيليا، شعرت بالضيق لأول وهلة بعد أن اعتادت على الحياة هنا بعيدًا عن مشاكل المدينة وضوضائها وسكّانها. كانت قد نسيت في غمرة اندماجها مع الحياة هنا أنها قد تعود ثانيةً إلى المدينة. جوليا أيضًا شعرت بالانقباض فضمت صغيرها أوكتافيوس الذي لم يبلغ العامين بعد وهي تفكّر أين ستذهب به بعد عودتها وهل ما زال هناك من يبحث عنها بين أزقّة بومبيي، لم يكن يعنيها سوى هذا الصغير الذي هو كلّ ما تملكه الآن في الحياة.

نظرت لها سيسيليا في تساؤل فأجابت: أين سأذهب الآن؟.

رفعت سيسيليا حاجبها بحنان قائلة: أي سؤال هذا يا عزيزتي.. نحن عائلةٌ واحدة..

كانوا يجمعون حاجِيّاتهم، ينتقون ما يريدون حمله معهم ويرتّبون بقيّة الأشياء في الكهف على أن يحضره لابيلوس وبروتُس في وقت لاحق بعد استقرارهم في منازلهم هناك في المدينة.

همس لابيلوس لبروتس: هل أخبرتك عن آنياس؟.

- آنياس، نفيدياس آنياس ؟.

- نعم، رأيته منذ أكثر من عامين في شوارع هركيولانيُم. لا أدري كيف نسيت أمره. لقد تحرر من العبودية، والأغرب أنه صار ثريًّا ويُدير مغسلة عمومية، تخيل هذا!!

امتقع وجه بروتُس وهو يراجع ذاكرته في ليلة القبض على بولس ولوقا. تذكّر كيف أنه رأى يومها وجه آنياس بين الأشجار قبل أن يصاب في رأسه ويفقد وعيه، لقد ظنّ أنها كانت تخيّلات اجتاحته بتأثير الضربة، فتناسى الفكرة. الآن تدور في رأسه كل تلك الظنون الشيطانية. ضرب ركبته في غضب وهو يقول من بين أسنانه:

- ذلك الوغد.. لقد كان هو من وشى بنا في تلك الليلة من أجل النقود، لقد سلّمنا للحامية الرومانية ذلك الخائن.

- كيف تقول ذلك؟.

- لقد رأيته في ذلك اليوم، أقسم أنني رأيته، غير أنني كذّبت عيني ورفضت تصديق الأمر، لأقتلعنّ عينيه من رأسه.

قال لابيلوس مهدئًا: توقّف عن هذا الهراء، لا يجب أن نفتعل المشاكل في المدينة، الدولة كلها الآن متحفزّة ومن يدري كيف ستمضي الأيام القادمة. فكّر قليلًا يا صديقي ودعنا نحيا لبعض الوقت في هدوء.

زفر بروتس في غضب وقال: معك حق، لابد أن نستقر، لابد أن أهدأ.

وضع ما يحمله من متاع في القارب وانتظر حتى جاءت ليلي مع طفليها بروسيوس وأنطونيو فعاونها على الركوب ثم قال: مع كلّ هذه الأمتعة قد نحتاج إلى ثلاثة رحلات او أربعة في قاربك الصغير.

هز لابيلوس رأسه موافقًا وأسند داما العجوز ليساعده على الركوب، ثم قال: سأنقلكم إلى شاطئ هركيولانيُم ثم أعود لإحضار الباقين.

أومأ داما برأسه موافقًا: فلنذهب على بركة الله.

دفع بروتس القارب وانطلق لابيلوس به في عرض البحر ملوِّحًا لبروتس الذي جلس على الشاطئ يراقبهم عاقدًا حاجبيه إلى أن شعر بوجود سيسيليا بجانبه تسأله: ما بك؟ لِمَ أنت مكفهر الوجه هكذا؟.

ابتسم بروتُس وقال: لا شيء يا عزيزتي، هل أنتم جميعًا جاهزون؟.

- نعم، كلّهم في الطريق إلى الشاطئ الآن، في الجولة القادمة ستذهب فيبي وأمها وكاميلا، ونبقى أنا وجوليا معك إلى الجولة التالية.

صمت بروتُس قليلًا ثم قال: لماذا ترفضين لابيلوس يا سيسيل؟.

- ما الداعي لهذا الحديث الآن؟.
- لأنه سألني الزواج بك مرة أخرى، جعلني أقسم أنني سأسألك عن سبب كرهك له.
- أنا لا أكرهه.. إنّه شابٌ طيب.
- إذًا لم ترفضين الزواج منه؟.
- لا أريد الزواج، أنا لا أصلح للزواج، دعه يتزوج جوليا، إنها جميلة وطيبة..
- وهو يريدك أنت.
- فلنتوقف عن هذا الحديث يا أخي أرجوك.

زفر بروتُس والتفت ينظر إلى عينيها قائلًا: لستِ صغيرةً يا أختي، ونحن لن نبقى معك حتى النهاية. سننشغل عنك، كاميلا ستتزوج، وأبي لن يحيا لك أبد الدهر.

أطرقت سيسيليا تنظر لرمال الشاطئ تحت قدميها وهي تقول: لا تقل هذه الأشياء.

- ستعيشين وحيدة.

- وهل يتزوج المرء كيلا يكون وحيدًا، هل هذا هو الهدف من الزواج.

- نعم.

- أنا أفضّل الوحدة إذًا.

تنهّد بروتس بصوتٍ عالٍ وهو يرى عناد أخته، ثم توقف عن الجدال حين وصلت النساء والفتيات إلى الشاطئ لانتظار دورهم في الجولة التالية.

كانت سيسيليا تُدير عينيها تحاول أن تحتفظ في ذاكرتها بملامح هذا الشاطئ الذي آواهم لخمس سنوات. كلّ شيءٍ يبدو كما كان حين طالعته عيناها لأول مرة، لا شيء يتغيّر هنا وكأنّ الوقت يتوقّف عند حدود الشاطئ. شعرت بالضيق لأنها ستترك هذا الطهر هنا وتعود لظلمات المدينة.

عادت تنظر للبحر تراقب القارب الذي بات الآن نقطةً سوداء بعيدة وهي تعترف لنفسها أن العند فقط هو ما يجعلها تقاوم مشاعرها نحو لابيلوس إلى هذا الحد.

***

صَيْحَةً وَاحِدَةً

النصِيحَة الخَامِسَة:

عِنْدَما يحِينُ الوَقْتُ المُناسِبُ للتَّغْيِير

لا تَتَرَدَّد

***

تُدرك أنك تجلسُ على الهاوية، وتَعرفُ أن الوادي عميقٌ سحيق، ولكنكَ لا ترى إلّا السماءَ الملونة بالسُّحب ومن خلفها تتوهج الشمس، فيأسر نورها روحك الهاربة نحو المجهول.

تعرفُ أن جناحيك قد يخذلانك، وحينها لن يكون أمامك إلا الموت، لكنك لا تتراجعُ عن المحاولة.

تعرفُ كم هو باهظٌ ثمن أن تتركَ الجرفَ إلى غير رجعة، ولكن خلفك هناك ترقد أطنان من الخراب؛ الأرض عقمت أن تنبت حبة قمح، والغيم يرحل حاملًا كلّ أحلام المطر، الوجوه شاحبة، الأعين شاخصة، والقلوب سوداء، ولم يعد البقاء مغريًا بقدرِ إغراء الطيران من على الجرف الهاري إلى المجهول.

لا تنظر خلفك.. لا تنتظر أحدًا.. أغمض عينيك ثم ابتسم، فأنت إن طِرتَ فقد صِرتَ حرًا، وإن سقطت فحسبك أنك قاومت وتركتَ الظلام إلى النور، حتى وإن لم يَدُم طيرانُك إلا لحظات.

***

-1-

هدوء

روما - 71 للميلاد

كانت الخيول الأربعة تمشي بخيلاء بين أمطار الزهور التي تساقطت عليها وهي تجر العربة الحربية في طرقات روما. احتشد الناس على جانبي الطريق مُرحِّبين ومُحتفلين بالقائد القادم من أورشليم متوشحاً بالتوجا الأرجوانية وعلى رأسه إكليلٌ من ورق الغار علامةً على انتصاره العظيم في كبح ثورة اليهود القائمة منذ خمس سنوات.

كان هذا المسير جزءًا من طقوس التكريم في احتفال الانتصار الروماني المعتاد، حيث يسير الأسرى في مقدمة الحشد مع العربات المحملة بالغنائم في استعراضٍ كبير لقوّة الجيش الروماني العائد.

تقدم تيتوس ابن الإمبراطور فوق عربته رافعًا رأسه الذي غصّ بذكرياته في حصار أورشليم وقد تركَ قلبه هناك لا يدري هل يستطيع العودة إليه ثانية أم أن القدر له حكاياتٌ أخرى يسطرها في سِجِّله.

وهناك في المنتدى كان الإمبراطور فِسباسيان ومجلس الشيوخ قد سبقوا الموكب المنتصر إلى معبد جوبيتر لتكريم تيتوس العائد بعد عام من انتهاء الحرب الأهلية التي اشتملت ضمن أحداثها الغريبة صعود ثلاثة أباطرة على عرش الإمبراطورية الرومانية وموتهم. أنهى تيتوس في المعبد طقوس إهداء الانتصار إلى الآلهة والشعب الروماني ومجلس

الشيوخ بذبح ثورين أبيضين كقربان للإله جوبيتر، ثم أكمل طريقه مع الإمبراطور والأعيان إلى القصر الإمبراطوري لإتمام الاحتفال.

كان تيتوس قد تأخّر في العودة بعد القضاء على المتمرِّدين في العام السابق حيث تعذَّر عليه الإبحار في عواصف الشتاء، قضى بعض الوقت في قيصرية وأنطاكيا مُحتفلًا بانتصاراته، ثم أكمل طريقه إلى الاسكندرية حيث سَرَت بعض الشائعات حول نيَّته الانقلاب على أبيه، مما حثَّه على الإسراع في العودة إلى روما مقدّمًا فروض الطاعة للإمبراطور ومجلس الشيوخ.

عانق تيتوس صديقه القديم جايوس بلينيوس في حديقة القصر الإمبراطوري قائلًا: بلينيوس يا صديقي العزيز، ها قد جمعتنا الأيام مرّة أخرى.

- تخيَّل أنني لم أركَ منذ تركتُ أنطاكيا قبل خمسة أعوام، ولكنك تبدو على ما يرام..
- أما أنت فتبدو عجوزًا يا صديقي، كيف وجدت العمل ثانية مع الحكومة الرومانية.
- تعرفني جيدًا، لو أن الأمر أثقل كاهلي فسأتركه بكل سرور، ولكنني أثق بالإمبراطور وبحكمته.
- لا، لا أظنّك تعتزل هذه المرّة.

سار بلينيوس مع تيتوس في الحديقة بين الأشجار يتحدّثان عن قصص الحصار والثورة اليهودية وما جرى بهما من فظائع، قبل أن يتساءل بلينيوس: لم تخبرني ماذا ستفعل مع بيرينيس، أنت تعرف أن الرومان

يكرهون أميرات الشرق، لم ينسَ أيّ منهم ما حدث زمن يوليوس قيصر وكليوباترا، فكيف تظنّ الحال مع أميرات اليهود؟.

قال تيتوس مغيّرًا الموضوع: دعنا لا نستبق الأحداث، لا أرغب بالتشاؤم منذ الآن، نحن على أعتاب عهدٍ جديد قد تتغير فيه كلّ المفاهيم، من كان يصدق بالأساس أن يخرج الإمبراطور عن الأوكتافيين وطبقة النبلاء، دعنا لا نستبق الأمور يا صديقي.

- أنت مازلت شابًا يا تيتوس، ستعرف فيما بعد كيف أن الرومان لا يتغيَّرون.

ثم وضع يده على كتفيه مبتسمًا وتابع: ولكن دعنا نحتفل الآن دون أن نستبق الأمور بالفعل.

***

تعالت أصوات الضحكات بين أشجار الزيتون المحيطة بكرم العنب فوق التلّ شمال هركيولانيُم، حيث يقبع منزل يوسيفْيُس وبستانه.

بروتُس يسكن مع عائلته في منزل يوسيفْيُس منذ عودتهم إلى هنا بعد أن رحل هذا الأخير مع لوقا يتنقَّلان بين المدن والقرى لنشر دين الله وقد تأكدت لديهم أخبار استشهاد بولس وبطرس في روما قبل عام من انتحار نيرون.

منذ عام تزوجت فيبي ورحلت إلى كومو مع زوجها التاجر الشاب الذي التقاه يوسيفْيُس في أسواق نابولي خلال إحدى رحلاته مع لوقا. أما جوليا فأصبحت تسكن مع طفلها أوكتافيوس في منزل بروتس على أطراف البستان، ذلك الذي أنشأه في بداية زواجه.

لقد كبرت العائلة الصغيرة الآن وأصبحت ضوضاء الأطفال لا تنقطع في هذا البستان المنعزل، أوريليا ذات العامين ولدت مباشرة بعد عودتهم من الكهف، أنطونيو أصبح الآن في الرابعة من عمره في حين أن أخاه الأكبر بروسيوس سيبلغ السابعة بعد خمسة أشهر.

عادت الحياة في هركيولانيُم لهدوئها القديم منذ وصل الإمبراطور فِسباسيان إلى الحكم، توقفت مطاردات الجنود الرومان للمؤمنين بعد أن أنهكتهم الحروب المتتابعة وثورات الأقاليم البعيدة وأصبح الشغل الشاغل لمجلس الشيوخ هو الحفاظ على الإمبراطورية ووحدتها بعد أن امتدت رقعتها من بلاد الشام شرقًا إلى الجزيرة البريطانية غربًا.

الكثير من الضرائب فُرضت على المواطنين لإعادة بناء الدولة وهذا لم يُغضب الفلاحين البسطاء بقدر ما أشعل الثورة في أعماق الأغنياء أصحاب تجارة العبيد ودور البغاء المنتشرة في الدولة الرومانية عامة وبومبيي خاصة.

يعمل بروتُس الآن في بستان يوسيفْيُس ويهتم بأشجاره، لقد ترك متجر الحلاقة لأبيه العجوز الذي استعاد صحته رغم كبر سنه بعد الأعوام التي قضاها في الكهف، حتى إن سيسيليا اقترحت عليه أن تزوّجه منذ فترة، لا يدري إذا كانت تعني ذلك حقًا أم أنها كانت تمازحه، لكن الأمر وافق هواه بعض الشيء، ولولا أنها ما زالت ترفض أن تتركه وتتزوج لتزوّج بالفعل. كاميلا أيضًا سوف تتزوج بعد شهرشابًا بسيطًا يعمل بصناعة السيوف ويسكن بجوار منزل بولينا وسط المدينة بجوار معبد جوبيتر، كان لابيلوس هو من اقترح عليه العروس المدلّلة ابنة داما

الحلاق، لعلّه ظن أن سيسيليا قد تُغيّر رأيها في الزواج منه عندما تشعر بالوحدة.

"بروسيوس.. انتبه." صرخ بروتس وركض بسرعة ملتقطًا ابنه الصغير قبل أن يسقط عن حافة الصخرة المرتفعة التي تنتصب شرق البستان والتي أعجبه أن يلهو فوقها بعد أن هرب من أمّه التي تطارده منذ ساعة.

عنَّفه بروتُس قائلًا: توقّف عن المشاكسة وعُد للمنزل سريعًا.

تملّص بروسيوس منه وهو يقول: لا أريد، سوف تضربني أمي بعد أن أغرقت ملابس أنطونيو بالمياه، كنت ألعب فقط.

- أيها الشقي، عُد للمنزل. ربّما تكون ليلي قد نسِيت الآن.

هز بروسيوس رأسه معترضًا: أريد أن أذهب إلى بيت جدي.

- سآخذك غدًا عندما أنهي عملي، عُد للمنزل.

غدًا سوف يكون عليه نقل الزيتون الذي جمعوه أمس إلى المعصرة، لكنه لا يملك عربةً صالحة لمثل هذه المهام بعد أن أخذ يوسيفُيس البغل معهم، سيذهب اليوم إلى المدينة لاستئجار واحدة، وربما يجدر بهم الادِّخار لشراء عربةٍ جديدة بعد انتهاء موسم عصر الزيتون.

الكثير من الأفكار تعصف في رأس بروتُس هذه الأيام، بدءًا من سيسيليا التي كانت تكبر بالسن فعلًا دون أن تتخلى عن عنادها. لو أنها فقط تستمع إليه وتتزوج لابيلوس، ذلك الأحمق الذي أصبح يرفض الزواج وكأن الأمر أصبح تحديًا بينه وبينها.

هناك آنياس أيضًا ، لقد مرّ عامان منذ عودتهم ولم يجرؤ آنياس على الظهور أمامه في أي يومٍ من الأيام الفائتة. يحاول بروتُس إبعاده عن

تفكيره، و يعرف تمامًا أنه قد يدخل في شجار معه ما إن تقع عليه عيناه، قد يلفت ذلك إليهم الأنظار، وهولا يدري إلى أي مدى قد وصلت علاقات آنياس التي توطّدت مع النبلاء منذ رحيلهم إلى الكهف.

يُقال إنه يسكن بيتًا كبيرًا في الحي الجنوبي من هركيولانيُم، متزوجٌ وله طفلة في الخامسة من عمرها، ينفق الكثير من النقود في محاولاته شراء نفوذ النبلاء ورشوتهم. ذلك الوغد كان يعلم ما يفعله منذ البداية.

آنياس كان قد بدأ طريقه نحو الثراء بالفعل ولولا تلك القيود التي تُلجم العبيد المحررين حتى بعد نيل حريّتهم لكان قد تقدّم لانتخابات المدينة، غير أن العبيد المحررين لا يمكنهم الترقي في درجات المواطنة الرومانية بسلاسة وسهولة، وتظلّ حريتهم وحياتهم مرهونةً بأسيادهم السابقين.

بعض المحرَّرين كانوا يتحايلون للوصول إلى النفوذ عبر رشوتهم للنبلاء المفلسين ومساعدتهم بنقودهم للترقّي في الوظائف العليا ومن ثم يصبح نفوذ النبيل في جيب داعمه بالمال. وهذا بالضبط ما كان نافيدياس آنياس يسعى إليه بثروته التي تزداد يومًا بعد يوم.

***

-2-

مؤامرات

بومبيي- 73 للميلاد

انطفأ لهب القنديل الصغير في ركن الغرفة فساد الظلام قبل أن يسارع شبح امرأةٍ بدينة إلى إشعاله مرّة أخرى، أدْنَتْه من الفراش المهترئ الذي يحوي جسدًا شاحبًا هزيلًا لرجلٍ أربعيني يبدو نائمًا بينما تهتزّ شفتيه بارتجافاتٍ متلاحقة، تلتمع قطرات العرق المتساقط من جبينه عند انعكاس ضوء المصباح عليها ويبدو مصابًا بالحمى غائبًا عن الوعي.

قدمه اليمنى ملفوفةٌ بخرقةٍ من القماش تلوثت بالدماء الجافة والطين وتبدو للناظر إليها في ظل هذا الضوء الخافت كما لو كانت زرقاء اللون، أو هكذا خيّل ليوسيفْيُس وهو ينظر إليها مليّا بعد أن أعادت المرأة إشعال فتيل القنديل.

قال يوسيفْيُس في قلق:

لقد غربت الشمس سيغلقون البوابات الآن ولن نستطيع الخروج.

أجابه لوقا بهدوء: لا يمكننا العودة في كلّ الأحوال، هذه القدم في حالةٍ سيئة، وإن لم نطهِّر الجروح فقد تتعفن ونضطر لبترها. ثم إنه لن ينجو إذا لم نجد حلًّا للحمّى.. علينا البقاء هنا إلى أن تزول الحمّى.

بان التوتر على وجه المرأة ونقلت بصرها بين قدم زوجها الملقى بلا حراك وبين لوقا ويوسيفُيُس قبل أن تجلس في ركن الغرفة في صمت وهي تتابع الحديث الدائر بينهما.

- ولكن يا سيدي الطبيب، نحن في بومبيي، أنت تعلم أننا لا نستطيع المكوث بها طويلًا.
- اطمئن، إنهم منشغلون بمشاريعهم ومشاكلهم منذ انتهاء الحرب، لن ينتبه لنا أحد في هذا المنزل الصغير على أطراف المدينة.
- ربّما من الأفضل لو أخرجناه من المدينة وأخذناه إلى منزلي.
- هكذا سينتبهون لوجودنا بالفعل، دع عنك هذا القلق، سنكون هنا بخير، لن تطول إقامتنا، وإن شئت أن تذهب غدًا لمنزلك ثم ألحق بك فلا بأس بذلك.
- لن أخرج من هنا بدونك، فليحفظنا الله..

في الصباح أفاق الرجل وقد غادرته الحمى وإن بدا ذاهلًا عما حوله متسائلًا عن كيفية وصوله إلى بيته. كلّ ما كان يذكره هو هروبه من الكلاب التي أطلقها عليه أحد النبلاء وسقوطه من على سور مقبرة نيوسيريا. حدّثه لوقا عن الرجال الذين أحضروه من هناك منذ ثلاثة أيام، وكيف أنه نائمٌ منذ ذلك الحين.

لم تكن بومبيي من المدن المفضلة لديهم إلا أن الضرورة أجبرتهم على القدوم أمس بعد أن استنجد بهم أحد أصدقاء الرجل الذي حاصره المرض بلا طبيب أو علاج.

منذ مقتل بولس قبل أربع أعوام ولوقا يجوب المدن والقرى في جنوب روما بصحبة يوسيفْيُس، يعالج المرضى بما تعلمه من علوم الطب

محاولًا نشر تعاليم دين المسيح في تلك الأنحاء. ما زال متمسّكًا بالأمل إلى هذه اللحظة رغم تربّص المتربّصين بهم وقلّة المُقبِلين على دعوته التي لم تستقطب إلا الفقراء والعبيد من ساكني هذه البلاد. في الجانب الآخر كان لابيلوس يتنقل في قاربه موزّعًا جهده بين عمله في صيد السمك ونقل أخبار المؤمنين في القرى المجاورة وأحيانًا تهريبهم إلى حيث يكونون أكثر أمنًا.

***

صوت ضوضاء شديدة يأتي من ساحة الحمام الخلفية المعدّة للألعاب الرياضية. كان المصارعون يأتون إلى الحمّام يدهنون أجسادهم بالزيوت قبل أن يمارسوا رياضاتهم ويتعرقون ثم يكملون مراسم استحمامهم في الحوض الضخم المجاور لصالة الألعاب المكشوفة ذات الممرات المعقودة والتي تقود إلى مدخل الحمام المغطى بغرفه المتعددة.

استرخى رجلٌ أربعيني بدأ الشعر ينحسر عن رأسه في غرفة المياه الحارة بجدرانها الجصية الحمراء المسقوفة بقبو ذو أخاديد متوازية. أسلم جسده على المصطبة لأحد العبيد ليزيل عنه الأوساخ والدهون بمكشط عاجي بدا شكله مثل نابٍ مسطّح اعتاد الرومان على استخدامه في الحمامات لإزالة الأوساخ والجلد الميت.

تظاهر أنه لم يسمع صوت الرجل الآخر من داخل المغطس الدائري المليء بالمياه الحارة في أقصى القاعة المستطيلة، كان الصوت يبدو معترضًا حين هتف قائلًا:

ثم ماذا يا بالِبيوس؟ هذه الضرائب أصبحت تتجاوز الحدَّ فعلًا، ألا يجب أن نُظهر اعتراضنا عليها بشكل أو بآخر؟.

سمع تمتمات تأتي من بالِبيوس مغمض العينين فناداه ثانية: ماذا تقول لم أسمعك؟.

تنهد بالِبيوس ثم قال بفراغ صبر: قلت نعم.. نعم يا فونا.

- نعم، نعم ماذا؟ ماذا سنفعل؟.
- ألا تصبر يا رجل حتى أنتهي من حمامي.
- ألا تشعر بالقلق مثلنا يا رجل. أرباحنا تتراجع بشدة وهذه الضرائب تلتهمنا التهامًا.
- هذه الضرائب كانت موجودة منذ عهد نيرون يا فونا. بالطبع نجحنا في السيطرة عليه حينها بواسطة بوبيا، لكنها كانت موجودة. أعرف أنها مثيرةٌ للقلق خصوصًا مع إصراره على الإصلاحات في البلاد بحيث لا نستطيع التهرب منها وإلا كنّا من أعداء الإمبراطورية. وأعرف أن تجارتنا تأثرت بشكل كبير، أعلم هذا، أضف إلى ذلك عدم قدرتنا على محاربة أتباع الدين الجديد علنًا. أعرف كلّ هذا وأعرف أن الأمر مقلق، لكنّه يحتاج إلى تفكيرٍ عميق لا يصلح هنا في الحمام، اصبر حتى أنهي حمّامي يا رجل!

***

دخل تيتوس على الإمبراطور في قاعة العرش بالقصر وقد بدا متوترًا عابسًا وكأنه على وشك الشجار.

كان فِسباسيان في شرفة قصره يتابع بعض الحشود المتجمّعة اعتراضًا على الضرائب الجديدة التي فرضتها الحكومة الرومانية، وإلى جانبه وقف بعض النبلاء من مجلس الشيوخ يتبادلون الحديث الهامس قبل أن ينتبهوا إلى تيتوس الذي بادرهم بقوله:

- هذا غير معقول، كلّ هذه الضرائب قد تعيدنا ثانية إلى الثورة والحرب الأهلية، نحن بالكاد استتبّ لنا الأمر وهدأت روما.

نظر إليه فِسباسيان وقال: أليست هذه الضرائب من أجل روما؟ إعمار روما، وحماية روما؟ يجب على كلّ مواطن روماني مقتدر أن يشارك في بناء البلاد، كلّ ما نفعله أننا نشركهم في بناء الدولة التي يعيشون في كنفها.

- لكن يا سيدي، ضرائب على المباول العامة؟ الناس تسخر منا.. إنها نقودٌ قذرة.

صمت فِسباسيان ثم ناوله قطعة نقدية ثم قال: قرّبها من أنفك، هيا، ها.. هل لها رائحة؟.

قال تيتوس مندهشًا: وهل للنقود رائحة !

هز فِسباسيان كتفيه قائلًا: أنت قلتها، هل للنقود رائحة؟ هذا الدينار من ضرائب المَبَاوِل العامة، تلك التي يجمعون فيها البول ثم يبيعونه للمغاسل، وها أنت ترى أنها بلا رائحة، النقود لا تتسخ بقذارة مصدرها، إنها نقود في النهاية.

صمت قليلا ثم تابع: دعني أخبرك شيئًا، إن أكثر ما يثير الغيظ هو استغلال بعضهم لنفوذهم ونقودهم وبناء إمبراطورياتهم الخاصة، هؤلاء هم أساس الفتنة والثورات بتدخّلهم في قوانين الدولة وشرائعها، هم سبب المؤامرات التي عايشتها ورأيتها منذ دخلت في العمل الحكومي، نفوذ هؤلاء هو عبء على الدولة واستقرارها وأمانها، يبيعون لأجل مصلحتهم أي شيء. ولأجلهم بالذات كان لابد من بعض القوانين التي تحدّ من تدخلاتهم وتلهيهم في أعمالهم ومشاكلهم الخاصة، لقد عاشرتهم

لأكثر من ثلاثين سنة وأعرف تمامًا كيف يفكّرون. لابد من استخدام القبضة الحديدية في التعامل معهم. لا مكان للعاطفة في الحكم يا بني ولا وقت للتهاون، إن البلاد تعتمد علينا.

بدا تيتوس غير مقتنع بما قيل لكنه توقف عن النقاش، ساد الصمت فترة قبل أن يقطعه فِسباسيان قائلًا: ألم يأت بلينيوس من كومو بعد؟.

- لقد أرسلنا في طلبه أمس وهو في طريقه إلينا في هذه الأثناء.

- أتراه سيقبل بمنصب قائد الأسطول في ميسانو؟ أعتقد أنها فرصة جيّدة لنستغل معرفته الواسعة، لقد أمضى الكثير من الوقت معتزلًا الحياة منغمسًا في كتبه.

- لا أظنه سيرفض. ثم إنه سيكون متفرغًا لكتاباته في ميسانو مادامت الحروب قد توقفت والوضع مستقر في شمال أفريقيا ومصر وسواحل سوريا.

- جيد إذًا.. هذا جيد..

عاد يتابع المتظاهرين الذين بدأوا بالتفرّق وخفتت أصواتهم بعد أن توسّطت الشمس السماء وزادت حدّة حرارتها فمَلَّ الناس من انتظار ردّة فعل الإمبراطور على تظاهرهم.

كان بعضهم يحرض البسطاء بالخطب الرنّانة ليثوروا على فِسباسيان وقراراته الصارمة، غير أن عجزهم عن إغضابه وجرّه للعنف جعلهم يَمَلُّون من الاعتماد على الشعب لإثارة البلابل، لكنهم بالتأكيد لم يتوقّفوا عن التفكير في حلولٍ أخرى للنيل من فِسباسيان.

***

ميسانو - 73 للميلاد

بدت مياه البحر هادئةً في الميناء الخاص بالأسطول الروماني على سواحل ميسانو. كان بلينيوس في شرفة القصر المطل على الخليج يراقب عودة قطع الأسطول المرافقة لسفن الغلال القادمة من مصر إلى روما، جالت عيناه بين السفن الكثيرة مستغربًا الهدوء الذي تحياه الإمبراطورية منذ أربع سنوات بعد أن عاشوا لفترة طويلة في مشاكل الأباطرة والثورات والحروب والاغتيالات. كان قد استقرّ في وظيفته كقائد للأسطول الروماني في بحر الروم براتبٍ مجزٍ تدفعه الحكومة الرومانية، ولذلك وجد وقتًا وفيرًا مكَّنه من إكمال موسوعته في الطبيعة أو كاد ينهيها.

ما زال أمر الخالق ودين المسيح يشغل تفكيره برغم كلّ إنجازاته وانشغالاته، يتمنى لو تسنح له فرصة لقاء الرسل القادمين من يهوذا. في الماضي كان يتجنب الصدام مع نيرون خلال فترة حكمه، ولذلك لم يبذل جهدًا كافيًا للقاء بولس وبطرس قبل إعدامهم منذ سبع سنوات. غير أن الشائعات ما زالت تتواتر عن الدعاة الذين يجوبون إقليم كامبانيا بالسر، يدعون الناس إلى الله ومكارم الأخلاق ويجودون عليهم بالعلاج والدواء والبركة. لقد فكّر ذات مرة أن يزور هركيولانيُم حيث قيل أن أحدهم يسكن في شمالها، إلا أن أشغاله لم تسمح له بذلك.

" سيدي.." قاطعه صوت أحد الجنود الذي دخل عليه غرفته فتساءل بلينيوس قائلًا: أجل، ماذا هناك؟.

أجابه الجندي المرتبك: لقد تعرّض الإمبراطور لحادثة.

التفت بلينيوس مستفهمًا، فأجابه الجندي: تعرّض لهجومٍ من فرسان مجهولين وكادت العربة أن تنقلب به أثناء ذهابه إلى منزله الصيفي في ريتي.

نهض بلينيوس منزعجًا مُستحضرًا السنوات التي مرت على روما إثر انتحار نيرون، خصوصًا عام الأباطرة الأربعة وما زخر به من حروب وقتل. التفت للجندي الذي جاءه بالخبر متسائلًا عن سلامة الإمبراطور فأجابه بأن لا معلومات لديه، ولكنه يعلم أن المهاجمين جميعًا قد قُتلوا قبل أن يتضح أنهم مرتزقة من الجرمان أتباع فيتيليوس.

توشّح بلينيوس بعباءته وقال: جهّز لي العربة إذًا، سأذهب لروما.

- إن الإمبراطور الآن في ريتي سيدي.

- فليكن إذًا، إلى ريتي.

في بومبيي، على الجانب الآخر من خليج نابولي كان السادة مجتمعين في منزل بالبيوس وقد تعالت أصواتهم الغاضبة حانقين على فشل الاغتيال الذي جُهّز بعناية ليبدو بعيدًا عنهم قدر الإمكان؛ تجنبًا لغضب الشعب الروماني ومجلس الشيوخ. إن فشل الخطّة قد يجلب معه فضيحةً كبرى تُعَرِّضهم لنقمة الإمبراطور وانتقامه وسوف تتسبّب باتهامهم بالخيانة العظمى وإعدامهم.

قال فونا متوترًا: ما كان عليك أن تثق بهؤلاء الجرمان يا بروكولوس.

رد بروكولوس منزعجًا: هل كنت تتوقّع أن نختار جنودًا من الرومان، أحمقُ أنت؟ الجيش الروماني بالكامل يدين بالولاء لفِسباسيان وتيتوس، ثم إن من السهل علينا أن نتبرأ من أي ارتباط بهؤلاء الجرمان.

تساءل بالِبيوس باهتمام: هل بقي أحدٌ منهم حيًّا؟ بل الأهم هل أصيب الإمبراطور أم لا.

زفر بروكولوس بعصبية قائلًا: لا أحد يعرف، يتكتَّمون على الأخبار تمامًا.

بالِبيوس: في كلّ الأحوال لا علاقة لنا بالأمر، سنقوم بالسؤال عن الإمبراطور وتهنئته بالسلامة.

فونا: ماذا لو نجا الجنود الجرمان؟.

بالِبيوس: نحن لم نَلتقِ بأيٍّ منهم أبدًا، وفي حال نجوا من الموت واعترفوا على ماركوس سابيليوس، سنقتله قبل أن يصل إليه الجنود، لا تقلق، سيكون كلّ شيء على ما يرام.

فونا: ماذا عن الإمبراطور، أقصد ماذا لو أنه نجا بالفعل؟.

تنهد بالِبيوس قائلًا: سيكون لنا معه شأن آخر فيما بعد.

***

ريتي - 74 ميلادي

كان الصمت يسود الغرفة التي خلت من سواهما في ذلك البيت المنعزل في ريتي.

هي، صامتةٌ رغمًا عنها، تنتابها نوبات من الإغماء بين الحين والآخر، بالكاد تستطيع رفع جفنيها لتراه فترخيهما ثانيةً طلبًا للسلام، قد تنحدر منهما بعض القطرات من الدمع لشعورها بالعجز الذي يربض فوق صدرها فيمنعها من وداع هذا العالم كما يليق به، ومن وداعه هو، فِسباسيان.

هو، صامتٌ لأنه يحاول أن يحيا كلّ اللحظات التي جمعتهما معًا منذ تعرَّف إليها قبل أكثر من ثلاثين سنة إلى أن جمع بينهما القدر ثانيةً رغمًا عن الجميع.

وحدهما يعرفان كيف يمكن للصدق في الحب أن يتغلّب على كلّ العقبات حتى عقبة الزمن. في خياله رآها كما أول مرة عندما كانت تعمل مساعدةً لوالدة الإمبراطور كلوديوس، تذكر كيف أن كونها من العبيد لم يمنعه من أن يسعى لصداقتها ورفقتها لوقت طويل، وكيف أنها كانت أهمَّ داعمٍ له في عمله السياسي إلى أن حصل على منصبٍ مرموق في سنٍ صغيرةٍ جدًا، رغم أنه لم يكن من عائلةٍ نبيلة.

في خياله رآها، بثوبها الأبيض المُنسدل، وعينيها الزرقاوين اللتين التقتا بعينيه في دهشة طفولية لم يفهمها حينها، غير أن تلك النظرة لم تبارح ذاكرته في كلّ سنوات رفقتهما، حتى بعد زواجه من دوميتيلا. لم يكن يمتلك الجرأة لتحدِّي التقاليد الرومانية وهو الشاب الطموح الذي يسعى لصعود سلّم المناصب السياسية، ولم يكن المجتمع الروماني ليغفر له زواجه بأمَةٍ من الرقيق.

تذكَّر نظرتها وهي تودعه عندما قرّر السفر لوظيفته الجديدة في شمال أفريقيا وقد باح لها بعدم قدرته على الزواج منها، ليتها تفتح عينيها قليلًا ليرى أن تلك النظرة لم يعد لها أي وجودٍ إلا في مخيّلته.

تزوج دوميتيلا فلافيا وأنجب منها تيتوس ودوماتيان ودوميتيلا الصغرى، ومضت به الحياة تنقله من أفريقيا إلى روما إلى مصر وسوريا دون أن ينسى للحظة واحدة رفيقته الأولى التي تحرّرت ولم تعد ملكًا لأحد فيما بعد.

ثم شاء القدر أن تموت زوجته منذ عشر سنوات. وكان عليه أن يكون نبيلًا بما يكفي ليعود إليها، قويًّا بما يكفي لكي يواجه مجتمعه، وأنانيًّا بما يكفي ليسعى لإسعاد نفسه التي ظلمها منذ البداية، فيُعاند الجميع لكي يبقيها إلى جانبه.

ها هي الآن ترحل لتتركه يتجرّع الذكريات وحده بعد أن أصبح إمبراطورًا على هذه البلاد بكل ما فيها من أزمات وهموم، وهي التي طالما كانت سندًا له وعونًا في حمل هذا العبء.

" لمن تتركينني الآن يا كاينيس"

استطاعت أن ترفع جفنيها قليلًا لتواجه عينيه في وداعٍ صامت فارتسمت على شفتيها شبه ابتسامة صغيرة قبل أن تعود لنومها ثانيةً ويعود هو لأفكاره محدّثاً نفسه: "كنتَ وحيدًا دائمًا يا فِسباسيان.. ولن يضيرك أن تعود لوحدتك ثانية."

***

-3-

ياء و سين

غزة - 14 تموز 2018 م

انتبهتُ على نبتة الصبار القابعة في مدخل منزلي والتي أنسى دائمًا أن أسقيها بالماء، فاتركها لقدرتها على محاربة الموت الى أقصى الحدود.

عندما أتذكّر أنني تركت هذه النبتة لصراع البقاء وحدها بلا ماء، أستغرب كيف أنها تبدأ بامتصاص الماء والغذاء من سيقانها السفلى التي هرمت وتحجّرت لكي تستمر في النمو وإنبات السيقان الجديدة، تستمر في الحياة برغم كلّ الظروف. غيرَ أنها في كلّ مرةٍ تأكل فيها نفسها كانت تنبت سيقانًا أكثر ضعفًا وهشاشةً، كأنه مُحرَّمٌ عليها أن تأكل أمّها التي دفعت إليها بماء الحياة وضَحَّت بنفسها لكي تستمر السيقان بالصعود الى السماء.

وددت لو أخبرتها أن السيقان لا تصعد إلى السماء؛ فمع استمرار ضعفها وفنائها كانت تنبت ضعيفةً دقيقةً رقيقةً، تنحني إلى الأسفل وتتهدَّل على جانبي الحاوية الفخارية. وددت لو أخبرتها أنني أشتاق لسيقانها الشامخة ممشوقة القوام التي كانت تجرح أناملي ما أن أمسها، أشتاق لأشواكها.

مددت يدي وأخرجتها من التراب لأنني لم أعد أريد أن أراها هنا فتذَكِّرُني بضعفنا وهواننا. نحن أمةٌ تشبه الصبار، مع كلّ ما مرَّ علينا من ظروفٍ وحروبٍ وهوانٍ واضمحلال تدريجي على مدى 1400

سنة، كنَّا نستمرُّ في النُّمو، كُنا نأكل من تراثنا الذي تركه السابقون فنقتلهم لنحيا ونستمر. وفي كلّ مرةٍ نتغذّى فيها على جذورنا كنَّا نصبح أضعف وأدقّ وأرقّ من ذي قبل، وكُنّا ننحني ونصبح أكثر هوانًا من ذي قبل. كثيرون نحن كأفرع الصَّبَّارة الرقيقة الدقيقة، ولكننا بلا كرامة وبلا وعي ولا هدف، ولا قوة تحمينا فنستمر بعد أن تموت تلك السيقان الأم التي أعطتنا عصارتها لنحيا.

عندما أخرجت الجذر المدفون في التراب كان يحمل لي مفاجأة، كان هناك ساقٌ صغيرةٌ ناصعة البياض مدفونةً تحت التراب وتخرج من الجذر مباشرةً متحديةً موت السيقان الأم. تذكَّرت حينها كلام زوجي حين كان يقول " Back to basics " أو العودة للأساس، العودة للجذور.

عندما نضيع بين العلوم والثقافات والعصور، عندما نكتشف أننا قد خُدعنا من الكثيرين، وأننا أضعنا عقولنا وأعمارنا في ترَّهات وتفاصيل مائعة لم تتسبب إلا في المزيد من هواننا وإنكارنا لذواتنا وهويتنا، عندها علينا العودة إلى الجذور.

هذا هو ما يفعله الله بهذه الأمّة، يقتل نبتة الأمة القديمة بهوانها وتكالبها على الدنيا ليُنبت للأمة نبتًا جديدًا من الجذر مباشرة، نبتةٌ تعود للوحي الإلهي كما نزل على محمد عليه الصلاة والسلام، تعود لسيرة خاتم الأنبياء كما حقَّ لها أن تبدو وتتألق.

دسست الجذر الحي ذا الساق البيضاء في التراب بعدما أزلت باقي النبات بكل تفاصيله وسيقانه، ضعفه وهشاشته، موته وحياته. أبقيت على الجذر المؤمَّل نجاحه في الحياة من جديد مُعاهِدةً نفسي أن أنتبه لسقايته

بالماء هذه المرّة. إن المهمة التي تقع على عاتقي في حياة هذا النبات كمهمتنا جميعًا في إحياء هذه الأمة من جديد.

***

كثيرًا ما استوقفتني في سورة يس الآية التي تقول: "قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ".

أصابتني القشعريرة وأنا أتخيل نفسي وبحوثي وأرقامي وكل ما يمرُّ في طريقي مجرّد أداة سخرَّها الله لكي يحقِّق بها أمنية رجلٍ مات منذُ ما يقارب ألفي سنة. ما الشيء الذي فعله هذا الرجل ليحقِّق الله أمنيته بتبليغ قومه؟ ما الشيء الذي فعله ليذكر الله قصته في قرآن يُتلى منذ ١٤٠٠ سنة.

تذكّرت حينها قصة عبد الله بن حرام ظليل الملائكة أبو جابر، ذلك الذي رُوي أن الله كلمه كفاحًا دون حجاب بعد استشهاده في غزوة أحد، وقد تمنّى حينها على الله أن يعود للدنيا فيَقتل ويُقتل، لكن الله قضى أنهم إلى الدنيا لا يرجعون، حينها طلب أبو جابر من الله أن يبلِّغ المسلمين بحالهم، فأنزل الله تعالى "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ".

لمّا تذكرت هذه القصة، طفقتُ أبحث في سيرته عما أوصله لهذه الكرامة، أن يكلم الله ويتمنى عليه أمنيةً فيحققها الله له ويذكرها في كتابه الكريم، ماذا فعل لكي يصل لهذه المنزلة؟.

وبقدرِ ما بحثتُ عنه، لم أجد إجابةً تقنعني في أقوال السابقين، لم أقتنع أن التقوى هي ما أوصلته إلى مكانته على عِظَم ما للتقوى من مكانة.

استشهد عبد الله بن حرام في سنوات ضمت خيرة الرجال وأتقاهم فلماذا وصل هو بالذات من بينهم لهذا المقام؟.

بحثت كثيرًا إلى أن وصلت إلى حادثةٍ معينة حصلت معه قبيل المعركة، وقد كان من أوائل الذين استشهدوا في يوم أحد. في ذلك اليوم تخلَّف عبد الله ابن أبي بن سلول عن المعركة وانسحب بثلث الجيش، فلحق بهم عبد الله بن حرام يثنيهم عن انسحابهم وخيانتهم للنبي عليه الصلاة والسلام وظلّ ينصحهم حتى استعصوا عليه ويئس منهم.

هذا بالضبط ما حدث مع مؤمن سورة يس والذي لا أظنه سوى العالِم المؤرخ بليني الأكبر، لقد كان يدعو قومه ويُلحُّ عليهم بالإيمان حتى مات.

مات وما زال في قلبه حبٌّ لهم وشفقةٌ عليهم يتمنى لو رأوا حاله عند رب العالمين، مات وظلَّت أمنيته أن يتحقق إيمانهم رغم أنه انتقل إلى دار الحق ودخل الجنة. ما زال يفكر في قومه الضالين الذين رفضوا أن يسمعوا نصيحته حتى آخر لحظة في حياته وبعد مماته، إنه الحب الخالص الذي لا تشوبه شائبة، ترفّعٌ عن الماديات وسموّ بالروح لدرجةٍ لا نتخيّلها نحن الذين تلوّثنا بحب الدنيا وتفاصيلها حتى نسينا ملامح فطرتنا الأولى.

إن الفطرة السليمة لهؤلاء أرَّقتني بشدة. كيف أنّهم، برغم كل شيء، حملوا في قلوبهم كلّ ذلك الحب لأقوامهم، كيف أنّهم ما كانوا يتمنَّون لهم إلّا الخير والصلاح.

أرَّقتني وأنا أرى البشر من حولي يكرهون لبعضهم الخير والنجاح، يتحيَّنون الفُرص لإثبات أن الآخرين على باطل، يفرحون لأحزانهم

وينقبضون لأفراحهم، علمتُ حينها أننا مازلنا نحتاج سنواتٍ وسنوات لكي نرجع إلى الفطرة السليمة، وكم كنت وما زلت أرجو أن أكون على خطأ.

***

خطر ببالي في لحظة من لحظات السكينة أنني يجب أكتب قصة بومبيي في رواية.. أريد للقصة أن ترى النور بعد أن اختفت ملامحها في التاريخ. ذلك التاريخ الذي كان علي الغوص في كتبه والأفلام الوثائقية التي تتحدث عنه بحثًا عن الحقيقة. كان على أن أراجع مبانيهم، آثارهم، أن أحفظ شوارعهم وطرق حياتهم والكثير من التفاصيل التي لم تخطر ببالي قبل الآن. كنت أودّ الحفاظ على القيمة العلمية للرواية برغم كونها نابعة من تخيّلاتي الخاصة.

فجأة، وفي خضمِّ بحثي المستمر تخيّلت أنني قد أجد اسم الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى مذكورًا في الآية الكريمة عند كلمة "رجل"، وذلك بفرض أنني أسير بمنهجية ثابتة وهي استخدام أعداد الكلمات في توثيق الأسماء والتواريخ.

في السابق لم أكن اتَّبِع أيّ منهجيّة حقيقية، هذا ما أدركته عندما سألتني أسماء شقيقة زوجي ذات مرة عن المنهجيّة التي أتبعها وكيف يمكن لأي شخص آخر لو أراد أن يبحث مثلي أن يسير بخطوات معينة واضحة في دراسته. الحقيقة أنني لم أستطع الإجابة عليها في ذلك الوقت، كنت أعتمد على الصدف التي أسمِّيها إلهامًا من الله، أجرّب وأجرّب حتى يستحضر ذهني الحل. لكنني الآن بدأت أرتب خطواتي التي تقودني للتجارب والحلول.

في البداية يجب أن يكون لديك نظرية معينة تودّ إثباتها، أيُّ بدايةٍ أو حجرُ زاويةٍ ترتكز عليه في دراستك لكي تضع فرضية تحتمل الصواب والخطأ، وفرضيتي هنا تقول إن بلينيوس هو الرجل المؤمن.

الخطوة الثانية أن أتتبَّع القصة التي تحدّثت عنه في القرآن والتي تذكره صراحة عند لفظ "رجل" في قوله تعالى: "وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى".

الخطوة الثالثة أن أعدَّ الكلمات والحروف وأدوّنهم وأتأكد من عددهم، وأنا أفضل العد اليدوي لأن فوبيا الأرقام لا تغادرني، لا أثق بالأعداد، كما قلت لك سابقًا.

عدَدتُ الكلمات وجدت أن عددها بدايةً من يس إلى كلمة رجل هو 168 كلمة.

الخطوة الرابعة حساب الجمَّل بعد الوصول للكلمة الصحيحة واللفظ الصحيح للاسم، ولقد جلست أحسب الجمَّل لاسم بلينيوس:

ب + ل+ ي + ن+ ي+ و+ س

168 =60+6+10+50+10+30+2=

أعرف أنك سوف تستغرب الأمر، لكنها المرة الأولى التي أفكّر فيها بهذا المنطق وهذا الترتيب وأجد الجواب مباشرًا جدًا.

يبدو أن نظريتي في تفسير سورة يس لم تكن وهمًا، ولعله بلينيوس بالفعل هو الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى والتقى بالرسل قبيل موته الذي تبعته الصيحة الكبرى. ولعل المعلومات التي ذكرها بليني الأصغر عن خاله والتي جمعها من الناجين من طاقم الأسطول الذين رافقوه غير كافيةٍ لتوضح لنا ما حصل معه خلال هذه الرحلة.

لا أحد يعلم القصة إلا الله الذي هو منزل هذا الكتاب على النبي الأميّ محمد عليه الصلاة والسلام.

لكن شيئًا مهمًّا أزعجني في هذا الاكتشاف الجديد، لقد حسبت الجمَّل لاسم بليني الأكبر من اسمه الروماني بلينيوس بإضافة واو وسين على بليني بينما حسبت الجمَّل لاسم البركان فيزوف من اسمه الروماني فيزوفيُس بإضافة ياء مضمومة وسين فما الذي اختلف بينهما لتختلف الحروف المضافة للاسم؟.

في العادة أحاول الإحاطة بكل الظروف والملابسات حتى أسدّ الثغرات في الفرضية التي أطرحها. إن لم أفهم هذه النقطة فإن أيّ شخص قد يجعل منها نقطة ضعفٍ واضحة في الاستنتاج، فلماذا يختلف اسم العَلَم "فيزوف" عن اسم العَلَم "بليني"، لكي نضيف على الأول ياء وسين ونضيف على الثاني واو وسين.

فيزوف اسم علم ينتهي بحرف ساكن "الفاء" بينما بليني ينتهي بحرف علة "الياء"، فلو أننا أضفنا الياء المضمومة والسين لكليهما سيكون لدينا فيزوفيس وبلينييس، أما فيزوفيُس فمقبول لفظًا، لكن بلينييس صار ثقيلًا جدًا لالتقاء الياء مع الياء المضمومة ولو أردنا تخفيف نطقه سنقلب الياء إمّا واوًا او ألفًا فتصبح بلينياس أو بلينيوس. هذا منطقي إلى حد ما، خصوصًا أن الواو ستعادل ضمة الياء في فيزوفيُس.

ماذا لو انتهى اسم العلم بحرف علة آخر كالألف في لوقا ويونا أو الواو في روميو وجوليو؟ فلنجرب ونضيف الياء والسين للأسماء:

لوقا ويونا تصبح لوقايس ويونايس، واللفظ هنا ثقيل أيضًا بل إنه سيصبح أثقل لو قلبنا الياء واوًا أو ألفًا، وأظن في هذه الحالة يمكننا حذف

الياء تمامًا فيصبح يوناس ولوقاس، وهذه الأسماء موجودة بالفعل لدى الرومان.

أما روميو وجوليو ستصبح بعد إضافة الياء والسين روميويس وجوليويس، وبالطبع هي ثقيلة وحذف الياء هو أفضل الطرق لتسهيل لفظها لنجد لدينا جوليوس وروميوس وهو بالفعل ما كان شائعًا في الأسماء الرومانية.

تقبَّل عقلي هذه الفرضية بالفعل، نُضيفُ حرفي الياء والسين كأساس للعلم المذكر ثم نقرّر كتابة الاسم النهائي حسب الحرف الذي يختتم الاسم قبل الإضافة.

ياء وسين؟؟.

أليس غريبًا أن تتطابق هذا النظرية مع اسم السورة يس والأحرف الافتتاحية في أول آياتها؟.

هل كانت الآية الأولى "يس" هي عبارة عن شيفرة لمساعدتنا في حل اللغز؟.

***

انتبهت إلى صوت اهتزاز هاتفي على المنضدة، لا أستطيع التوقف عن عادة ضبط هاتفي على النمط الصامت. كان المتصل هو أحد زملائي بالكلية يتساءل إذا ما كنت سأعود إلى العمل في الفصل القادم بعد انقطاع دام ثلاث فصول أم لا.

لم أكن في حالةٍ نفسية جيدة فوجدتها فرصة للخروج من التوتر الذي سيطر على أفكاري فطلبتُ منه مهلةً للغد وفي قرارة نفسي أعلم أنني عائدة للعمل.

في ذلك الوقت كنت متعبةً من البحث في سورة يس بعد أن خطر ببالي أن أسماء الرسل الثلاثة هي أَوْلى بالذكر في القرآن من اسم الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، فهل كنت مخطئةً في تخميني لتفاصيل القصة وافتراض حقيقة الرسل، بولس ولوقا وبطرس؟ لقد كان كل الافتراض مبنياً على التدوين التاريخي لقصص رسل المسيح الذين كانوا موجودين بالقرب من بومبيي في ذلك الزمن، وكنت قد عجبت من توثيق وجود بولس ولوقا معًا وتأكيد استشهاد بولس وبطرس في روما مع اختفاء كل تفاصيل قصصهم بما فيها الأحداث التي مرّت على لوقا بعد عام 64 للميلاد.

لكن الأرقام لا تساعدني في إيجاد أسمائهم في القرآن كما فعلتُ مع بلينيوس. كان لدي يقين تام أنه إذا كانت أسماء الرسل مؤرخةً في الآيات فسأجدها مذكورة عند لفظ "اثنين" ولفظ "بثالث" في قوله "إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالثٍ". لا توجد آيةٌ واحدة في القرآن الكريم فَصّلَت في عدد المرسلين إلا هنا في سورة يس. ولذلك وقع في قلبي أن أسماءهم موجودةٌ عند هذين اللفظين بالذات.

احتسبت عدد الكلمات من كلمة "يس" إلى كلمة "اثنين" فكانت تساوي 105 كلمات، وعدد الكلمات من "يس" إلى كلمة "بثالثٍ" فكانت تساوي 108كلمات.

جُملّ بولس هو : 98 وجمّل لوقا هو 137 وجمّل بطرس هو 271 وكل هذه الحسابات لا تتطابق مع عدد الكلمات. ظللت أجرب تعديل كتابة الأسماء لشهرين حتى مللت، تركت تفسير السورة واكتفيت بما وصلت

إليه من استنتاجات، جمعتها كلّها وأرسلتها في رسالة إلى الشيخ بسام جرار ومركز نون.

***

كنت سعيدةً بالنتائج فصرت أحدِّث الجميع عنها وعن الآيات التي تتوعد البشر بانفجار آخر للبركان كالذي دمّر بومبيي. يقول العلماء أن البركان ينفجر كلّ 2000 سنة بالطريقة ذاتها التي انفجر بها عام 79 للميلاد وهذا يعني أننا قريبون زمنيًّا من انفجارٍ مشابه، لقد مضى على تدمير بومبيي 1950 سنة. ويقولون أيضًا أنّ متوسِّط فترة السكون في العادة هو 60 سنة، وكلَّما زادت فترة سكون البركان النشط كلما زادت قوته التدميرية. وهذا ما جعل العلماء يستغربون من سكون البركان الذي مضى على آخر ثورةٍ له ما يقارب ثمانين سنة ، لقد كانت آخر ثورةٍ له قد حدثت في القرن الماضي عام 1934.

يبدو الجبل هادئًا وجميلًا يقصده الجميع للاستجمام والرحلات السياحية، لكن العلماء يعلمون جيدًا أن أي ثورة قريبة قد تتسبب في تشريد ثلاثة ملايين إنسان مع احتمال حدوث زلازل وموجات تسونامي تغرق سواحل البحر المتوسط. الأكثر عجبًا من كلّ هذا أنني أرى هذا الوعد مذكورًا في القرآن بعد انتهاء قصة القرية.

يقول الله سبحانه وتعالى "وآيةٌ لهم الأرض الميتة أحييناها" هذه الآية تصف حال الأرض التي دمرها البركان تمامًا، ثم كانت المعادن التي قذفها هي التي حولتها إلى تربةٍ خصبة نَمَت فيها الكروم والنخيل والأشجار ثانيةً، ثم تفجّرت الينابيع والعيون من الجبال وأصبحت جنةً أخرى جذبت السكّان فأعادوا إحياءها من جديد.

ثم يقول الله تعالى "وآية لهم أن حملنا ذريتهم في الفلك المشحون.."، ما أعرفه أن الحفريات في مدينة هركيولانيُم اكتشفت اختفاء السفن جميعها من بيت السفن وخان المراكب الموجود في مينائها، علَّل العلماء ذلك أن أكثر أهل المدينة قاموا بالهروب منها عن طريق البحر، وذلك بعدما رأوا البركان في مراحل ثورته الأولى، حيث أن مدينة هركيولانيُم كانت بعيدةً عن اتجاه الرياح المحمّلة بالرماد البركاني، كانوا يشاهدون العذاب الذي يحلُّ بمدينة بومبيي من بعيد.

لقد كانت فرصة نجاتهم أكثر بكثير من سكان بومبيي العالقين، ولذلك خلت حفريات المدينة إلا من الهياكل العظمية في خان المراكب والتي يقدّر عددهم بما يقرب من ثلاثمئة شخص.

تخيلتُ أن الفلك المشحون قد حملهم نحو النجاة، وكان من الممكن أن تغرق السفن مع صعوبة العوامل الجوية في ذلك الوقت واحتمال حدوث تسونامي، لكن الله أمهلهم برحمته إلى حين. فإذا دقّقنا في كلمة "إلى حين" سنجد أن هذه الآية ما زالت تحمل وعيدًا بإغراقٍ كبير قد يحدث في المستقبل لأن الله يقول "ولكن رحمةً منا ومتاعًا إلى حين"، وهذا ما اتضح لي حين وصلت إلى الآية التي تقول "ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون"، أليس هذا وعدًا أكيدًا كما نفهم من الآيات؟ الله يتوعد الظالمين بصيحةٍ أخرى تأخذهم بغتة، ولا أظن المعنى يحتمل يوم القيامة، لماذا؟ لأن الله قال "فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون" وهذا يعني أن أهلهم لن يموتوا معهم لأن الله ينفي عودتهم إليهم، أي أن صيحة الإهلاك لن تعمّ كلّ أهل الأرض،

وهذا ينفي أنها صيحة يوم القيامة التي ستهلك الجميع ولن تترك أحدًا، بل لن تترك الأرض ذاتها.

***

-4-

قرية.. كانت ظالمة

هركيولانيُم - ٧٩ للميلاد

بدت الشوارع على غير عادتها مكتظةً بالمارة بينما لابيلوس يسير في طريقه إلى حيث واعد بروتُس في محل الحلاقة.

الشارع الجانبي الضيق والباب الصغير ما زالا كما هما منذ جاء قبل سنوات يخبر داما العجوز عن عزم الجنود الرومان القبض على بولس ولوقا، بعض الصدأ يعلو الباب الحديدي الذي تتخلّله أغصان النباتات المتسلقة قد نَمَت على جدار المنزل الرطب في غفلةٍ من أصحاب المنزل. بروتُس في الداخل ينهي عمله في تهذيب شعر شابٍ غليظ المظهر محاولًا عدم الاكتراث للهراء الذي يتحدّث به. وقف لابيلوس بجانب الباب دون أي كلمة حتى خرج الشاب الغليظ متبرّمًا فتنفس بروتُس الصعداء قائلًا: يا إلهي، كنت قد نسيت كم أن هذا العمل ثقيلٌ على قلبى.

قال لابيلوس باسمًا: كنت سأسألك لماذا عدتَ للحلاقة، ألم يكن العمل في البستان قد أراحك من كلّ هذا.

تنهد بروتُس وقال: لقد كبر أبي على هذا العمل، ظهره انحنى ويداه ترتجفان، ولم يعد أحدٌ يرغب بالحلاقة هنا خوفًا منه، أنت تعلم كيف هي الأمور، ليلي وأمها تعتنيان بالبستان وتساعدهم جوليا في العمل. هييه..

دَعَك مني، كيف أنت؟ لم نسمع عن يوسيفُيُس والطبيب منذ زمن، كيف أنتم؟.

- بخير يا صديقي، كلنا بخير حال، يوسيفُيُس والطبيب في نيوسيريا منذ أسبوع وأظنهم بمأمنٍ هناك، ربّما ألتقيهم في مطلع الشهر القادم قرب ستابياي. وأنا كما تعلم ما زلت أتنقل على القارب أصيد السمك وأبيعه بالسوق.

نظر إليه بروتس نظرة إشفاق لم تخفَ على لابيلوس الذي حاول تجاهلها، قبل أن يقول بروتُس ما كان يتوقعه: ألن تتزوّج يا صديقي، تحتاج إلى بعض الاستقرار والرفقة.

- أخبرتك أن الأمر لا يؤذيني. لماذا عليّ أن أشرح الأمر دائمًا، لك ولبولينا وليوسيفُيُس، أنا صادقٌ مع نفسي. ثم إنني بالكاد أبيت في منزلي" اعتدل في وقفته كأنه يهمّ بالرحيل ثم أردف قائلًا: دعني أرى والدك قبل أن أذهب من هنا يا صديقي.

- بل تبقى معنا للغداء.

- لا تفعل يا بروتُس، لا تصعِّب عليّ الأمر، أنت تعرف كم هو ثقيل على قلبي، ربّما نلتقي على الشاطئ ذات يوم كما كنا نفعل سابقًا، سيكون هذا جميلًا.

- فليكن يا صديقي، تعال معي إلى الداخل، أبي في غرفته، منذ مدّة لم يعد قادرًا على التنقّل كثيرًا على قدميه.

دخل بروتُس من الباب الجانبي الذي يفصل محل الحلاقة عن الصالة الصغيرة العتيقة ذات اللون الرمادي بقلب المنزل، ثم تبعه لابيلوس إلى غرفة داما العجوز.

كان جالسًا على السرير فتهلّل وجهه لمرأى لابيلوس الذي اقترب وعانقه بشدة: يا بنيّ العزيز، أطَلت علينا الغيبة هذه المرة.

أجابه لابيلوس برفق: إنه العمل يا عمّاه، هكذا هي الحياة تسرق وقتنا وأعمارنا.

- نعم تسرق أعمارنا، معك حق، كان يجب أن تزورنا منذ زمن. لدي الكثير لأحدِّثك به ولكن بعد أن تخبرني كلّ قصص لوقا ويوسيفُيُس، اجلس هنا بجانبي.

أفسح له مكانًا بجانبه ولم يعد لابيلوس قادرًا على التنصل من الأمر وقد ضعفت قدرته على المقاومة بعد أن رأي سيسيل تقف بالقرب من باب الحجرة إلى جانب بروتس كأنها تنتظر سماع القصص معهم.

حدَّثهم لابيلوس عن رحلتهم إلى كومو وكيف أنه تركهم هناك على أن يلتقيهم في نَابولي بعد شهر. حال المؤمنين في نابولي لم يكن جيدًا. كان عليهم أن يتخَفّوا طوال الوقت كما في بومبيي. ثم إنهما تركا المدينة برًا إلى بومبيي ومنها إلى نيوسيريا على وعد اللقاء في ستابياي.

تحدّث لابيلوس كثيرًا جدًا، وكان يبدو عليهم البهجة لحديثه إلى أن قاطعه داما قائلًا: أريدك في أمر مُهمّ، اذهب يا بروتُس إلى عملك، وأنتِ أيضًا بإمكانك الذهاب سيسيل.

بدت الجدية على ملامحه وهو يعتدل في جلسته مثبتًا عينيه في وجه لابيلوس الذي انتابه الارتباك والقلق متسائلًا عن أهمية ذلك الشيء الذي يريد داما أن يخبره به.

- أنت ترى يا ولدي كيف هي حالي، أصبحتُ عجوزًا وتجاوزت الثمانين الآن، وبالكاد أستطيع أن ألبس ملابسي دون مساعدة سيسيل،

وأنا رجلٌ عاقل، أعرف تمامًا أنني اقتربت من الموت. وفي كلّ ليلةٍ تمرّ عليّ لا تغمض عيناي قبل أن أدخل في صراعٍ مع عقلي وقلبي حتى يغلبني النوم دون أن أجد حلًا لمشكلتي. أريد أن أطلب طلبًا أرجو منك عدم رفضه، لأنني لا أجد له حلًا سواك.

كان لابيلوس صامتًا وقد بلغ الفضول منه مبلغه: لا أرفض طلبك أبدًا يا عماه، إن استطعت.

- أنا أريد أن أزوّجك ابنتي سيسيل، لا تقل شيئًا، أعرف أنني لن أجد أفضل منك وأعرف أعذارك كلها، وأعرف ابنتي جيدًا والسخافات والعناد الذي يسكن عقلها، ولكنني أبٌ يا ولدي، أبٌ يعرف أنه يقترب من مَنيّته تاركًا ابنته وحدها تواجه هذا العالم، لن يجد بروتُس أي وقتٍ لها كما تظنّ هي، مهما كان يحبها، وكاميلا أيضًا ذهبت لبيت زوجها وأنا سأذهب عاجلًا أم آجلًا. أنت تحبها أعرف ذلك، وأعرف أنها حمقاء تغامر بحبك لأجل أوهام سكنت عقلها منذ طفولتها، ولكنه رجاءٌ منّي يا ولدي. تفهّم كلامي وحاجتي وفكّر جيدًا قبل أن تخبرني بقرارك.

أطرق لابيلوس رأسه بعد أن عجز عن إيجاد الرد المناسب، ثم قال: لكن سيسيليا يا عم هي من ترفض، أنت لا تستطيع إجبارها.

أجابه داما وقد تهلل وجهه: هذه مهمّتي أنا لا، شأن لك بذلك.

- لن أقبل أن تتزوجني مكرهة.

- صدقني لن تفعل.. وأنا أعدّك موافقًا بعد قولك هذا..

انتهى الكلام ولم يعد بوسع لابيلوس قول أي شيء وإن كان في قلبه إعصارٌ من الأسئلة والافتراضات والمشاعر المبهمة فاستأذن من داما

خارجًا بسرعة دون أن يرفع رأسه عن الأرض حتى ناداه بروتُس فأشار له مودّعًا من بعيد بلا كلمات.

في الداخل كان داما يبتسم مسترخيًا على فراشه وكأنه أزال عن كاهله عبئًا ثقيلًا. أرخى جفنيه فنام بهدوء قبل أن يصحو على صوت سيسيليا وهي توقظه لطعام الغداء.

قالت سيسيليا مبتسمة: كنت تنام مبتسمًا يا أبي، أتصدّق ذلك؟.

أجابها داما ولم تبارحه الابتسامة: أخبرتك أنه يحبك يا صغيرتي.

- لا تقل هذا يا أبي، لم تحدِّثه بهذا الأمر، أليس كذلك؟.

- بل فعلت، من سيفعل إن لم أفعل أنا.

احمرّ وجه سيسيليا وهي تتلعثم وقد بدأت بالبكاء قبل أن تقول: يا إلهي، لماذا فعلت ذلك يا أبي.

- توقّفي عن هذا يا سيسيل.

تنهد بصوت مرتفع قبل أن يكمل قائلًا:

- أي بنيَّة، لقد تركت لك الخيار دائمًا، لم أحاول أن أدفعك لشيء ترفضينه رغم أنني أعرف تمامًا أنك مخطئة، ثم الآن وبعد ما عرفت بتقبّلك لابيلوس كان علي أن أنقذك من تلك الوساوس التي تسكن قلبك، يا صغيرتي أنا أقترب من الموت.

نظرت سيسيليا لأبيها بعطف وهي تمسح دمعاتها وتقول: لا تقل هذا يا أبي.

- لن يغيّر قولي هذا من الحقيقة. الجميع سينشغل بعائلته يا صغيرتي، لا تظنّي أن أحدًا سيهتم لحطام قلبك. وهذا الشاب يحبك، ينتظرك منذ

أكثر من خمسة عشر عامًا وأنت ترفضين، لو كنت مكانه لتزوجت منذ زمن ولكنه لم يفعل. ألا يستحق بعض التقدير منك.

- الزواج لا يكون لأجل التقدير يا أبي.

- نعم، لكنه يكون يكون لأجل الحب ولأجل المصلحة، وكلاهما متوافران بينكما فلا تكذبي عليّ، أنا أعرفك جيدًا.

أطرقت سيسيل رأسها في حين ابتسم داما ابتسامة خفيّة وساد الصمت في الغرفة قبل أن يقطعه بروتُس بدخوله قائلاً: ها قد انتهيت، أين الغداء؟.

***

بومبيي - ٧٩ م

"انتبه أيها الأحمق.. كدت تحطم رأسي"

صرخ رئيس البنائين موبّخًا أحد العمال الذين يحملون الأحجار لإكمال الجدار في مبنى حرم أغسطس والذي كان قد تهدّم بسبب الزلزال الذي اجتاح بومبيي عام ٦٢ للميلاد. كان هذا المعبد ينتظر دوره في الترميم في محيط النادي بجانب حرم ايموكايا، لقد طال انتظاره حتى تجاوز الستة عشر عامًا.

بعض العمال ينحتون واجهةً رخامية تُصوّر مراسم التضحية بأحد الثيران على مذبح المعبد، وآخرون يكملون تمثال فِسباسيان المُزمَع إضافته للواجهة وإهداؤه للإمبراطور.

تَلفّت فونا حوله وهو يتابع أعمال البناء في توتّر قبل أن يقول لبروكولوس الذي كان يرافقه: لم أعد أثق بخطط بالِبيوس، سئمت من المحاولات الفاشلة التي يقوم بها للقضاء على فِسباسيان، وفي كلّ مرَّة

يكون علينا التذلّل والنفاق والتظاهر بالفرح لنجاة الإمبراطور ولا شيء يتغيّر. يزداد نفوذ فِسباسيان وتزداد محبة الشعب له ونزداد نحن خسارة، لا شيء يتغيَّر.

- توقف عن التشاؤم، هذه المرة ستكون مختلفة ولكنها تحتاج إلى الصبر والهدوء.

بدا الامتعاض على وجه فونا وهو يقول:

- كيف تستطيعون الظهور بهذا الهدوء، أكاد أفلس، منذ ثمانية أعوام وأعمالي في تراجعٍ مستمرّ. لا أستطيع الترشّح للانتخابات هذا العام بسبب نقص المال.

- هذا ما يزعجك إذًا.. منذ علمت أن بالِبيوس قد قرّر الترشح للانتخابات هذا العام وأنت لست على ما يرام.

احمرّ وجهه وهو يتفوه ببضع كلماتٍ غير مفهومة قبل أن يقول:

- أخطأتَ التقدير يا بروكولوس، أنا فقط تعبت من الخسارة ومللت من انتظار الحلول.

- لن يطول انتظارك فلتطمئن، هذه المرّة ستكون الأخيرة.

- آمل ذلك

غير بعيدٍ عن المنتدى، شرقًا على امتداد شارع دي لابوندانزا كان بالِبيوس يتابع العمّال الذين يجدّدون منزله استعدادًا لخوض معركة الانتخابات القادمة. كان قد أنهى مراسم زفاف ابنته جوليا قبل ثلاثة أشهر وتفرّغ تمامًا لمعركته في الانتخابات.

قال بالِبيوس يحدّث المسؤول عن العمل: ابحث لي عن رسّام جيد، أريد لهذه اللوحات أن تبدو بغاية الروعة، هنا سوف استقبل النبلاء.

انتبه للشاب الذي يسير في آخر الرواق فناداه: ماركوس.. هل اتفقت مع بروكولوس على حملتي الانتخابية؟.

أجابه ماركوس: أجل يا سيدي، دفعت له مقدّمًا ثمن الخبز الذي سيوزعه على المواطنين، وكذا فعلت مع اللوبانارا.

- جيد جيد، أحسنت. كيف هو البناء في حرم أوكتافيوس؟.

- يسير على قدمٍ وساق.. ليس بالجودة ذاتها التي اتبعناها في معبد أبولو، ولكنه يفي بالغرض. سننتهي منه في غضون أربعة أشهر على أقصى تقدير.

تردّد بالِبيوس قبل أن يقول: سنكون بخير، يجب أن نكون بخير.

***

اكتظّت ساحة المنتدى في وسط بومبيي بالرومان القاطنين فيها وغيرهم من الضيوف القادمين من المدن المحيطة لمشاهدة الاحتفال الضخم الذي يُقام على شرف الإمبراطور فِسباسيان لافتتاح معبد أوكتافيوس، وقد وقف فِسباسيان يُزيح الستار عن التمثال الذي يصوِّره في مدخل المعبد.

كان عمدة بومبيي قد أعدَّ برنامجًا ترفيهيًّا صاخبًا في المسرح الروماني، بالإضافة إلى مباريات رياضية قد تستغرق يومين أو ثلاثة احتفالًا بزيارة الإمبراطور الأولى لبومبيي.

التقى فِسباسيان بسادة بومبيي من النبلاء والتجّار على مائدة الغداء الضخمة التي أعدّها العمدة في داره. حاول بعض الجالسين التعبير عن استياءهم للزيادة في الضرائب التي تفرضها الحكومة على أعمالهم وتأثيرها على الركود التجاري الذي يسود المدينة، غير أن بالِبيوس ناور ببراعة ليُغيّر مجرى الحديث إلى الانتخابات البلدية القادمة التي

ينوي الترشح لها شارحًا خطته المستقبلية لتطوير المدينة في حال نجاحه في الانتخابات، لقد أعجب الإمبراطور بحديثه كثيرًا فطلب منه زيارته في روما لإكمال الحوار في المستقبل.

في الطريق إلى المدرّج الروماني كان الإمبراطور يُمنِي نفسه ببعض المتعة قبل أن يكمل طريقه إلى ميسانو لزيارة بلينيوس والاطمئنان على جاهزية الأسطول الروماني الرابض في الخليج.

وقف مصارعٌ روماني مفتول العضلات أسود البشرة في وسط حلبة المدرج الروماني حاملًا سيفه متحدِّيًا المصارعين والفرسان، قبل أن يبرز له مصارعٌ آخر من جانب الحلبة مستعدًّا للقتال حتى الموت.

توالت المباريات بين المصارعين لكن الإمبراطور بدا كما لو أنه أصيب بالملل أو هكذا ظنّ العمدة فأعلن نهاية المباريات ورغبة فِسباسيان بالرحيل.

لم يكن فِسباسيان على ما يرام، لقد شعر بالتوعُّك المفاجئ وقرّر الإسراع بالرحيل، تاركًا بقية فقرات الاحتفال لأعضاء مجلس الشيوخ الذين رافقوه من روما بعد أن ألغى زيارته إلى ميسانو، وقد بدت عليه علامات الإعياء والمرض.

بعد رحيله كان بالِبيوس يجلس في داره مع مجموعة من الأعيان مبتسمًا بزهو، لأن خطته كانت تسير على ما يُرام.

- لن يطول الأمر يا فابيوس، سنسمع قريبًا نعي الإمبراطور وعلينا أن نُعدُّ العدّة لنكسب الإمبراطور الجديد في صفنا. لن يكون صعبًا علينا بما نعلمه من حكايات تيتوس مع أميرة اليهود. سنجد ألف طريقةٍ وطريقة للتودّد إليه.

- أواثق أنت إلى هذا الحد من نهاية فِسباسيان؟ ربّما هي وعكة عابرة.
- لن يتركه السُّمُّ حتى يقضى عليه، صدّقني.
- دعنا لا نستعجل الأمر.لا بأس، سوف ننتظر وتَرَون بأنفسكم.

في الجانب الآخر من خليج نَابولي حيث قصر بلينيوس، كان هذا الأخير يستعد للذهاب إلى روما بعد أن وصلته الأنباء عن مرض فِسباسيان خلال رحلته متسائلًا عن سبب هذه الوعكة المفاجئة.

و رغم أن الأمر لا يبدو غريبًا على رجلٍ في السبعين من عمره، لكن فِسباسيان لم يكن ذلك الرجل الضعيف الذي يسقط بسبب بعض القيء وجريان البطن. شعر بلينيوس بشيءٍ مريب لكنه لم يكن قادرًا على الحكم قبل لقاء فِسباسيان.

***

ريتي - 79 للميلاد

" أغلقي الستائر.. أغلقيها "

قال فِسباسيان ذلك بصوتٍ واهن بينما كانت الخادمة تزيل الستائر لتسمح للشمس بدخول الغرفة. لم يكن يحتمل ضوء الشمس بعد مضِيِّ شهرين على إصابته بالمرض. تقتله حاجته المُلحَّة للنوم الذي حُرم منه بسبب الآلام المريعة التي تمزّق أمعاءه.

إلى جانبه كان بلينيوس عاجزًا عن تشخيص هذا المرض الذي حوَّله إلى شبحٍ هزيلٍ يصارع الألم ويرفض الطعام الذي يضطره للمزيد من المعاناة.

قال فِسباسيان في وهن: يبدو أنني راحلٌ يا بلينيوس.

- كلنا سنرحل يا سيدي، كلنا لدينا ميعادٌ محددٌ للرحيل ولا أحد يعرف ميعاده، أنت أكثر من يعرف هذا.
- أذكر أنني تعجبت من مواعيد الموت حين ماتت دوميتلا ابنتي. ها أنا عشت بعدها خمسة عشر سنة، لكنّني في النهاية سأرحل كما فعل الجميع، فلافيا رحلت، كاينيس رحلت، كلنا سنرحل.

صمت بلينيوس، فأكمل فِسباسيان: كان الموت قريبًا جدًا منّي في السنوات السابقة، لا أدري لماذا أرادوا قتلي، كلّ ما فعلته كان لأجل روما، هل تصدّقني يا صديقي؟.

كنتُ تمنيتُ الموت ألف مرة عندما فقدت كل أموالي في شمال أفريقيا، الفقر أمرٌ مريع، غير أنني نجوت منها على عكس توقّعي.

ضحك قليلًا ضحكة خافتة وهو يقول:

كانوا ينادونني صاحب البغال يا بلينيوس، كنت تاجرًا للبغال ولا يعيبني ذلك أبدًا، ها قد أصبح صاحب البغال إمبراطورًا لروما، أنا الأسطورة.. صاحب النبوءة.. حاكم العالم القادم من يهوذا، هل كنت تصدّق النبوءة يا بلينيوس؟ أنا صدّقتها. وها أنا ضعيفٌ راقدٌ أعدُّ اللّحظات التي تفصلني عن الرحيل، أتظنني ألتقي كاينيس؟ أتراها ما زالت جميلة كما عهدتها؟

تنهد بوهن قبل أن يكمل قائلًا:

لقد تعبت يا صديقي بعد رحيلها، لا يهمني أن تكون هذه الأيام هي الأخيرة لي في الحياة.. تيتوس.. أين تيتوس.. أين الإمبراطور القادم؟ أدخل أبنائي أيها الحاجب، دعهم يدخلون.

أريد أن أقف، الإمبراطور يجب أن يموت واقفًا، هكذا يموت الرجال، هكذا يموت صاحب النبوءة.. أعطني يدك يا دومتيان.. كن قويًّا يا بنيّ.

أسنده أبناءه ليقف محدِّقًا في الفراغ وقد بدت عليه علامات الهذيان:
"وا أسفاه يا فِسباسيان.. يبدو أنك ذاهبٌ إلى الله.. لقد انتهت رحلتك بالفعل"

***

-5-

الفلك المشحون

هركيولانيُم - 79 للميلاد

كان الطوفان حتميًّا على ما يبدو، هكذا خُيِّل للوقا وهو يصارع الأمواج التي أحاطت به من كل جانب، قبل أن تمتدَّ يدٌ قويةٌ لتسحبه إلى سطح السفينة.. كانت هذه يد بولس.

سأله معاتبًا: كيف تركتني يا صديقي أصارع الطغاة في هذه البلاد وحدي؟.

- لكلٍّ منا خلاصه أيها الطبيب الحبيب، ولكلٍّ منا موعدٌ لن يُخلفه.

تساءل لوقا: إلى أين تأخذنا هذه السفينة.

ابتسم بولس قائلًا: إلى خلاصكم يا صديقي، لقد جاء أمر الله وحان وقت الجزاء.

- والناس؟.

- من كان مؤمنًا سيصدقك، من كان مؤمنًا سينجو.

- إلى أين؟.. أين نذهب؟.. متى العقاب؟.

- نحن لا نسأل متى، نحن نستعدُّ، نعمل، نقاوم، والله وحده يقرّر متى يأتي أمره. لا وقت للتعب يا صديقي، لا تبقَ في هذه الأرض، لقد حلَّت عليها اللعنة.

اختفى بولس عن السفينة ووجد لوقا نفسه على سطحها مع الكثير من البشر، تهتزُّ وتتمايل بهم بين أمواج البحر العاتية في عاصفة هوجاء، ومن بعيد بدا له عمودٌ كثيفٌ من الدخان يلاحقهم ويغطي السماء حتى لم يعد يرى شيئًا.

فتح عينيه بعد أن ساد الظلام فوجد نفسه في منزل يوسيفُيُس.

تذكّر كيف أنهم عادوا إلى هنا منذ يومين على إثر انتشار خبر وفاة الإمبراطور مع تخوَّفهم عودة الظَلَمة للانقضاض على المؤمنين.

نهض من فراشه، ارتدى عباءته وخرج من المنزل وقد عزم على شيءٍ ما. ناداه يوسيفُيُس من بعيد مستفسرًا عن سبب سيره إلى هركيولانيُم في مثل هذا الوقت، فأشار إليه أنه ذاهب إلى منزل داما حيث يجد لابيلوس هناك.

كان لابيلوس قد تزوّج سيسيليا منذ شهرين موافقًا على اشتراطها البقاء في منزل والدها كي تستطيع العناية به في مرضه. وهناك، جلس لابيلوس وداما مع يوسيفُيُس الذي لحق بلوقا يستمعون إليه وهو يخبرهم عن منامه.

داما: هل سنرحل للكهف ثانية؟.

لوقا: لن ينفع هذه المرّة، لن يحمينا من غضب الله، سنرحل إلى مكان بعيد.

داما: أنت تُصعِّب الأمور، نحن غير قادرين على الرحيل أبعد من كومو.

لوقا: سنرحل لليونان، كلّنا، كلّ المؤمنين.

قال لابيلوس بتوتّر: هذا مستحيل.. اليونان بعيدة.. مركبي لا يصلح لمُهمَّةٍ كهذه.

لوقا: سنصنع سفينةً كبيرة.

يوسيفْيُس: لكنك قلت أننا لا نملك الوقت.

لوقا: نحن نستعد، نعمل ونقاوم، ثم يأتي أمر الله في موعده.

لابيلوس: أعرف سفينةً قديمة تحتاج للإصلاح، ربّما كان من الأفضل لو نستخدمها لتوفّر علينا وقتًا.

لوقا: لا بأس بذلك، فلنجتهد ما استطعنا لإصلاحها، لابد من انذار الناس، من كان مؤمنًا سيصدق ومن كان كافرًا فليستعدّ لغضب الله.

***

بومبيي - 24 آب 79 للميلاد

كانت الهزّات الصغيرة التي تظهر في حركة جدران مدينة بومبيي مألوفةً منذ عشر سنوات أو أكثر، حتى إنها لم تعد تلفت انتباه أحد.

بدت مختلفةً وعنيفة في ظهيرة هذا اليوم من أغسطس لكن السكّان استمروا في لامبالاتهم منشغلين في أعمالهم كالعادة.

ما زال تجديد المنزل يشغل وقت بالِبيوس ليباهي به منافسيه في الانتخابات المزمع عقدها في الشهر القادم. من الجيد أن ابنته جوليا ستلد قريبًا ويصبح جدًا للمرة الأولى قبل دخوله في معركته الانتخابية. جاءت جوليا من الحديقة تبدو عليها علامات الإعياء "أبي.. أظن أنه المخاض.."

قال بالِبيوس بهدوء: لا يا صغيرتي، ما زال الوقت مبكرًا. أنتِ فقط لا تدركين العلامات لأنها أول مرة.

اهتزازٌ جديد كاد أن يوقع علبة الدّهان من يد الرسّام لكنه تشبث بها في اللحظة الأخيرة "كأن هذه الاهتزازات تزداد حدَّة مع الوقت" هكذا قال الرسام لنفسه ثم عاد للعمل.

خرجت جوليا من الصالة عائدةً إلى أمها تتساءل في نفسها هل تشعر باهتزازات أم أن الألم جعلها تتخيّل الأمر.

في الخارج تبدو بومبيي مزدحمةً كعادتها في أوقات الظهيرة. الشمس تتوسط السماء والجو حار في مثل هذا الوقت من السنة، لكنه بدا أكثر حرارة من كلّ عام. الأسواق مليئةٌ بالباعة والمشترين، غير مكترثين بالاهتزازات التي اعتادوا عليها منذ مدة، لم ينتبهوا إلى كونها أقوى من المعتاد.

بعض المصارعين يضحكون بأصواتهم العالية في حوض المياه الساخنة في الحمامات، فلافيو صاحب المغسلة ذاهبٌ إلى أحد دور البغاء ليعبث مع جاريته الجديدة تاركًا زوجته تراقب مجموعةً من العبيد يدلّكون الملابس بأقدامهم في حوض الغسيل.

يومٌ عاديٌّ جدًا من أيام بومبيي.

هناك خلف الأسوار الغربية يطلُّ عليهم ظل جبل فيزوفيس، ذلك التل القديم الذي يتقيأ النار كما وصفه هرقل أثناء رحلاته لإتمام مهامه المستحيلة قادمًا من سهل النيران في كومو.

فيزوفيس، العملاق الذي كان غافيًا منذ ألفي عام قرّر اليوم أن يصحو دون إنذار، أو ربّما أعطاهم الكثير من الإنذارات، لكن القلوب العمياء لا ترى إشارات الإله.

فوّهة الجحيم تتقيأ النيران من جديد، يرتفع عمودٌ من الدخان عشرات الأميال في السماء كنخلة سوداء عملاقة، تتآمر معها الرياح فتحمل السحبَ القاتمة شرقًا نحو بومبيي الغارقة في الملذّات فتُحيل نهارها إلى ليلٍ معتم، ثم تمطر عليهم الحجارة البركانية ليلقى مصرعه كلّ من استهان بغضبة البركان الساكن والتي أشعلها غضب الله.

جوليا ابنة بالِبيوس تتساءل بهلع: ماذا يحدث، ماذا يحدث يا أبي؟.

أجابها بالِبيوس في توتر: عودي إلى غرفتك يا جوليا ابقي هناك يا ابنتي، أين أمك؟.

جوليا: في غرفتها.. آه.. يبدو أنه المخاض.

بالِبيوس: ليس هذا هو الوقت المناسب يا جوليا، أين ذهب زوجك؟. اذهبوا جميعًا إلى الغرف الجنوبية وأغلقوا الأبواب بسرعة.

في المغسلة تعجز زوجة فلافيو عن استبقاء العبيد فيهربون، تجمع ما استطاعت من النقود وتهرب هي الأخرى شرقًا حيث بوّابة نيوسيريا.

الجميع يهربون إما إلى خارج المدينة أو إلى داخل منازلهم، يحاولون اتقّاء أمطار الخفّاف القاتلة وسحابات الدخان السامة، ومن بقي في الشوارع كان مصيره الموت المحتَّم. تحوَّلت بومبيي إلى مدينة أشباح في انتظار ما تسفر عنه غضبة فيزوفيس.

غير بعيدٍ عنهم كانت بلينيا مارسيلا تنادي شقيقها ليشاهد تلك النخلة السوداء التي ترتفع من فوهة فيزوفيس: يا إله الكون، رحماك يا خالقنا، ما هذا؟.

قرّر بلينيوس أن يرحل ليعرف سر ذلك العملاق الأسود، وصلته رسالةٌ من صديقةٍ له تسكن بالقرب من البركان تستنجد به من ذلك المجهول

الذي حاق بهم. أمر بإعداد الأسطول استعدادًا وقد قرر الإبحار لإنقاذ سكان المدن المنكوبة، غير عالمٍ أنها رحلته الأخيرة في هذا العالم.

***

-6-

فلمّا أحسّوا بأسنا

هركيولانيُم - 24 آب 79 للميلاد

تزاحم الناس في شوارع هركيولانيُم يحملون ما خفّ حمله وغلا ثمنه في طريقهم إلى الساحل بعد أن قرّروا الرحيل من المدينة وقد أخافتهم رؤية سحابات الدخان الهائلة التي تحملها الرياح نحو بومبيي الغارقة في الظلام.

كان المشهد مرعبًا إلى الحد الذي دفع الجميع للرحيل؛ ليس لأنهم يرون العذاب، بل لأن شائعات كثيرة كانت قد انتشرت في المدينة منذ أسبوع عن نبوءةٍ غريبة بحلول غضب الله على الظالمين.

بعضهم لم يكن مقتنعًا بالأمر فظلَّ ملازمًا بيته مراقبًا لعمود الدخان في الشمال حتى اقترب المساء فأصابهم الفزع وقرّروا الرحيل احتياطًا.

نافيدياس آنياس كان أحد هؤلاء المتأخِّرين، ظل يعبث بأمواله، يجمعها في أكياس ويحاور نفسه باحثًا عن القرار الصحيح الذي يجب أن يتّخذه، ثم إنه قرّر الرحيل مع زوجته وابنته وبعض النقود، سيعود لاحقًا لأجل ثروته حين ينتهي هذا الأمر ويشعر بالأمان.

كانت المراكب قد رحلت منذ مدّة وخان المراكب فارغٌ منها تمامًا، وكان على كلّ المتأخرين أن يبيتوا ليلتهم على الشاطئ منتظرين النجدة. بدأ الأمر يصبح هستيريًّا، النساء تصرخ وتلقي اللوم على الرجال في

تـأخّرهم، الصـغار أصـيبوا بـالهلع والرجـال ألجمهـم الصـمت والعجـز وجهل حقيقة ما يحدث.

قال قائل: سنكون بخير.. توقّفوا عن الصراخ..

قال آخر: فلتبِت النساء في حجرات المراكب وسنبقى نحن متيقِّظين هنا على الشاطئ، اهدأوا وسيكون كلّ شيء على ما يرام.

وقال آخر: لابد أن يمرّ أحد من هنا بسفينةٍ ما، ربّما تنتهي المشكلة بعد شروق الشمس، فلنصبر قليلًا.

ثم إنهم هدأوا جميعًا ما بين نائمٍ أسكره الخوف وقائمٍ يفكر فيما هو آت.

في ذات الوقت كانت سفينة المؤمنين القديمة تسير في عرض البحر تتقاذفها الأمواج وتسحبها الرياح جنوبًا نحو ستابياي. كان على متنها بضع مئات من الرجال والنساء والأطفال صدَّقوا لوقا وركبوا سفينة النجاة منذ بدأت الزلازل تجتاح فيزوفيس وما جاوره من مدن.

داما: كيف سنعرف الطريق إلى اليونان، نحن تحت رحمة الرياح يا سيدي الطبيب.

لوقا: بل نحن في معية الله وتحت رحمته، سلّموا قلوبكم له.

بروتُس: هذه السفينة قديمة ربّما لن توصلنا، ولن نستطيع التحكّم بها مع هذه الأمواج العاتية.

لوقا: أي مكان غير هنا هو آمن، لا تخافوا، إن الله معنا، لو رست بنا السفينة على اليابسة سنكمل الطريق شرقًا على أقدامنا.

جمعت ليلي أبناءها بين ذراعيها وتكدّست النساء والأطفال في جنب السفينة بينما يحاول الرجال والشباب منهم التحكّم في سيرها، ثم بدأت الرياح تعبث بالسفينة المتهالكة وتشدُّها نحو سواحل ستابياي.

لم تكن سفينتهم وحدها هي ما جرّتها الرياح إلى ستابياي، فالأسطول الروماني أيضًا ، ذلك الذي أمر بلينيوس بإعداده لإنقاذ الأهالي سحبته الأمواج إلى الشاطئ حيث أقام بلينيوس في منزل صديقه بومبنيانوس في انتظار أن يتغير اتجاه الرياح كي يوجِّه الأسطول نحو هركيولانيُم.

جلس يستريح من الرحلة في غرفته التي أعدّها له الخدم في منزل بومبنيانوس، سمع صوت ضوضاء قادمة من خارج المنزل حيث كان جنوده قد ساعدوا المسافرين في سفينة لوقا على الرسو والنزول منها إلى الشاطئ.

استبدّ به الفضول يتمنّى لو يعرف أي خبر عن ذلك الحدث المجهول من أولئك القادمين من هركيولانيُم على متن السفينة، هرع إلى الخارج مسرعًا، نقل بصره بين وجوه الرجال والنساء قبل أن يقول: ما خطبكم يا رجال، ماذا يحدث هناك في الجبل، هل من أحدٍ يحدّثني؟.

تقدّم لوقا على عصاه قائلًا: إنه غضب الله على الظالمين، وقد حان وقت العقاب.

- الله..

- الله.. الخالق.

قاطعه بومبنيانوس: ما هذا الذي تقوله يا رجل.

بلينيوس: دعه يكمل، أنا أريد أن أسمع.

قال لوقا: قد جئنا إلى هنا منذ سنوات ننشر دين الله الواحد ودعوة المسيح بن مريم، ندعوهم إلى الحقّ الذي عرفناه للنجاة في الدنيا والآخرة، لكنهم أبوا إلا أن يمنعوا دين الله من الوصول إلى البشر، فكان حقًا على الله عقاب المجرمين.

بومبنيانوس: توقّف عن هذا الكلام، ما سمعنا مثله من قبل، وما أنتم إلا بشرٌ مثلنا.

بلينيوس: وما أدراك أنت حقيقة ما يحملونه من حق؟ لقد سمعت كلامًا كالذي يقول في بلاد الشرق ولا أحسبه إلا صادقًا، وما هذا الدّخان الذي يغطي سماءنا إلا غضبة الله علينا، فدعك مما تقول وأنصت له لعل الله يرحمنا، ألا ترى أن الأمر عصيب.

لوقا: أما نحن فراحلون من هنا، لعلّ الله ينجينا، وإن العذاب قادم فانجوا بأنفسكم، ابتعدوا قدر استطاعتكم.

استدار لوقا راحلًا وتبعه الجميع يسيرون حثيثًا نحو الشرق، يحاولون الابتعاد ما أمكنهم عن هذه البلاد التي سرقت من أعمارهم سنواتٍ طويلة وعصيبة، فقدوا فيها الأصدقاء والأصحاب تحت سياط المجرمين وفوق صلبانهم؛ لقد حان وقت دفع الثمن.

***

25 آب 79 للميلاد

مضى منتصف الليل منذ مدة لابأس بها.

كانت ليلةً بلا قمر، الظلام يحيط بهم من كلّ جانب، بعض النيران التي أشعلوها على شاطئ هركيولانيُم تعطيهم الأمل أن الفجر سيشرق بعد ساعات، فينجون من العذاب.

الهواء مشبع بالحرارة رغم وجودهم على الشاطئ، نام الصغار والنساء في داخل المغارات المنحوتة في خان المراكب، بينما قلوب الرجال تكاد تتوقّف من الرهبة والعجز. صوتٌ غريبٌ تناهى إلى أذانهم من بعيد تبعه صوت أمواجٍ هادرة، كأنها أمواج البحر.. ربّما

في بومبيي كان بالبيوس سجين الغرف الجنوبية مع زوجته وابنته وصهره وبعض الخدم الذين رفضوا الهروب. أغلقوا الباب جيدًا ووضعوا بعض الأثاث ليسدوّه، غير أن هذا لم يمنع بعض الدخان من التسرب اليهم. جوليا تمدّدت على الفراش ما بين آلام المخاض وآلام الاختناق والرعب الذي اجتاحها حين رأت زوجها يتناول زجاجة سمٍ من حزامه ويتجرّع قطراتها بسرعة بعد أن رفضت أن تموت معه بهذه الطريقة.

في الغرفة الأخرى كان اليأس من النجاة قد استبدّ بهما، بالِبيوس وزوجته، فجلسا ينتظران انتهاء الهواء ثم الموت اختناقًا مع من بقي معهم من البشر.

زوجة فلافيو، صاحب المغسلة، لم تستطع الوصول إلى بوّابة نيوسيريا فالتحقت بالمصارعين في مسكنهم هربًا من أمطار الخفّاف. كان أحد المصارعين قد مات جراء إصابةٍ في رأسه بعد أن سقط عليه أحد الأحجار القادمة من البركان. فلافيو ذاته جلس في ركن أحد الشوارع ينددب حظّه بعد أن اكتشف أن زوجته قد سرقت الأموال من المغسلة وهربت.

أتاهم ذلك الصوت المخيف القادم من بعيد مصحوبًا بصوت هدير الأمواج، استغربوا الصوت لعلمهم أن البحر بعيدٌ عن بومبيي.

في ستابياي كان بلينيوس قد دخل إلى غرفته منذ ساعات ولم يكن الرجال قادرين على اتخاذ أيّ قرارٍ بدونه. الأخبار لا تبشّر بخير وكان عليهم الرحيل من هنا بأسرع وقت. صوت البركان القادم من بعيد

جعلهم يسرعون إلى غرفته لإخراجه والهروب من المكان، حاولوا إيقاظه فلم يستجب لهم، كان قد غادر الحياة فعلًا دون أن يعرفوا.

بليني الأصغر في ذلك الوقت كان يجهل ما يجب أن يفعله بعد أن انقطعت أخبار خاله والأسطول، كانوا مضطرّين للرحيل السريع عن ميسانو.

في الساعة السادسة صباحًا كانت نخلة الدخان العملاقة الممتدة في السماء قد بدأت بالانهيار تحت ثقل ما يقذفه البركان من جوفه.

كانت تنهار على شكل موجات هادرة في كلّ الاتجاهات مدمرةً في طريقها كلّ المدن والكائنات الحية في محيط البركان.

على الشاطئ في هركيولانيم لم يكن هناك وقت للهروب؛ الحرارة قاتلة والموجات سريعة.. لحومهم تتطاير ما أن يلامسها الهواء المصاحب للموجات مثل بقايا النباتات الجافة في موسم الحصيد، قبل أن يغطّيهم الرماد بالكامل لتصبح أجسامهم كالجمرات المشتعلة التي تخمد تحت الرماد.

***

الطريق كانت متعبة على جميع الراحلين شرقًا هربًا من العذاب. لكنّهم برغم ذلك كانوا مطمئنّين إلى حدٍ كبير أن الله معهم.

مضى عليهم ثلاثة أيام وهم يسيرون ليقتربوا من الساحل المقابل لليونان، لا أخبار عن الذين تركوهم خلفهم في تلك المدن، ولم يكن يهمّهم أن يعرفوا عنهم شيئًا. ها هي بدأت نسائم الساحل تهبّ عليهم من بعيد وتدفعهم لتحمّل المسير الطويل طمعًا في النجاة.

بعد شهرٍ من هذا، كانت حياتهم تبدأ من جديد في قريةٍ صغيرة على الساحل الغربي لليونان، حيث الأهالي لطفاء جدًا وبسطاء جدًا.. وكان عليهم أن يتناسوا كلّ تلك القصة التي لم يعرفوا أبداً ما حل بأصحابها بعدهم.

***

كومو- 94 للميلاد

لقد أصرّت أن تأتي إلى هنا مرةً أخرى بعد مرور خمسة عشر عامًا على رحيلهم من هركيولانيُم. لم يوافقها أحد على ذلك، ولكنها كانت بحاجة لأن ترى الكهف مرةً أخرى. تركت طفليها في بيت بروتُس مع ليلي وأبنائها الخمسة وأبحرت بصحبة لابيلوس وجوليا وابنها الشاب اوكتافيوس.

عندما مرّوا على مدينة هركيولانيُم، لم يكن لها أيّ أثر، لا شيء أبدًا، لم تستطع التعرَّف على أيٍّ من ملامح المدينة التي اختفت تحت التراب، وكأن الحضارة العظيمة التي وصلت السماء لم تولد أبدًا. تلفّتت تبحث عن الميناء القديم الذي رحلوا منه ذات مرة خائفين يبحثون عن الأمان، لكنّ الحكاية كانت قد انتهت إلى صندوقٍ مغلق لن يفتحه أحدٌ لمدة سبعة عشر قرنًا.

كانت النباتات هناك تنمو من جديد فوق الأطلال، تستمد عصارة الحياة مما وهبه البركان للتربة من كنوز، تلك الكنوز ذاتها التي عصفت بالمدينة وهدمتها فوق رؤوس السابقين. وغدًا سوف ينسى الجميع حكايتها ليكتبوا حكايةً جديدة لحياةٍ جديدة ومدينةٍ جديدة.

جلست سيسليا على الشاطئ تتابع الموجات المتلاحقة التي تركتها هنا منذ زمن. الشاطئ البكر الذي لم يتلوّث بأيدي البشر بعد، تمامًا كما تركوه منذ خمسٍ وعشرين سنة.

لقد أصبحت سيسيليا الآن في الخمسين من عمرها، تتذكَّر ما حدث كأنّه أسطورةٌ قديمة من أساطير اليونان التي سكنوا سواحلها عندما ألقت بهم الحياة هناك، ليكملوا ما تيقَّى من أعمارهم بعيدًا عن أرض الرومان.

لقد مات داما العجوز بعد عامين من استقرارهم في فيليبي، دفنته بالقرب من منزلها لتستطيع إلقاء التحية عليه كل صباح أثناء ذهابها لحقل بروتس حيث أصبح يزرع الزيتون مع العائلة كلها. يوسيفيُس رحل مع لوقا بصحبة زوجته يجوبان الأرض لنشر الحق، لم يعد منذ ذلك الحين رغم استشهاد لوقا معلقاً على شجرة من أشجار الزيتون منذ مدّة، لقد كانوا جميعًا يبحثون عن الخلاص.

أتاها صوت جوليا يقطع عليها رتابة الصمت الممزوج بصوت الأمواج

- هل تذكرين قصّتي التي أخبرتك إياها على هذا الشاطئ منذ زمن بعيد؟ لقد نجونا يا سيسيليا، أنا وأنت وأوكتافيوس.. جميعنا نجونا، وذهبوا هم إلى حيث لا رجعة أبدًا، يا ترى.. ماذا يقولون لله الآن؟.
- ما زال في قلبك شرخ يا صديقتي، لا تستطيعين النسيان، ربّما من الخير لنا جميعًا أن ننساهم، نمسح ذكراهم تمامًا كما اختفت آثارهم عن الوجود. بعد سنوات، لن يذكرهم أحد، لن يعرفهم أحد، لقد اختفوا بلا أي أثر.

***

هركيولانيُم - 1758 للميلاد

"العمل في حفر هذا البئر مجهدٌ بالفعل وكأنّ المياه بعيدةٌ جدًا، لقد وصلنا إلى عمق 20 مترًا ولم نصل إلى الماء بعد.. ما هذا الشيء؟." تعجب المزارع القروي أمبروجيو نوتشارلينو من صلابة الشيء الذي ارتطم به فأسه تحت الأرض. بدأ يزيح عنه التراب شيئًا فشيئًا ليكتشف عمودًا رخاميًّا أثرياً. استغرب الأمر لكنه تابع العمل، أتى برفاق آخرين، وصل الخبر لملك نابولي، ليكتشف الجميع أن أمبريجيو المزارع كان يقف وسط مسرحٍ روماني بأعمدته الرخامية وتماثيله البرونزية ومدرَّجه النصف دائري. وعلى الجدار القديم المدفون وجدوا الاسم منقوشًا، اسم المدينة التي لا يعرفها أحد، هركيولانيُم.

كان هذا هو بداية خروج المدن المدفونة من تحت التراب، لتفتح الطريق أمام علومٍ جديدة في البحث عن الآثار، ومعرفةٍ جديدة لتاريخ لم تدوِّنه المؤلفات التاريخية عن الإمبراطورية الرومانية.

بعد سنوات من الآن، ستُوضع الموجودات الأثرِّية التي عُثِر عليها في بومبيي في قاعةٍ مُغلقة بمتحف نابولي لا يدخلها إلا البالغون المتخصصون.

لقد كانت الآثار التي خرج بها الباحثون من أنقاض المدينة تشير إلى أكثر المدن إباحيةً وشذوذًا في التاريخ، كان من الصعب إظهار التماثيل والرسوم والفسيفساء للجماهير علانيةً في ذلك الوقت من القرن السابع عشر للميلاد.

ما زالت البحوث والدراسات تُقام على مدينتي بومبيي وهركيولانيُم إلى هذه اللحظة، ثلثي مدينة هركيولانيُم لاتزال مختفيةً تحت التراب للحفاظ عليها من العوامل الجوية، وجواب السؤال الأهم ما زال مجهولًا: كيف اختفى ذكر المدينتين تمامًا من التاريخ كلّه حتى ظهرتا بالصدفة على يد مزارعٍ قروي؟.

***

رَسَائِلُ اللَّه

النَّصِيحَة السَّادِسَة:

صَدِّق

***

واعلـم أن معرفــة الله نعمــةٌ لا تغلبهــا نعمــة، واليقـين بقربــه سبحانه سكينةٌ لا تملكها ما لم يُنعِم عليكَ اللهُ بها، والعجز عن إدراك حكمته حيرةٌ لا تدري أتسْلَمُ بها من الفتنـة فيقودك الشَّك إلـى إدراك عظمـة الخـالق فـي خلقـه أو تسـقط بـين الحفـر التـي حفرتها حيرتُك في الطريق.

واعلم أن الحرية هي أعظم مِنّةٍ يَمُنَّها الله عليك، أن تغدو حرًا لا قيد على قلبك، وعقلك، وروحك، ولقمة عيشك. أنّ تفهم أن كلّ الدروب تمتدُّ أمامك، وأنّ لا رقيبَ عليكَ إلّا الله، ولا سندَ يقوّي ظهرَك إلاّه، وأنّ ما أصابَكَ لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، أن تقول الحقَّ دون أن يرتجف قلبك خوفًا من أحد، وأن تترك الباطل ولو آمن الجميع أنه حق..

رُفعت الأقلام وجفّت الصحف..

***

-1-

هرطقة

غزة -7 تموز 2019 م

هل تذكُر صَبَّارتي التي أخبرتك عنها منذ مدّة؟ تلك التي أخرجت نبتًا جديدًا من الجذر مباشرة بعد ضعف سيقانها، تلك التي شبَّهتُ حالها بحال الأمّة التي تتهاوى كلّما مرّ عليها الزمانُ فأصبح مُحتَّمًا عليها العودة للجذور كي تنبت من جديد، هل تذكرها؟ لقد ماتت.

لم أعد أتوقّف كثيراً عند أخبار الموت، أصبح الأمر عاديًّا منذ سنوات، يمرُّ الحزن سريعاً ويبقى الأثر الذي أحدثه.

عجيبٌ أمر هذا النبات، كان يحيا على أجزائه، أيها يبقى حيّاً سيُغذي الجميع رغم ضعفه ووهنه وجوعه. كنت لفرط حماستي باكتشافه أظنني أساعد النبت الجديد على الحياة بشكلٍ أفضل حين أعزله عن فروعه الدقيقة الهشّة التي تستنفد كل طاقته في النمو، ما علمتُ أنّها كانت غذاءه في ظلّ إهمالي لإمداده بالمياه. لقد استعجلت قرار إزالة الفروع حقاً، ولكنني تعلّمت..

تعلّمت ألا أتدخل في قوانين الطبيعة إلا بمقدار الرعاية والحماية.. تعلّمت أنّ الطبيعة كلّها في حياتها ومماتها مجموعة من الحِكَم تنتظر من يراقبها لكي يفهم، وتعلمت أن الأمّة ما زالت تشبهها، فرغم أن الجذر الأساسي صالحٌ لإنبات أمَّةٍ جديدةٍ بنقاء نبتة الصبّار البيضاء إلا أن

الفروع الضعيفة المُنهكة التي امتدت لأربعة عشر قرنًا هي وحدها من تستطيع تغذيته وإحيائه على الرغم من ضعفها وهوانها، وإزالتنا لهذه الفروع هي إجهاض مبكّر لنبات الأمّة، وتعلّمتُ أنّنا كُلّنا مسؤولون عن هذا النبت، وكُلّنا يحمل في عنقه أمانة إمداده بالحياة.. لأن حياته هي حياتنا ذاتها.. نحن الفروع الدقيقة الهشة التي تبحث عن جذرها القوي لتعيد بناء نفسها.

***

دخل حميد الغرفة بينما كنت منشغلةً بتمزيق أوراقي كلها في عصبية، استغربَ ما أفعله وقال: ماما ماذا تفعلين.. ماذا حدث؟.

أجبته دون أن ألتفت إليه: لم أعد أريد هذه النظرية، لن أواصل البحث العددي، لقد أصبت بالهوس.

قال مستغربًا: لماذا.. ماذا حدث، لقد كنتِ بخير.

- لا شيء، انا أدخل شيئًا فشيئًا في عالم الغيب وهذا أمرٌ مخيف، مخيفٌ جدًا.

كنتُ قد دخلت في دوّامةٍ جديدة من الحسابات، وهذه المرّة كان الأمر مختلفًا ومُتعِبًا وصعبَ الإثبات، لقد كانت تتحدّث عن المستقبل، ولا يعلم المستقبل إلا الله، وهذا قد جعلني أقترب جدًا من الهوس.

بدأ الأمر من تساءلٍ لأحد أصدقائي الذين أخبرتهم عن بحوثي إذ قال لي: إذا كانت نهاية الآية الأولى التي ذكَرت الصيحة تؤرخ تاريخ انفجار البركان عام 79م، فلماذا لا تكون الآية التي تتحدث عن الصيحة الثانية تأريخًا لموعد الصيحة الثانية.

كلامه بدا لي منطقيًّا، لكن عدد الكلمات من بداية السورة وصولًا إلى نهاية الآية 49 لا يمكن أن يعطيني تاريخًا مستقبليًّا، فقرّرت الانتقال إلى عدد الأحرف والذي وجدته " 1801"، وهذا الرقم يصلح كتاريخٍ هجري، فهل يمكن أن تعطيني هذه الآية تاريخًا هجريًّا للصيحة القادمة؟.

في ذلك الوقت كنت شديدة الحماس للأمر، خصوصًا أن علماء الجيولوجيا والبراكين كانوا يتحدّثون عن كَوْن نَابولي تقع فوق خزانٍ مخيفٍ من الحمم، ويحذرون من ثورة بركان فيزوفيس في أي وقت، ناهيك عن بركانٍ آخر كان قد استيقظ في عام 2015 يقع غرب نَابولي ويدعى كامبي فيلجريه. كان العلماء يطالبون الحكومة الايطالية بتوفير خطة طوارئ لإيواء ثلاثة ملايين لاجئ قد يتسبَّب انفجار البركان في فقدانهم لمنازلهم.

المهم أنني جلست مع أوراقي لأحسب الجمَّل لجميع الأشهر الهجرية، وصدف أنّها كلّها لا تصلح للمعادلة فيما عدا جمادى الأولى. وهذا يعني أن لديّ شهرٌ واحدٌ فقط أكمل به حساباتي.. جمادى الأولى.

لدي أيضًا ثلاث ألفاظ التأريخ، هجري، وهجرية، وللهجرة.

إذًا أصبح لدي الآن ثلاث معادلات:

جمادى الأولى + هجري + السنة + اليوم= 1801

جمادى الأولى + هجرية + السنة +اليوم = 1801

جمادى الأولى + للهجرة + السنة + اليوم = 1801

وبالتعويض في المعادلات السابقة بقيمة السنة كان يعطيني تاريخ اليوم الذي يجعل المعادلة صحيحة. وبهذه الطريقة أعددت جدولًا للتواريخ المحتملة للانفجار المفترض.

ولأن الأمر كان يبدو غريباً مثيراً للجدل ويشبه الهرطقة إلى حد بعيد فقد تركت الجدول على الحاسوب ونسيت أمره فترة من الزمن.

ثم خطر لي ذات يوم أن الحدث يتعلق بالصيحة وقد ورد ذكر الصيحة في القرآن عدّة المرات وبعدّة صيغ، فجاءت بلفظ صيحة واحدة خمس مرات وجاءت بلفظ الصيحة سبع مرات وجاءت بلفظ صيحة مرة واحدة. فكرت لو أنني جمعت حساب الجمّل لكل هذه الكلمات لربما دلتني على شيء، وكانت كالتالي:

صيحة + "صيحة واحدة"× 5 + الصيحة × 7

$$1806 = 7\times 144 + 5 \times 137 + 113$$

ثم تذكّرت أن الرسم العثماني في المصحف لكلمة صيحة واحدة يُكتب هكذا " صيحة وحدة" وهذا يعني أن حسابي السابق خاطئ وستصبح المعادلة كالتالي:

صيحة + "صيحة وحدة"× 5 + الصيحة × 7

$$1801 = 7\times 144 + 5 \times 136 + 113$$

صدفة غريبة، أليس كذلك؟ تعجّبت فعلًا من النتيجة ولكن الأمر بقي مجرّد محاولات لا ترقى إلى مستوى الفرضية. ثم خطر ببالي أمرٌ آخر هو البحث في جُمّل الآية التي تقول "ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين" والتي ورد ذكرها في القرآن ست مرات إحداها في سورة يس وأخرى في الأنبياء وكلتاهما وردت فيها لفظ خامدون.

كانت الآية عبارة عن استنكار واستكبار من الكافرين، لذلك خطر ببالي أن حساب الجمَّل الخاص بها هو إجابة السؤال: متى يكون هذا الوعد؟.
حسبتُ جمل الآية فأعطتني 2290، وهذا الرقم صالحٌ لأن يعطيني تاريخًا ميلاديًّا هذه المرة لأنه أكبر من السنة الحالية 2019 بكثير.
أعددت جدولًا آخر يعطيني مجموعة من التواريخ الميلادية التي تحقق المعادلات والتي تجمع الشهر الميلادي والسنة واليوم مع ألفاظ التأريخ، ميلادي وللميلاد وميلادية.
أريد فقط أن أذكر لك صدفةً غريبةً أخرى، لقد كان من بين التواريخ التي أخرَجَتْها المعادلات التاريخ التالي:
10 كانون أول 2021 ميلادي والذي وافق 6 جمادى الأولى ١٤٤٣ هجري. لقد كان أحد النتائج التي ظهرت معي في المعادلات الهجرية ودونتها في جدولي كانت 4 جمادى الأولى 1443 هجرية، وتبقى نسبة الخطأ في برامج تحويل التاريخ قائمة فتُغطي فارق اليومين بين المعادلتين.
عند هذا الحد من الحسابات أصبتُ بصداع وأحسست بانحراف تفكيري عن الطريق الصحيح، وأن هذه المحاولات تقودني للجنون بالفعل فقرّرت تمزيق الورق والتوقف عن هذه الحسابات بالكامل.
لكن حميد فاجأني بسؤال آخر: ألا يعني هذا أن نبوءة زوال إسرائيل هي دخول في علم الغيب أيضًا.
- نعم ولكن..
- كِلَاهما متشابهان، فهل هذا يعني أنك لم تعودي مقتنعة بزوال إسرائيل 2022م؟.

لم أعرف بم أجيب لأنني كنت ضائعة مرتبكة، لكن شيئًا ما ألهمني أن أقول: كلاهما محاولات بشرية لاستقراء القرآن، قد تخطئ وقد تصيب. فإن أخطأَت فهذا لا ينفي الحقيقة القرآنية التي تقول إن إسرائيل ستزول يومًا ما كما تقول سورة الإسراء، كما لا ينفي حقيقة أن هناك ثورة بركانية ستعقب مجاعةً كبيرة تعمّ العالم كما تقول سورة يس. كلّ ما سوف يعنيه الأمر آنذاك هو فشل نظرية حساب الجمّل في التنبؤ بالتواريخ من النص القرآني.

لكن دعنا نرى الأمر من منظور آخر، تخيَّل معي لو أنها صدقت، إن هذا يعني أننا استطعنا الوصول إلى منهجية جديدة في تفسير القرآن وربّما نتمكن بعدها من وضع القواعد والأسس التي تجعلها علمًا حقيقيًّا في المستقبل.

- إذًا لماذا مزّقتِ الأوراق؟ كان بالإمكان الانتظار حتى نرى هل تصدق الفرضية أم لا؟ إن عام 2021 للميلاد ليس ببعيد.

***

لن يكون هناك فنون وحرف في الفصل القادم، عرفت أن الكلية قد قررت إغلاقه في نهاية هذا الفصل لأن عدد الطالبات ليس كما ينبغي، الحقيقة أن أعداد الطلاب في كل التخصصات وكل الجامعات ليست كما ينبغي. التعليم أصبح ترفًا في حياة الناس في الوقت الذي بالكاد يجدون فيه قوت يومهم.

لم أشغل بالي بشيء، لقد استمتعت مع الطالبات في هذا العام الأخير دون أن أفكّر في المستقبل. كانوا مجموعة لطيفة مجتهدة، وحاولت جهدي أن نجعل هذا العام ختامًا رائعًا لتخصص الفنون والحرف، يليق

بالتجربة الجميلة التي حاولنا انجاحها بكل طاقتنا، تجربة تركت الكثير من الآثار في قلبي.

رمضان يدخل علينا من جديد. وهذه المرة يأتي بشبهة حربٍ جديدة. كنت قد وصلتُ إلى حالةٍ عجيبة من اللامبالاة بحيث لم أعد أصدِّق أشباه الحروب. أصبحتُ أسمِّيها تمثيلية لتحريك الوضع السياسي، جولة تصعيد، تنتهي غالبًا بفتح المعابر جزئيًّا وزيادة مساحة الصيد لعدّة أيام وتدمير بعض المباني التي تزيد عدد العائلات المشردة وتقتل في داخلنا الانتماء لقضيتنا أكثر فأكثر. أنا من الأساس لم أعد أقتنع بالقضية الفلسطينية بشكلها الذي ورثناه لعقود، القضيّة أكبر بكثير من بعض المدن المدمرة والملايين من اللاجئين وعقودٍ مرت في بذل الدماء والشهداء، القضية هي قضية الانسان وحضارته وعمارته للأرض، وهي لا تنتصر إلا بصلاح الانسان ذاته قبل كلّ شيء.

كنت أحدث سماري صديقتي عن التواريخ التي وصلت إليها وأخبرها عن ثورة البركان التي سوف يسبقها مجاعةٌ كبيرة وانهيار في الاقتصاد العالمي، ثم أخبرتها كيف أنني تركت البحث في هذه الأشياء لأنني ابتعدت كثيرًا في خيالاتي.

استرعى التاريخ انتباهها بشدة فأرسلت لي مقالًا لأحد كبار الاقتصاديين في العالم العربي يُدعى طلال أبو غزالة. كان يحذّر في مقاله من انهيارٍ اقتصادي قادم في عام 2020م، ويحاول دفع الحكومات والمسؤولين العرب لاتخاذ الاحتياطات اللازمة للتغلّب على الأزمات المترتبة على الأمر.

حاولت البحث في هذا الأمر بشكل مكثف، فوجدت أن الكثير من المواقع والمراكز والمجلات الغربية تتحدث عن الأمر بشكلٍ جاد واضعين السيناريوهات المختلفة التي يمكن حدوثها للعالم في ظلّ انهيارٍ كهذا.

أمسكت الأوراق التي أعدت كتابتها ثانيةً بعدما مزقتها قبل أسبوع، وجلست أراقب التاريخ الذي تكرر معي بشكل ملفت: 4 جمادى الأولى 1443 هجري و10 كانون أول 2021 ميلادي.

هل يُعقل أن يكون الانفجار قريبًا إلى هذا الحد؟.

تذكّرت شيئًا مهمًّا، لابد أن يسبق الانفجار مجموعةٌ من الزلازل، هكذا قرّرت أن عليّ متابعة الزلازل التي تحدث في ايطاليا والعالم.

كان الأمر سهلًا في الحقيقة، تطبيقٌ بسيط على الهاتف الذكي يقدّم لي كلّ المعلومات الخاصة بالزلازل والبراكين بشكل دوري، ولاحظت مع متابعتي اليومية لأخبار الزلازل أنها قد ازدادت كثيرًا في الفترة الأخيرة، وكانت جميعها تتركّز في أقصى شرق آسيا واستراليا وأقصى غرب القارتين الأمريكيتين، مع بعض الهزات في محيط البحر المتوسط.

قادني هذا مباشرةً إلى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام عن علامات الساعة الكبرى التي يكون أولها ثلاثة خسوف، خسف في المشرق وخسف في المغرب وخسف بجزيرة العرب.

التوراة أيضًا حذّرت في سفر زكريا من زلزالٍ كبير تتعرّض له فلسطين وبيت المقدس، وأنا التي كنت أستغرب قيام الحكومة الإسرائيلية بالتدريب على مواجهة الزلازل والتسونامي مرتين كلّ عام. حتى الأناجيل المسيحية ذكرت نبوءة الزلزال على لسان عيسى عليه السلام.

كل هذه الملاحظات أوصلتني إلى سورة الزلزلة "إذا زلزت الأرض زلزالها"، يا ترى ما هو التاريخ الذي قد يعطيني إياه جمّل هذه الآية؟.
حسبت جمّل الآية فكان 2289، فإذا افترضت أن العام الذي سيحدث فيه الزلزال هو 2021 م والشهر هو كانون أول فان التاريخ الذي يظهر لي هو:
9 كانون أول 2021 ميلادي أي قبل تاريخ الصيحة بيومٍ واحد فقط.
شيءٌ غريب جدًا، انفجار فيزوفيس الذي دمر بومبيي 79م سبقه الزلزال بيوم واحد أيضًا ، تلاه عمود من الدخان خرج من البركان وصعد أكثر من 20 كيلومترًا في الهواء وأحال نهار بومبيي إلى ليل.
ولكن، أليس لدينا ذكرٌ للدخان في علامات الساعة، وفي القرآن الكريم أيضًا ؟.
قال تعالى في سورة الدخان: "فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين"، وحساب الجمَّل لهذه الآية هو2542، وهذا يعني أنه لن يعطيني نفس التاريخ الذي جاء من آية الزلزلة لأن الفارق بين الحسابين كبير، يصل الفرق بينهما ل 253 وهذا لا يحقق المعادلة أبدًا.. لحظة..
253 هو جمّل كلمة فيزوفيس، اسم البركان!
أي أننا لو جمعنا جمّل فيزوفيس الذي هو مصدر الدخان إلى جمل تاريخ 9كانون أول 2021 ميلادي فلَسَوْف يعطينا جمّل آية الدخان!!
لو صدق حدسي فإن أية الدخان تعطينا مصدر الدخان وتاريخ حدوثه؟.

***

-2-

لم يعد وهماً

غزة - 1 نيسان 2019 م

تعلمنا في الهندسة أن الخطوة النهائية من عملية الرسم أو الرفع المساحي تكون بالتيقُّن من صحة الأبعاد التي قمنا برسمها بطرق معينة. مثلا لرفع قطعة أرض مستطيلة الشكل نقوم بقياس الأبعاد الأربعة مع الأقطار، لأننا سنحتاج أحد القطرين لإتمام الرسم وسنحتاج القطر الثاني للتيقّن من صحة الرسم.

ولذلك كنت أشعر بالحنق لعدم تمكّني من الوصول إلى أسماء الرسل في سورة يس، أشعر أنها سوف تكون الدليل أو الحجة على صحة الفرضية من عدمها، لأنها إذا كانت فرضية منطقية فلابد من وجود أسماءهم بشكلٍ ما بين الآيات.

هل كان الرسل الثلاثة بولس ولوقا وبطرس هم المقصودين بالفعل في سورة يس؟ أم أن هناك آخرين لا أعلم عنهم شيئًا؟.

كان هذا السؤال يؤرقني كثيراً، الأمر ليس بالسهولة التي يتصوّرها أحد؛ لم تكن مجرد قصةٍ أحكيها أو محاولة لتفسير الآيات القرآنية دون أن يحاسبني أحد، أنا الآن أخطو إلى معقل المسيحية وأتحدّث عن أحد مقدساتهم بشكل يخالف ما اعتادوا عليه.

سوف أجد الكثير منهم يهاجمني عند حديثي عن القديس بولس الشهيد كجزء من قصص القرآن الكريم، وسوف ألاقي الكثير من التعنَّت عندما أخبرهم أن بطرس أحد الحواريين والذي لقبه المسيح بالصخرة مذكور في قرآننا في قصةٍ عجيبة حدثت في ايطاليا في القرن الميلادي الأول ولم يعلم عنها أحدٌ أيّ شيء قبل القرن السابع عشر.

عندما ظهر معي اسم بلينيوس في صورة عدد الكلمات بسورة يس بدأت أفكّر جديًّا في البحث عن أسماء الرسل في الآيات، وبالمنهجية ذاتها.

لم يكن الأمر سهلًا، بقيت لمدة عامٍ كامل أحاول بالأسماء دون نتيجةٍ واضحة. ثم جاء ذلك اليوم الذي كنت أعبث فيه بهاتفي فخطر لي أن أبحث عن أصل اسم بولس ومعناه.

كنت قد احتسبت في السابق عدد الكلمات بدايةً من كلمة "يس" إلى كلمة "اثنين" فكانت تساوي 105 كلمات، بينما عدد الكلمات من "يس" إلى كلمة " بثالثٍ " يساوي 108 كلمات، ذلك لأنني كنت افترض أن أسماء الرسل سنكون مؤرخةً عند هاتين الكلمتين.

بدأت البحث عن أسماء الرسل، ولم يكن اسم بولس يفي بالغرض أو يحقق المعادلة، لأنه كان يساوي 98 بينما عدد الكلمات 105.

بحثت عن أصل اسم بولس فوجدت له العديد من المرادفات وكان أصله يوناني يُقال له باولو أو باولوس. لفت الاسم الأخير انتباهي بشدة، باولوس، يشبه حروف بولس ويفوقها بحرفين فقط. جرّبتُ أن أحسب جمّله وإذا بي أجده 105 بالضبط. فتحتُ عيني على اتساعهما دهشةً وطِرتُ من الفرح، لأنني بعد عامٍ كامل أجد الأمر مرتباً بهذه البساطة بمجرد معرفة أصل الاسم الصحيح.

قرّرت المتابعة مع اسمي لوقا وبطرس لأرى إلى أين تأخذني هذه المحاولة. لوقا هو رفيق بولس في رحلته إلى روما، والذي عددتُه الرسول الثاني لأنه كان معه بكل تأكيد في روما عام 64 ميلادي، هكذا تقول الكتب والمراجع. أما بطرس فقد قتله نيرون عام 67 ميلادي في روما، فافترضت أنه الرسول الثالث.

تساءلت في داخلي عن سبب كتابتنا لاسم لوقا بالقاف؟ لقد غيّرنا الاسم وعرّبناه رغم أن اللغة اليونانية واللاتينية والانجليزية تخلو من حرف القاف. هو لوكا إذًا، ومعناه جالب الضوء أو المضيء باليونانية. جرّبت حساب الجمل لكلمة المضيء والمنير وجالب الضوء ولم تفي كلّ تلك الألفاظ بالغرض، ذلك لأن وجود حرف الضاد أو الراء كان يرفع قيمة الكلمة بشكل كبير.

تركتُ البحث واهتممت بشئوني محاولةً تناسي الأمر، لكنني كالعادة أتعرض لهجوم الأفكار حين أقوم بغسيل الأواني. فجأة وجدتني أقول لنفسي: ربّما كان اسمه لُكا وليس لوكا، وجمَّله يساوي 51 فقط، فماذا لو أضفت إليه جمّل الطبيب؟ ألم يكن طبيبًا وكان بولس يناديه بالطبيب الحبيب؟ سأجرّب الأمر: ال التعريف تساوي 31 وحرف الطاء يساوي 9 والياء 10 والباء 2 وباء أخرى 2، يصبح مجموعهم 54..

شعرت بإثارة خفيّة لأن الرقمين معًا قد يعطياني الرقم المطلوب. جمّل "لُكا الطبيب" هي 51 و 54 ومجموعهم يعطيني 105 بالفعل، يا الله، لدي حلٌ بالفعل. كان الأمر مثيرًا جدًا، ولشدة فرحي والإثارة التي تملكتني لم أستطع النوم أبدًا.

جلستُ أحاول كتابة هذه المعادلات وشرحها في روايتي، ولم يبقَ أمامي سوى بطرس الذي كان أصعبهم.

اسم بطرس كان صفةً أو لقبًا أطلقه المسيح على الحواريّ سمعان بن يوحنّا حين قال له "ستكون أنت الصخرة التي سأبني عليها كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها"، ومنذ ذلك الوقت أصبح يُسمّى سمعان بطرس.

كلا الكلمتين بطرس والصخرة تحتوي على حرف الراء وقيمته وحده في حساب الجمّل 200، ولذلك لم تكن الكلمتان تصلحان لأي معادلة تكون نتيجتها الرقم 108 والذي يمثل عدد الكلمات في سورة يس من البداية حتى لفظ "بثالث".

بدأت أفكّر بشكل مختلف، بما أن بطرس كانت وصفًا وليست اسم علم، فربما كانت المشكلة بالترجمة.. بطرس تعني الصخرة، والصخرة تعني الجلمود مثلًا، وحساب الجمّل لكلمة الجلمود هو 114، قريبةٌ جدًا ولكنها غير صحيحة. خطر لي أن اللفظ الصحيح قد يكون مشتقًا منها، هل يمكن أن أجد كلمة الجلمد في اللغة العربية؟.

بحثت عن معنى كلمة الجلمد وإذا بالمفاجأة الجميلة التي تقول إن كلمة الجَلمَد تعني الصخرة وكلمة الجُلمُد تعني الرجل الصلب وكلاهما كانتا تصلحان لترجمة اسم بطرس الذي وصف المسيح به سمعان بن يوحنا، بطرس كان الجَلمَد بمعنى الصخرة وكان الجُلمُد بمعنى الرجل الصلب.

تنفّستُ بعمق، ثم قُمت بحساب جمّل كلمة الجلمد ببطء وكأنّني أتوقع أن يساوي 108، ال التعريف تساوي 31 ، 3للجيم، 30 قيمة اللام و4 للدال. تخيّل؟ جمّل الجلمد يساوي 108.

أغمضت عيني وأنا أفكّر في عدد النتائج الإيجابية التي ظهرت في سورة يس لتربط بين أهل القريّة وبين حادثة بركان فيزوفيس، كان الأمر عجيبًا وصعب التصديق، لكنّه حقيقي.

كان في عيني بعض الدموع التي لم انتبه لها، ليس فرحًا بقدر ما كان امتنانًا لله أنه لم يُفلت يدي حين بدأت أنا الابتعاد عنه. في كل مرّة كنت أستغرب الأوقات التي تظهر فيها هذه النتائج المدهشة. أنا لا أجد الحل إلا بعد أن يتملكني اليأس وأستسلم وأبتعد عن اليقين بخطوات واسعة. لا أرى الإضاءات التي تلتمع في عقلي لتبيّن لي معالم الطريق إلا بعدما أتوقف عن البحث وأقرّر الركون إلى عالم الماديات بتفاصيله وشروطه. كأن الله يقوِّمُني ويَدُلُّني على الطريق كلما ابتعدت، يُعلِّمني أن طريق السعادة وحدها هي الطريق التي تؤدي إليه، وأنا كنت سعيدة حقًا لأنني أستشعر محبة الله ومعيته.

***

أنا أثق دائما برسائل الله..

كلّما تعبتُ وفقدتُ طاقتي وقرّرت التوقّف عن اكمال الطريق أرسل الله لي من يمدّ يديه فيساعدني على النهوض ثانية..

قبل عام ونصف لم أكن أودّ العودة للكلية لكن ظرفًا ما، حدثًا تافهًا ربّما، جعلني أعود وقد امتلأ قلبي يقينًا أن عودتي فيها نجاتي من السقوط، وهذا ما حدث فعلًا.

كانت هذه الدفعة من الطالبات من أكثر الدفعات التي درَّستها طاقةً، كنت آتي إلى الدرس فأسرق بعض طاقتهم الجميلة لكي أكمل سيري المتعثِّر، لكي أضحك معهم، أو ربّما أبثّهم بعض حكاياتي الغريبة فأجد بينهن من

يسمعني ويصدِّقني. ورغم أنني أجهل إذا كان هذا التخصص سيستمر مستقبلاً أم لا، إلّا أنني سعيدةٌ لكوني أكملت معهم هذا العام.

في يوم مناقشة مشاريعهن كُنَّ سعيدات بالإنجاز الرائع الذي قدّمنه، أرى ذلك في وجوه الجميع، وكنت وحدي أشعر بغصّةٍ في حلقي، وحدي أبدو كأم الشهيد يحتفل جميع من حولها بالمجد والخلود وعرس الشهادة وتدرك هي فقط أنها لن ترى فلذة كبدها ثانيةً، وحدها تعلم أن هذا الاحتفال سوف ينتهي ويرحل الجميع، ثم تُمضي بقيّة أيامها تنتظر أن تلمح ظلّ الشهيد في المنام. كنت وحدي أرى أنّ ما تعبتُ لأجله على مدى ثلاثة عشر عامًا قد يرحل إلى غير رجعة بعد هذا اليوم.

في يوم احتفال التخرج جلست في ركنٍ بعيد أراقب طوابير الخريجين وقد بدت الفرحة في عيونهم بعد مسيرة عامين من التعب والاجهاد.. أهكذا ستكون فرحة الناجين من اختبار الحياة الدنيا مهرولين إلى ما وعد الله وصدق المرسلون ؟.

***

كنت أحدّق في شاشة الحاسوب واجمةً وقد صدمت من الكلمات التي تراصّت أمامي ضمن مقالٍ باللغة الإنجليزية يتحدث عن آخر أخبار الحفريات في آثار مدينة بومبي. لعل هذا الخبر يهدم ركنًا رئيسيًّا في نظريتي، إذ أنه يغيّر تاريخ الانفجار الحقيقي.

على مدى ثلاثة قرون، كان العلماء معتمدين على رسائل بليني الأصغر لتحديد يوم انفجار البركان والذي بدأ في 24 آب 79 للميلاد وانتهى في صباح اليوم التالي. لكن الحفريات التي مازالت مستمرّةً إلى هذه اللحظة عثرت على كتابةٍ بالفحم على أحد جدران منزلٍ بين بقايا بومبيي، ويبدو

أن هذا المنزل كان في طور الترميم وقت فناء المدينة. هذه الكتابة كانت عبارة عن تاريخ بالتقويم الروماني، وهذا التاريخ كان بعد انفجار البركان بشهرين تقريبًا، 17 تشرين أول "أكتوبر" 79 للميلاد، فكيف كُتب هذا التاريخ على الجدار بعد دفن المدينة؟.

كان الأمر محيِّراً، وكان العلماء قد بدأوا يشككون بصحة رسائل بليني للمؤرخ تاسيتوس، خصوصًا أنها كُتبت بعد عشرين سنة من الحادثة، وكان الاعتقاد بأن البركان انفجر في شهر اكتوبر وفي يومٍ يعقب السابع عشر منه قد بدأ يسري بين الباحثين في تاريخ بومبيي.

لم يكن يهمني في الحقيقة إلا المعادلة التي استخرجت منها تاريخ انفجار البركان في بداية بحثي؛ عدد الكلمات من يس إلى خامدون، لقد هُدمت معادلتي تمامًا مع تغيير التاريخ.

تمالكتُ نفسي ثم جلست أعيد التفكير في الأرقام مرة أخرى. الأمر ليس واضحاً ولا محددًا، أيُّ يوم بعد السابع عشر من اكتوبر يصلح ليكون التاريخ الحقيقي، مع افتراض صحة فرضية العلماء في الخطأ الذي وقع فيه بليني الأصغر.

سأعيد المعادلة مرة أخرى:

"اليوم" + 10 "الشهر" +79 "السنة" +145 "جمل للميلاد"= 253

عندما أحلل المعادلة السابقة سيظهر لي اليوم الذي حدث فيه الانفجار، سيكون محبطًا أن يكون هذا اليوم قبل السابع عشر من أكتوبر، سيكون محبطًا بحق.

ارتجفت يدي وأنا أجري الحسابات على الآلة الحاسبة لكي أصل للحل: 19 أكتوبر. تنفست الصعداء وتوقفت يدي عن الارتجاف، الحمد لله، مازال عملي بأمان حتى هذه اللحظة.

لا يهمني الآن إذا كان الانفجار قد حدث في الشهر الثامن آب أو العاشر تشرين الأول مادام التاريخين يصلحان في المعادلة التي خرجت بها من البحث، فالحمد لله.

***

أسير في الشارع كما لو كنت أرى غزة للمرة الأولى، لم أخرج منذ زمن طويل سيرًا على الأقدام.

اليوم بعد انتهاء الفصل الدراسي واحتفالات التخرج شعرتُ بفراغٍ مرعبٍ في روحي، فقرّرت أنني بحاجة لأرى مدينة غزة من جديد.

ما زالت مسيرات العودة تتأرجح بين التصعيد والتهدئة حسب المعطيات السياسية التي تطرأ على البلاد. في كلّ خميس ينطلق الصوت المعدني الرتيب والذي اعتدنا عليه الآن ليدعو الناس إلى فعاليات المسيرة على الحدود الشرقية تحت عنوان ما، أي عنوان جيد يختاره المُعِدّون بناءً على الحدث الأبرز خلال الأسبوع.

ما زالت غزة محاصرة، وأبناؤها متفرّقين بين الأحزاب. ما زال هناك نسبٌ مرعبة للفقر والبطالة والفساد. قضايا هامشية كثيرة تحتل عقول الشباب وقضايا خطرة أخرى تهدَّدُهم أهمّها موجة الإلحاد واللا أدرية. لم يعد لديهم انتماء لأي شيءٍ مما سبق وعرفناه في تاريخنا كمسلمين، والأسوأ أنني لا أجد أحدًا من العلماء يتصدى لهذه الموجة بشكل منطقي ومقنع.

استغرب كثيرًا عندما لا أرى أثر هذه الصراعات في الشارع أمامي، فعدا عن ظاهرة التسوّل التي زادت بشكل كبير، أرى غزّة كما هي، حيّةً تتنفس، وتمارس نشاطها المعتاد. من يسير في الشارع يرى المحال التجارية مكتظةً، المطاعم لا تخلو من الزبائن وصالات الأفراح عامرة. غزة مدينة المتناقضات، سوف تعجز عن فهم الطريقة التي يعيش بها البشر هنا مهما حاولت، إلا لو كنت أحد هذه المتناقضات.

أنا في شارع الجامعة، آخر مرة رأيته فيها كان أثناء زيارتي لقرية الفنون والحرف و التي كانت قد دُمِّرت تمامًا أثناء قصفٍ مفاجئ من طائرات الاحتلال الإسرائيلي. الآن لم يعد لها أي وجود في ساحة الكتيبة الخضراء.

جلستُ على أحد المقاعد التي تمتلئ بها المنطقة وأخرجت هاتفي فوجدت عليه خمس مكالمات فائتة، تلك العادة السخيفة التي تجعلني أبقيه بوضعية صامتة. كانوا يبحثون عنّي على ما يبدو وقد أقلقهم اختفائي وتأخّري. هناك رسالةٌ أخرى على الماسنجر من شخصٍ لا أعرفه يطلب رأيي في بعض الكتابات.

استغربت حديثه، قرأت الفقرة التي أرسلها لي، حاولت أن أعرف أي تفاصيل عنه من خلال صفحته على الفيسبوك.

اسمه محمود من مصر، صورته الشخصية على الحساب لأحد مُغنِّي الراب المصريين الذين ظهروا بعد الثورة أمير عيد، هذا المغني بالذات كنت أرى أنه يشبه أخي ضياء.

أخبرته رأيي في قصته، وقد شدَّني الفضول لأن أفهم تفاصيل القصة التي يكتبها. وجدته يسألني:

- هل تعرفين شيئًا عن حساب الجمَّل؟.
- سؤالك فاجأني، هل تتابع الشيخ بسام جرار؟
- نعم.. أنا مهتم بكتاباته عن سورة الإسراء ووعد الآخرة.
- الحقيقة أنّها صدفةٌ غريبة، أنا أبحث في حساب الجمّل ولكن في سورة يس.
- حقًا، لديك بعض المعلومات إذًا..
- أحاول جمع معلوماتي لأجل رواية أكتبها.. قد أرسلها لك حين انتهي إن شاء الله.
- كان لديّ رؤيا أثرت على تفكيري قبل ثلاث سنوات، حلم، هل أخبرك بها؟.
- تفضل.
- رأيت نفسي في مقبرة، أقرأ الفاتحة على قبر د.عبد العزيز الرنتيسي رحمه الله. ثم رأيت بجانبه قبرًا آخر كتب عليه حسن البنا. كان القبر مكشوفًا فرأيت وجه من فيه، لكنّ الغريب أن ذلك الذي كان في القبر كان يشبهني أنا ولكنه بلحيةٍ خفيفة، اتبسم لي فوضعتُ يدي امسح على وجهه وصحوت من النوم وملمس بشرته ما زال في يدي.

لم أستطع الرد عليه بعد هذا الكلام، أصابتني قشعريرةٌ شديدة فسألته:

هل هذه الصورة صورتك، تلك التي في ملفك الشخصي؟ أم هي لأمير عيد، مغني الراب في كايروكي؟.

- بالطبع صورتي.

أرسلت له صورة أخي ضياء، وقبل أن أعقّب عليها كان يقول: يا إلهي، يشبهني كثيرًا، لكن عيونه زرقاء وله لحية.

- هذا أخي ضياء، استشهد في عام 2014 ويرقد في المقبرة نفسها التي تضم رفات الرنتيسي. كان هو من أرشدني لبسام جرار وحساب الجمَّل، أفكاره كانت مختلفة عن الشباب، يحب طارق سويدان وخالد الراشد ويحب البحث كثيرًا، رغم أنه كان يعاني من مشاكل مع التعلّم في المدرسة ولكنه في النهاية استطاع دخول الجامعة وتفوّق فيها، ثم شاء الله ان يُقتل في الحرب.

- أنا أيضًا كان لدي مشاكل في التعليم، رسبت في الثانوية العامة سنتين متتاليتين. وأحب خالد الراشد والسويدان.

أجبته وقد استغربت كلّ هذه التشابهات: ضياء أيضًا رسب سنتين متتاليتين..

صَمَتُّ قليلًا لكي أستوعب الأمر ثم سألته:

لماذا اخترتني أنا بالذات لتطلب رأيي في كتاباتك؟ هل تعرفني من قبل؟.

- لا لا.. لا أعرفك.. ولا أدري لماذا أرسلتُ لك بالذات. هل يمكن أن ترسلي لي صورة المقبرة..

- سأفعل إن شاء الله، سأصوّرها لك.

كان الأمر غريبًا جدًا، جدًا، لكنني أؤمن برسائل الله، ولذلك صدّقتُ أن محادثة محمود كانت جزءًا من هذه الرسائل.

عدتُ بذاكرتي إلى البداية البعيدة للحكاية، حيث لم تكن كلّ هذه الأفكار في ذلك الحين تعني لي شيئًا. رجعتُ إلى تلك الليلة التي تجمّدت فيها كلّ

أحاسيسي لردحٍ من الزمن حتى ذاب الجليد فإذا بي أصبح شخصًا آخر بأهدافٍ مختلفة وتفكيرٍ مختلف.

عُدت إلى الرابع من آب 2014 للميلاد..

***

-3-

ضياء

غزة - 4 - آب 2014م

الثالثة صباحًا.. الهاتف يرنّ.

أنـا أكـره المكالمـات اللَّيليَّـة، ومـن الـذي لا يكرههـا، مـا أعرفـه أن المكالمات السعيدة لا تستعجل إلى هذا الحد.

الجميع نِيام؛ مع كلّ التوتّر الذي تجلبه أحداث اليوم خلال الحرب لابد للجميع أن يناموا بعمق ما لم توقظهم أصوات القصف المتفرّقة من آن لآخر. أنا أيضًا غفوتُ قليلاً وأنا أنتظر الكهرباء لكي أعدَّ بعض الخبز، أنت تعرف، المخابز تزدحم في الحروب، ستكون محظوظًا لو أنك حصلت على مؤونتك من الخبز بعد الانتظار لساعات في الطابور.

أجبتُ الهاتف وقد سيطر عليّ هدوءٌ غريب : ألو السلام عليكم، من؟.. عوض!!

أتاني صوتُ عوض يقول: عظّم الله أجركم.

- من؟.

- ضياء يا هبة.. ضياء استشهد..

سألته ببرودةٍ عجيبة: متى حدث ذلك؟.

- للتو.. أنا الآن في المستشفى

- وأمي ؟؟ كيف هي؟ هل عرفت؟.

- الحمد لله.. كيف ستأتين غدًا؟.

- لا أعرف.. ادفنوه.. ليس مهمًا أن آتي!

كنت أحتاج أن أصرخ، ولعلّي لم أجد مجالًا لصرختي المكتومة إلاّ في فضاء الفيسبوك الأزرق فصرخت. لم أكن أنا حينها، لم أعد أعرفني في تلك اللحظة، جبلٌ جليديّ هائل تكوّن حولي بغتةً فلم أعد أشعر بأيّ شيء، حتى هذه الدموع التي كانت تبلّل الخبز كانت بلا شعور. بعضهم أتى لمواساتي بعد أن رأوا منشوري على الفيسبوك، لكنّني لم أكن أستمع أو أفهم شيئًا. قالوا: مبروك الشهادة.. استغربت الكلمات، لقد أصبح استيعابي بطيئًا جدًا.

مبروك الشهادة.. يااااه.. ثبّتني يا الله.

كنتُ أتساءل في الحروب السابقة، عندما استشهد سالم مثلًا، كيف لأمّه وأخواته الظهور بمثل هذه القوّة؟ كيف يصبرون؟ كيف يقفون على أقدامهم؟ لم أكن أعلم أنّي لا أراهم، كنت أرى الجبل الجليديّ المحيط بهم.. جليد الصدمة، والإنكار، والرغبة في الاستيقاظ من الكابوس، فلتسمِّه ما شئت، لكنه في يومٍ ما، لحظةٍ ما، سيذوب مخلفًا بركانًا من الحمم.

ضياء، أخي الصغير الذي يصغرني بعشر سنوات كاملة، ذلك الوسيم الودود المتفائل.. لقد ذهب مع الكثيرين.

كان يضع شهاداته في حقيبةٍ صغيرة، ليحملها بسرعة في حال اضطرّوا للإخلاء، أيّ شخصٍ قد يضطرّ للإخلاء في غزة، كان يقول: "هذا مستقبلي يمّا". لم أعهد إصرارًا كإصراره، ولا اجتهادًا كاجتهاده.

ايييييه.. إنه القدر.

كنت أسير كالزومبي متَّجهةً إلى السيارة التي ستُقِلُّني لكي أودّعه، والطريق طويلٌ بين أنقاض المباني وأنقاض البشر التي تنتشر في كلّ قطاع غزة.

في الطريق، كان هناك زومبي آخرون يسيرون في السوق، يحتفلون بهدنةٍ من طرفٍ واحد، أو ربّما يعوّضون العيد الذي مرَّ عليهم دون أن يمارسوا طقوسهم السنوية، رغم أن مدارس الوكالة كانت تعجُّ بأفران الكعك وصانعيه قبل أيام.

الغريب في الأمر أنني كنت أنتبه لكل التفاصيل التي أراها حولي وبكل دِقّة. لم أستوعب كيف تستطيع إحداهن أن تخرج وعلى وجهها كلّ هذا الماكياج، تسير بكل ثقةٍ في شارعٍ تراصَّت مراكز الإيواء على جانبيه، بل لعلّها تعيش أيضًا في مراكز الإيواء، لم أفهم كيف يمكن لأيٍ كان أن يتجاهل الدماء والحزن الذي كسا الوجوه والقلوب؟ أو لعلّها كانت هي الأخرى تخفي حزنها تحت طبقات الأساس، ربما، دعنا لا نحاكم أحدًا.

أكثر من نصف ساعة مرّت ونحن نسير في شارع البحر الطويل، وعلى المدى نراقب الزوارق البحرية ونتساءل: هل سنصل يا ترى؟ أم أنّنا سوف نتحول إلى ضحيةٍ أخرى من ضحايا "الهدنة من جانبٍ واحد".

مررنا على تلك الاستراحة التي قصفتها الزوارق البحرية منذ مدة، استغربت حينها وجود من يهتم بكأس العالم في غزة وفي ظل هذه الظروف. في ذلك الوقت قالوا أن بعض المسلّحين جلسوا بالقرب من روّاد الاستراحة لسببٍ ما ثم حدث ما حدث، لا أحد يعلم الحقيقة، نحن أسرى لكلام الإعلام.

مسجدٌ مدمرٌ بمئذنةٍ متهاوية، أو مسجدان، لا أذكر حقًا، دمارٌ نطالعه من منطقةٍ إلى أخرى، وبين لحظةٍ وأخرى تتساقط بعض الدمعات التي لم يلاحظها السائق، أو لعلّه يفهم القصة؛ من المجنون الذي يخرج في مثل هذا الوقت لولا أجبرته قصةٌ ما على الخروج بصغاره. صغاري نعم، كانوا معي بالطبع، يتلفّتون بين الحين والآخر يراقبون حركاتي وانفعالاتي ودموعي الصامتة. إنها المرّة الأولى بالنسبة لهم، كانوا صغارًا عندما استشهد عمَّهم سالم، وشام لم تكن قد ولدت بعد. لقد كانت المرة الأولى التي يشاهدون فيها حدثًا كهذا.

بعض المحال التجارية كانت تفتح أبوابها وكان ذلك غريبًا عليّ، عرفت فيما بعد أن المطاعم كانت مزدحمةً بعد هذه الهدنة. تساءلت في داخلي عن كوننا بشرًا، وهل تبلَّدت مشاعرنا إلى هذا الحد وتحولنا إلى زومبي؟ أو لعلّني أنا الزومبي الوحيد في هذه القصة ومن حق الآخرين أن يُرفِّهوا عن أنفسهم بعد سبعة وعشرين يومًا من الحرب والقصف والموت والخراب. دعنا لا نحاكم أحدًا.

" ألو.. لا لا.. لقد وصلت تقريبًا"

"أسرعي، لقد تأخرنا عليهم، هناك ثلاثة شهداء غيره."

شارع الجلاء، انعطف يمينًا، يسارًا، ثم يسار. توقف هنا، لقد وصلنا. هكذا أعطيت تعليماتي للسائق الذي بدا صامتًا لأقصى حد خلال الرحلة. ما زلت أحتفظ بالجبل الجليدي، وما زلت لا أفهم شيئًا ولا أعرف أحدًا ممن ألتقيهم في طريقي. دخلت شقّة ألاء التي ازدحمت بالمودّعين والمشيّعين، شاهدت إخوتي بأعينهم المحمرّة ووجوههم المصدومة وجبال الجليد التي تلفّهم جميعًا. رائحةٌ غريبة في المكان، لم تكن كرائحة

المسك كما تتخيّل ولكنها رائحةٌ ملفتة لا أعرف مصدرها. الكثيرون هنا ولكنّني لا أرى نفسي معهم، أو ربّما لم أعد أعرفني.
هناك بالداخل كانت أمي بجانبه، وكان جميلًا، أجمل منه في حياته بكثير، أو لعلّها هيبة الموت، لا أدري.
لم أسلّم على أمي، ما زلت لا أعرفني أساسًا. كانت تقول: "والله ما هان عليّا يمّا ياخدوه من غير ما تودعيه.. والله ما هان عليّا.. كان بِدُّو يِعْمَلّك الفيديو بس مَفِضِيش، مَلِحْقِش.. سامحيه.."
بعضهم يجهش بالبكاء، أنا أيضًا أبكي ولكنني لا أشعر بذلك. كُنَّا قبل الحرب اتَّفقنا أن يساعدني في الدعاية لتخصص الفنون والحرف، صَوَّرنا بعض اللقطات والصور وكان آخرها قبل ليلة الحرب بيوم.
اييييه.. إنه القدر

***

لا أحب دور العزاء، أبغضها منذ كنت طفلة، أذكر عندما مات ابن عم جدّي أننا اضطررنا لإغلاق التلفاز مدّة أربعين يومًا متتالية. أربعون يومًا لا نرى فيها الرسوم المتحركة، كُنّا وقتها أطفالًا صغارًا، لذلك كرهنا العزاء وما يلازمه من عادات وتقاليد.
ما زلت إلى الآن أكره دور العزاء، حيث يلتقي المعزّون لتبادل الأحاديث والأخبار في حضرة أم الميت وأهله للتسريّة عنهم، وكلَّما كانت الأحاديث متنوعة وشيّقة كلّما كان الأمر أكثر جمالًا، أو كما يقولون "كان عزاؤه يشرح القلب " وهذه كرامة خاصة لمن اصطفاهم الله كما يقولون، لا تسألني عن تفسير "يشرح القلب" عند أم الشهيد وأهله لأنني كنت أهرب من أماكن تجمع النسوة إلى أي مكان منعزل.

كنت أكره دور العزاء، ذلك الذي يتحوّل فجأة إلى مصدر جذب للمصلحين الاجتماعيين بخطبهم الدينية التي تعجّ بالبدع والأحاديث الموضوعة، إذ لم يُتعبوا أنفسهم بالبحث عن صحّة أسانيدها معتمدين على جهل العامة ونزعتهم للتديّن، لأننا شعبٌ متديِّن بالفطرة. أكره استغلال مصائب الناس لرسم هالةٍ من القدسية حول أشخاص كان كلّ همِّهم التدرَّب على الإلقاء واكتساب الثقة بالنفس. هربتُ من الجميع، بحثتُ عن ركنٍ معتمٍ لأغطِّي وجهي بالمنديل وأبكي. لا أريد أن أسمع كلامًا ولا أريد مواساة، أريد فقط أن يتوقف الجميع عن التظاهر بالحزن. أعرف شعورهم جيدًا، جرّبته لسنواتٍ عديدة وأنا أرى الشهداء يتساقطون، ونعم، كنت أحزن لأجل كلّ الشهداء، غير أنني أصبحت الآن واثقةً أن لا حزن يوازي حزن الفاقدين.. لا حزن يوازي حزن الفاقدين.

كيف بدأت الحرب؟! لا أحد يعلم بالتحديد، كانت الأحداث تتدحرج بشكلٍ غريب لتصل إلى نقطة اللاعودة. يُقال إن الأمر بدأ بحادثة حرق الفتى المقدسي أبو خضير، يُقال إن الأمر لم يَعْدُ عن كونه مجازفةً لتحريك الوضع القائم في غزة وإيقاف الحصار المفروض عليها.

لا أحد يعرف كيف بدأت الحرب ولكنّنا نعرف الكثير من التفاصيل عنها، كان هناك الكثير من الإبادة والصمود، الكثير من التجارب والمفاجآت، والكثير من التخاذل بالطبع، ثم الكثير من الخنوع.

في مساء اليوم الأول بعد الوداع كنت أبحث في الصور القديمة، كان طفلا جميلًا، مشاغبًا، بريئًا حدَّ الدهشة، لقد أصبح شابًا ولم تبارحه

براءتـه الطفوليـة، لا أظنُّـه كـان ينتمـي إلـى هـذا العـالم بـأي حـال مـن الأحوال.

هل تصدِّق أن الله يرسل لنـا الرسـائل؟ أنـا أصـدِّق. أنـا أسمعها وأفهمهـا، وبكل بساطة أصدّق.

هل تصدّق أن لدم الشهداء ريحًا كريح المسك؟.

فـي صـباح اليـوم التـالي لدفنـه كنـت أتشـمم وشـاحي باسـتغراب، كنـت قـد وضـعته أمـس معلقًـا علـى الشـماعة فـوق حقيبـة أمـي، وكانـت رائحتـه كرائحة المسك بالفعل، ذلك الطرف الذي لامس وجهه فقط. أعلم أن أمـي تضع قطعًا من المسك فـي حقيبتها ولكننـي أضـع ملابسـي هنـا دائمًـا ولـم تعلق بها هذه الرائحة من قبل.

أنـا أفهم رسـائل الله، شـيءٌ فيهـا يـريح القلـب، كـأن يـدًا حانيـة تربِّـت فـوق قلبك حتى يهدأ. شيءٌ ما في رسائل الله يسحب كلّ الحزن ويُثبِّطُه، يُجَمِّده إلى أجل مُسمَّى. هل تصدّق أنت؟.

يُقـال إنـه كـان يرتـدي لثامًـا علـى وجهـه، بعضـهم يقـول إنـه وزميلـه كانـا يلاحقان شخصًـا فـي تلـك المنطقـة، أو ربّمـا لـم يكـن الأمـر سـوى مصـيدةٍ لهما.

قـال عـوض لأمـي أن تحمـد الله علـى شـهادته، لأنهـا لـو رأت قدمـه التـي قُطعت بتـأثير الصـاروخ لكانـت تمنَّـت لـه الشـهادة بصـدق، قـدرُ الله دائمًـا رحمة، فالحمد لله على قدر الله.

كان يصرُّ دائما على تذكيري بالبحث في محاضرات بسام جرار ونبوءة زوال إسرائيل وحساب الجمَّل، وكنت أنسـى دائمًـا، أنشـغل، أتلهَّـى. أتـراه الكِبـر مـا كـان يمنعنـي؟ هـل تكبّـرت علـى كـوني أتعلّـم شـيئًا مـن أخـي

الصـغير؟ هـل كـان تجـاهلًا منّـي لأفكـاره أو أننـي كنـت أرى فـي عقلـي الباطن أنني أكثر علمًا من أن أتتبّع اهتماماته الصـغيرة؟ أصـبحتُ أخشـى هذا الهاجس كثيرًا بعد استشهاده. هل كنتُ متكبَّرة؟.

الآن بعد أن رحل، أصبحتُ أرى الأمر مُلِحًّا أن أتتبَّع الأفكار التي كان يتحدّث عنها. وجدت أنّني أجهل الكثير بالفعل، لقد بدأ عقلي يبلى من تراكم الصدأ عليه، كلّ العلوم التي كنت أعرفها كانت شيئًا وهذا الذي أتعلّمه الآن كان شيئًا آخر.

اكتشفت أننا خُدعنا بشكل مهين، أن التاريخ الذي تعلمناه لا يمتُّ للحقيقة بصِلة. اكتشفت أننا كنا نسير حسب خططٍ وُضعت خصّيصًا لتحجيم عقولنا وتفكيرنا وتسييرها في طرقٍ أعدّت لنتحول إلى عبيد. عندها أدركت عمق المصيدة التي دخلناها بأقدامنا، وعرفت أننا أضعنا أعمارنا هباءً منثورًا، وأن الطريق الذي اعتدنا السير فيه كان خاطئًا و لن يوصلنا إلى معرفة الله كما ينبغي لنا أن نعرفه.

فهمت أن الغاية الحقيقية للبشر هي الله ومعرفة الله وحبّ الله ولكن هذه الطرق التي أمامي كلها بكل تفاصيلها لا تقود إليه. شعرت أنني بحاجةٍ لشق طريقٍ آخر يقودني للحقيقة، طريقٍ جديد.

هل تؤمن برسائل الله؟ أنا أفعل، لقد كان استشهاد أخي أحد هذه الرسائل، وأنا أحاول أن أستقبل رسائل الله برحابة صدر.

بعد ذهابه ستكتشف أمي أنه هو فقط من كان يجرؤ على تفكيك أجهزتها الكهربائية بالكامل وإصلاحها، رغم أن ذلك كان يثير غضبها بشدة.

ستكتشف أنه وحده من بيننا جميعًا الذي جعلها تشعر بفرحة النجاح الحقيقية، سنكتشف جميعًا أن الحياة لم تعد أبدًا كالسابق..

اييييه، إنه القدر.

***

أما بعد

أدركتُ أن شيئًا ما قد تغير في داخلي، يراني الجميع كما كنتُ في السابق هادئةً منعزلة، أراقب كلّ ما يدور حولي بصمت، لكنني وحدي كنت أعرف أن شيئًا ما يتغيّر مع الوقت.

ما السر الذي أسبغته عليّ سورة يس فغمر روحي بطاقةٍ مجهولة ترسم لي الخُطى في طريقٍ ظننتُ أنه كان اختيارًا فكان قدرًا محتومًا؟.

كانت مُعَلّماً وكنت التلميذة التي ما زالت دهشتها تزداد مع كلّ حرف تفتح عليه أعينها، تمتلئ شوقًا لمعرفة المجهول ويتَّسع وعيها كلّ يومٍ للمزيد، فهل من مزيد؟.

علَّمتني سورة يس أن الإجابات كلها في داخلي، وأن الأسئلة تنتظر من يتجرّأ على طرق أبوابها، وكل ما تتطلّبه منك هذه الأبواب لكي تُفتح أن تمتلك الإرادة، وأن الإرادة بدون اليقين في قدرتك على الإجابة هي إرادةٌ منقوصة، كأنها خريطةٌ بلا ملامح تقودك في دروب عَسِرة قد تُودي بك إلى العدم. عَلَّمتني أن أصغي جيدًا إلى ذلك الصوت الهامس في ردهات عقلي، هناك تكمن الإجابات الصحيحة منذ الأزل، أنا فقط لم أكن أصدّق وجودها.

علَّمتني أن العجز هو عجز العقل وعجز الإرادة وعجز القلب عن التواصل مع الخالق، وأن الأسباب العقيمة والثقافة الأنيقة التي يتخذها الضائعون وسيلةً للجدال والسفسطة ما هي إلا ذرائعٌ لإخفاء عجزهم

ورغبتهم الجامحة في مشاطرة الإله في ملكه، وأن ذرّة الكِبر التي زُرعت في قلوبهم أصبحت شجرةً تؤتي ثمارها ضياعًا وتيهاً.
علَّمتني أن أصدِّق أن الحقَّ حقٌّ لا مناص منه، مهما تغافل الغافلون عنه، وأن الباطل ضعيفٌ إلى زوال مهما ظهر من جبروته، وأن الطريق الطويل الشائك سينتهي في يومٍ ما، وأن الهلال رغم كلّ شيء سيصبح بدرًا قبل أن يعود هلالًا مرّةً أخرى في دورةٍ أبدية لا تنتهي.
وعلَّمتني أن دوام الحال من المحال.
غيَّرتني سورة يس، أرتني أن الحرف قد يُحيي أمَّة وقد يُميتها، وأنه لا يزول بزوال الحياة ولا ينتهي بانتهاء الكون.
وهناك في الفراغ الذي غلّف نفسي وجدت بذرةً للوعي، رحم الله من غرسها، ورحم من سقاها، ورحم من فتح لها ثغرةً في السقف الذي اعترض سيقانها، لكي اكتشف أن السماء بعيدةٌ وجميلة، وأن النور ملء الفضاء لمن استطاع أن يخرج من تحت السقف الذي حبسه لسنين..

***

صديقي حنظلة
كانت الظلمة حولي تمتدّ إلى ما لا نهاية، حدودٌ لم أعد أدرك معانيها بعدما أصبحت الحياة تتساوى مع الموت في الاحتمالات والمعاني، صمتٌ مطبقٌ تتخلَّله دقاتٌ منتظمة، كأنما هي مطارقٌ عملاقة لحفَّاري قبورٍ كُسالى بالكاد يستطيعون رفع معاولهم وغرسها في التراب لدفن قادمٍ جديد، و قبرٌ حيٌّ يتحرك في ظلمات البحر، أسمع صوت أنفاسه بين الحين والآخر متسائلةً عن السبب الذي ما زلت أنا أحيا لأجله في هذا القبر.

لا أحد هنا غير الألم والندم يصاحباني في رحلتي التي لم أعرف غير أنها حتميّةً لكي أكون شيئًا ما. وهنا في الظلام أدركت عِظم الأمانة، فجثوت على ركبتيّ، بكيت، وعلمتُ أن الله يصطنعني لسبب ما، وأن الرحلة لن تنتهي هنا.. أستغفرك ربي وأتوب إليك، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

كلُّنا سنَمُرُّ على بطن الحوت في لحظةٍ ما من لحظات حياتنا، تلك اللحظة التي لن تعود الحياة بعدها كما كانت أبداً، وسيكون علينا أن نختار طريقاً حقيقياً لا مجال للعبث بعده. لكنّ المرور ليس سهلًا، وعبور هذا الظلام إلى شاطئ الحياة حيث تنبت شجرة اليقطين ليس بِأيدِينا، لأن العبور يستلزم تذكرةً نكتسبها في عمق الظلام، كلٌّ حسب اجتهاده ووعيه وهمَّته.

وعلى الشاطئ كانت شجرة اليقطين ترقد بانتظار الزائر المعذَّب، يبتغي الأمان بعد رحلة الهلاك التي عبر بها ظلمات البحر. مسكينةٌ شجرة اليقطين، قلّما يحبها أحد، قلّما يفهمها أحد، تُشبهك أنت يا صديقي إلى حدٍ بعيد، بقشرتها القاسية التي تخفي داخلها قلبا نقياً يحوي الدواء. أنت أيضًا أنبَتَك الله في طريقي بعدما أخرجني من بطن الحوت، كان يعلم فيك دواءً لتلك القروح التي غمرتني هناك في الظلمات.

لطالما تساءلتُ عن الشيء الذي فعلتُه لكي أستحق الخروج، لماذا أنقذني الله وأنا على ما أعلمه في نفسي من تقصيرٍ في حقه؟ لماذا أرسلني إلى هنا وظلّل علي بأوراق اليقطين، ولماذا نجوت؟ عندها لاحت لي الأمانةُ من بعيد كشمسٍ تبدأ بالبزوغ، صدمني وهج الحقيقة الصادر منها، لكنّني لم أستطع الهروب، لقد كان دَيْناً عليّ منذ ابتَلَعني الحوت أن أحمل هذه

الأمانة، كانت طوقاً ألزَمْتُه رقبتي بغية النجاة، ورغم قسوة هذا الطوق إلا أنه كان يحميني من الانكسار كلّما اشتدّت الرياح.
الجزيرة ما زالت تنتظر البلاغ القادم من ذلك القابع على الشاطئ يداوي جراحه، الحقُّ ما زال ينتظر مَن يشعل ثورته، والأمانة ما زالت تنتظر من يؤديها إلى أصحابها، بينما الدرب ما زال في بدايته ينادي على الخارجين من بطن الحوت.

صديقتك

الخارجة من تحت الرماد

***

صديقتي الخارجة من تحت الرماد
لا توجد صُدَفٌ في هذا العالم؛ كلّ ما يحيط بنا ويعترضنا، يهدمنا أو يبنينا هو قدرٌ من الله. لم تكن إلا ضربة معولٍ لم ألحظها، وقَدّر الله لها أن تصادف طريق روحك العالقة فتزيل عنها بعض ما دفنها تحته لسنين. أنتِ من أخرجتِ نفسك، أنتِ من حفرتِ بأظافرك طريق الخروج، لأن روحك كانت توّاقةً للحرية.
كلّنا خامدون يا صديقتي، كلنا نقبع تحت أطنان من الرماد منتظرين ضربة معولٍ تفتح أمامنا الطريق فتزيل الطبقات التي دفنتنا لعقودٍ. وربما لا يأتي من يفعل ذلك فتفنى أرواحنا دون أن يَكتب التاريخُ أنّنا ظهرنا على هذه الأرض، لأننا لم نترك أثرًا.
كانت ضربة معولٍ فقط، ولكن من يدري، فلعلّك أنت أيضًا كنتِ قمتِ بهذه المهمة لأحدهم في يومٍ ما، أنَرتِ له دربًا أو نفضتِ بعض التراب عن مدفنه. من يدري، فلَعَلّك أنتِ أيضًا ضربتِ بمعولكِ الصغيرِ ففتحتِ

ثغرةً لأولئك الخامدين تحت الرماد، بل لعلّني كنتُ أنا أحد أولئك الذين أخرجتِ أرواحهم من ظلامها. كلّنا خامدون، صدِّقيني، ونبحث عن طريق العودة لنخرج من التيه.

أعلم أن كلّ ما أردتِه أن تتركي أثرًا، ولقد أخبرتُك أن لا أحدَ يمرّ على هذا القلبِ دون أن يترك أثرًا. كلّنا نترك آثارًا، فنحن كيانات وأرواح، لكنّنا لم نكن المشكلة يومًا، بل هي القلوب التي زرعنا بها آثارنا. بعض القلوب كبحيرة الماء المالحة ما أن يمرّ عليها الأثر حتى يعود سطحها ثابتًا كما لو أنه رخامٌ مصقول، وبعض القلوب كالصحراء، ترين بها آثار القوافل رائحةً غادية فتدُلّك على الطريق، لكن احذري، لأنها ما أن تهبَّ عليها الرياح حتى تختفي هذه الآثار إلى غير رجعة. وبعض القلوب كالجبال الوعرة تحتاجين إلى جهدٍ جهيد لارتقاء قمَّتها، تحفرين بأزاميلك وأوتادك في صخورها، لكنك في النهاية تتركين فيها أثرًا لا ينمحي، كلّ ما في الأمر أنها تحتاج إلى متسلّق جبالٍ قوي كيلا يسقط.

وأنت يا صديقتي لديك قلبٌ كرماد بركان فيزوف، اجتاح مدينة بومبيي فغطّاها لقرون دون أن يمحُو لها أيّ أثر مهما كان هذا الأثر صغيرًا ومهملًا، أخرجها المنقِّبون كما كانت في الماضي السحيق لم تتغير. وهناك في قلبك تختفي كلّ التفاصيل التي مررتِ عليها كما لو كانت حيةً منذ الأزل. وتلك الذاكرة العجوز التي تنسى أين وضعتِ القلم بينما هو بين يديكِ لا تنسى آثار من مرّوا على القلب بتاتًا، إنّهم باقون هناك إلى الأبد.

واعلمي أن روحك ملكٌ لكِ وحدك، فلا تجعلي قلبك كلّه للآخرين يرسمون فيه ما شاءوا من تفاصيل؛ إن شاءوا عَمَّروه وإن شاءوا تركوه

حطامًا، بل خصِّيهم بركنٍ فيه صغير ليظلّ عامرًا ونابضًا مَهْما كان من أفعالهم.

لا تجعليني أرى ذلك الحزن الذي غلَّف عينيك لأجل أيٍ كان، ستعلمين يومًا أن الدنيا بكل ما عليها ومن عليها لا تساوي لحظةً تشعرين فيها بالأمان بعد أن يُنهِكِ التعب، ولا أمان إلاّ في كنف الرحمن، فلا تبحثي عنه بين يدي البشر لأنهم كلهم مثلكِ يبحثون عنه. قد يتوهَّمون للحظةٍ أنهم يملكونه فلا تصدقيهم، لا أمان إلا في كنف الله.

وإني لأعلم أنّ القلب عصيٌّ على الفهم عصيٌ على الطاعة، وأنه لا سلطان عليه إلا لرب العالمين، فروِّضيه بطاعة الله واشغليه بالبحث عن الحق، واعلمي أن حُبَّ الله يعلو كلّ حُب، فلا تقدِّمي عليه أحدًا فتَزِلّي.

لا راحة في الحياة يا صديقتي، ولا سعادة حقيقية، فلا تحزني حين تكتشفين ذلك بعد عناء البحث عنهما. الأزهار الجميلة تعيش لفصلٍ واحد وكذلك الأعشاب الضارة، ولا يبقى إلا غابات الصنوبر ضاربةً جذورها في عمق الأرض، ثمارها صلبةٌ لا تفتح إلا بإرادتها، استعصت على الحطّابين لما قطعوها فتركوا جذورها مغروسةً في الأرض. إياكِ أن تكوني زهرةً أو عشبًا، بل كوني شجرة صنوبر تنغرس عميقًا في الأرض وترتفع هامتها عاليًا في السماء، تمنح الظلَّ للغابة دون أن تحجب عنها الشمس.

واعلمي أن كُلًّا يرى بعيني قلبه، فالغيور لن يراكِ إلا حسرةً والحبيب لن يراكِ إلا حبيبًا وصاحب الحاجة لن يراكِ إلا حسب حاجته. ولن تغيِّري الآخرين مهما بذلتِ من جهد، إنك لا تهدين من أحببتِ، لكنّ الله يهدي

مـن يشـاء. فابـذري البـذار فـي أرض خصـبة ولا تبـذلي الوقـت إلا فيمـا يرضـي الله.

أنا لا أملك لك اليقين يا رفيقة، وحده الله من يزرعـه فـي القلـوب، فاطلبيـه منه.

صديقك

حنظلة

المراجع

الكتب العربية

- القرآن الكريم " مصحف المدينة المنورة بالرسم العثماني"
- بسام جرار، زوال إسرائيل 2022م، نبوءة أم صدف رقمية،مركز نون للدراسات القرآنية، 1994م
- محمد العزب موسى، حضارات مفقودة
- يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة
- سفر أعمال الرسل المنسوب لـ لوقا
- رسائل بولس

المراجع الرقمية الأجنبية

- Suetonius ,The Lives of the Twelve Caesars - book 6,7,8,9.

http://penelope.uchicago.edu/Thayer/E/Roman/Texts/Suetonius/12Caesars/home.html

- The Oxford Encyclopedia of Ancient Greece and Rome, Oxford University Press,2010

https://www.oxfordreference.com/view/10.1093/acref/9780195170726.001.0001/acref-9780195170726

- Tacitus, The *Annals*

http://classics.mit.edu/Tacitus/annals.html

- Tacitus, *The Histories*

https://www.gutenberg.org/files/16927/16927-h/16927-h.htm

- Gaius Plinius Caecilius Secundus, LETTERS OF PLINY, Translated by William Melmoth

https://www.gutenberg.org/files/2811/2811-h/2811-h.htm

- AD79 Destruction and Re-discovery,

https://sites.google.com/site/ad79eruption/home

الأفلام الوثائقية:

- pompeii the talking walls
- Pompeii: A city rediscovered, Istituto Geografico De Agostini, S.P.A
- Pompeii The Last Day
- Vesuvius: Deadly Fury ,DOCLAB, Discovery channel
- The Private Lives of Pompeii
- Herculaneum's Lost Library
- Pompeii rebirth of city
- Pompeii Life and Death in a Roman Town Mary Beard

- BBC - Life and Death in Herculaneum (Prof. Wallace-Hadrill)
- Herculaneum Uncovered
- Lost World Of Pompeii
- When will Mount Vesuvius erupt again? | 60 Minutes Australia

المحتويات

أما قبل 1

أتَى أَمْرُ اللَّه 5

يوتوبيا 7

إذا زلزلت الأرض 15

خامدون 23

أول الخيط 31

القَرْيَة 37

المُرْسَلُون 39

نيرون 48

بومبيي 55

فكذبوهما 64

النظرية 78

طَرِيقُ الخَلاص 83

فعززنا بثالث 85

طائركم معكم 90

أرقام 98

بل أنتم قومٌ مسرفون 105

خطة الشيطان.....114
آب يعني أأب.....128
الرحيل.....137
الكَهْف.....155
كهف سابيلا.....157
فيزوفيس.....167
عودة الغائبين.....178
أطياف الذاكرة.....193
مسيرات العودة.....206
بولس الشهيد.....215
تراتيل الحرب.....221
صَيْحَةً وَاحِدَةً.....231
هدوء.....233
مؤامرات.....239
ياء و سين.....250
قرية.. كانت ظالمة.....262
الفلك المشحون.....274
فلمّا أحسّوا بأسنا.....280
رَسَائِلُ اللَّه.....291
هرطقة.....293
لم يعد وهماً.....302

ضياء 314
أما بعد 323

في قلب الصندوق المغلق الذي يخبئه البشر في دواخلهم سنجد كل شيء؛ كل الكذبات التي صدقناها، كل الكذبات التي لم نشأ أن نصدقها، وكل الكذبات التي كانت أصدق من أن نكذّبها ولكنها في النهاية كانت كذبة.

وهناك في عتمة الصندوق وجب على كل منا أن ينظف أوراقه كل حين، لأن بعضها قد يؤذيه ذات يوم حين ينظر إلى حصيلته من الأقاصيص التي أضاع فيها وقته هدرًا، والحكايات التي أوجعت قلبه بلا فائدة. لا شيء يمكن أن يدوم إلى الأبد ولا شيء قد يختبئ الى الأبد، هناك دائما نقطةٌ ترتفع فيها الغمامة عن عينيك فتعود بصيراً كما في فطرتك الأولى التي خلقك الله عليها.

صدقني، الله وحده يفعل ذلك، الله فقط من يُعيد البصيرة لمن سأله الهداية. والله فقط يمكن أن ينجينا من الظلام الذي يمنعنا من رؤية لحقيقة.

هبة محمد المدهون

ISBN 978-9950-329-63-8
9 789950 329638